ABDOULLA BIN ALI AL-ROSTOM

دراسات
RESEARCHES

الدكتور عبدالهادي الفضلي

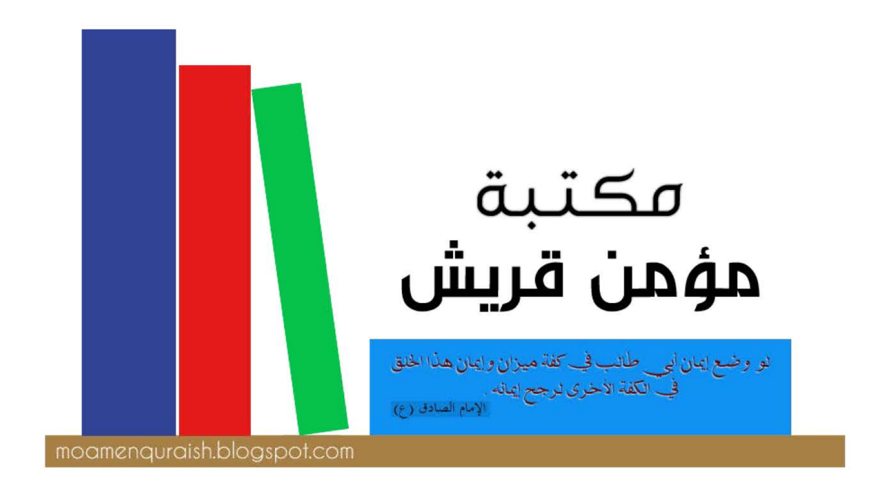
بين الضوء والظل

عبد الله بن علي الرستم





أطياف



الدكتور الفضلي بين الضوء والظل

إعداد: عبد الله بن علي الرستم

الدكتور عبد الهادي الفضلي

بين الضوء والظل

إعداد:

عبد الله بن علي الرستم

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٣٦هـ-٢٠١٥م

توزيع دار الرافدين



دار الرافدين للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت، لبنان

هاتف: ٠٠٩٦١ ١ ٥٤١٩٨٠

daralrafidain@yahoo.com



أطياف للنشر

هاتف / فاكس: ٨٥٤٩٥٤٥ (١٣) ٩٦٦ +

القطيف - شارع القدس

ص.ب ٦١٢١٥ القطيف ٣١٩١١

المملكة العربية السعودية

E-mail : atyaf-pd@hotmail.com


بسم الله الرحمن الرحيم
١٤٢٠

عبد الهادي الفضلي .. بين الضوء والظلّ

■ كلمة منتدى السهلة الأدبي ■

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ملف تكريمي، يحتوي على مجموعة الندوات والكتابات التي أحياها المنتدى بدءًا من العام ١٤٢٨هـ. وهي جهود مشتركة تعبر عن لونٍ من ألوانِ القراءة والكتابة المشتركة، والتأليف الجماعي، وهي ظاهرة عرفها المجتمع العربي قديمًا، ولكن على قلّة وندرة.

□ الكتابة المشتركة في المجتمع العربي

فقد اشتهر الأخوان الشاعران أبو عثمان سعيد (ت٣٧١هـ)، وأبو بكر محمد (ت ٣٨٠هـ)، ابنا هاشم بن وعكة بن عرام بن عثمان بن بلال الموصليان الخالديان بالتأليف المشترك، فقد ألّفَا القصائد والكتب بالتعاون بينهما، وكذلك اشتهرت في الفكر العربي ظاهرة التأليف الجماعي على يد (جماعة إخوان الصفا وخلان الوفا)، واشتهرت رسائلهم وكتاباتهم المشتركة. وقد عُدّ عبد الله بن المقفع (ت ١٤٢هـ) بأنه من (إخوان الصفا). ومن التأليف المشترك (تفسير الجلالين)؛ نسبةً

إلى جلال الدين المحلّي (ت ٨٦٤هـ) وجلال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ)؛ فقد بدأ جلال الدين المحلي في تفسير سورة الكهف حتى الانتهاء بسورة الناس، ولما شرع في تفسير سورة الفاتحة وافاه أجله، ثم تعهد جلال الدين السيوطي بإتمام التفسير، فبدأ من سورة البقرة حتى الانتهاء عند سورة الإسراء، فتم (تفسير الجلالين)، وهو تفسير مشهور منتشر بين أيدي الناس.

□ الكتابة المشتركة في المجتمعات الأخرى

وقد عرفت الكتابة المشتركة في الأدب والفكر الغربي، واشتهر في الأدب الفرنسي المثل: «الكتابة بأربع أيدٍ»، حيث يعبر هذا المثل عن التأليف المشترك، والكتابة الجماعية في فنون الأدب والفكر.

□ الكتاب في انتمائه إلى مجال الكتابة المشتركة

إننا في هذا الملف التكريمي لا ندّعي شرف الكمال، ولكننا ندعي شرف المحاولة. وهذا الملف لا ندعي له بأنه يرتقي إلى مصاف الكتب الإنجازية في دراسة شخصية الشيخ الدكتور عبد الهادي الفضلي، ولكن حسبه أن يكون محاولة مشتركة لمقاربة المنجز المعرفي الذي قدمه الدكتور عبد الهادي الفضلي.

وما ينبغي التأكيد عليه ـ أخيرًا ـ بأن هذه الموضوعات والتعليقات والأفكار المطروحة تعبر عن رأي كتابها، الذين بذلوا جهد الكتابة ومحاولة قراءة تجربة الدكتور الفضلي العلمية والفكرية، فلهم الشكر والتقدير أولًا وأخيرًا. والشكر موصول، أيضًا، للأخ عبد الله علي

الرستم الذي بذل جهد التحرير والجمع والكتابة، فهو لم يألُ جهدًا في تبني هذه الكتابات المختلفة وتحريرها، فقد كان داعيًا وساعيًا في ضرورة كتابتها ونشرها، فله الشكر والتقدير أولًا وآخرًا.

مقدّمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين ..

يعدُّ الدكتور عبد الهادي الفضلي من أعلام الفكر البارزين على مستوى العالم الإسلامي في الفترة الراهنة؛ وذلك لما له من دورٍ بارزٍ على عدة جهات، سواءً في المجال العلمي أو العملي. ونظرًا لأن شخصية الدكتور الفضلي من الشخصيات البارزة، فقد اتّسمت بسماتٍ كثيرة يعرفها من اختلط معه أو قرأ تراثه المتنوّع. فمن السمات البارزة في حياته: أنه صاحب عطاءٍ متجدِّد، ونَفَسٍ طويل، وخُلُق راقٍ فيما يتعلّق بأدبيات الكتابة، واستيعابٍ للقضايا التي يتناولها. ويعمل لأجل قضيته ومبادئه التي آمن بها، مع احترامه للأطروحات المختلفة التي لا يتفق معها.

وقد صدرت دراسات عدّة تتحدث عن مشواره العلمي، وعطائه

غير المتوقف، سواءً على صعيد التعليم الحوزوي أو التعليم الجامعي، ذلك أن همّه الوحيد هو توظيف الأطروحة العلمية وفق أطر تتناسب مع معطيات العصر، سواءً من حيث اللغة أو الأسلوب. ولعل تراثه البالغ أكثر من ٧٠ كتابًا ودراسة يثبتان ذلك.

والصفحات الماثلة بين يديك ـ قارئنا العزيز ـ هي دراساتٌ تَقدّم بها مجموعة من الباحثين ليستنطقوا هذا التراث العظيم، حيث خُصّصت جميعها لهذا الجانب، ومن أراد ترجمة العلامة الفضلي فهي مبثوثة في مصادر أخرى مختلفة، وعلى بعض صفحات الشبكة العنكبوتية.

وقد أخذ **«منتدى السهلة الأدبي»** بقرية الطرف في محافظة الأحساء على عاتقه الاحتفاء بهذه الشخصية على مدى خمس سنوات، وذلك بتنظيم جلسة سنوية مخصصة باسم **الدكتور الفضلي**، وذلك في العاشر من شهر رمضان المبارك، حيث يصادف هذا التاريخ ذكرى ميلاد **الدكتور الفضلي** ـ عافاه الله(*). بحيث يتم استكتاب الباحثين بجميع اهتماماتهم للتحدث عن بعض الجوانب المرتبطة بشخصية العلامة الفضلي، وذلك للتعريف بعطائه العلمي، وسيرته الحافلة بأحداث تاريخية. وقد بقيت تلك الأطروحات حبيسة الأدراج، وكنتُ فيمن شارك حضورًا وكتابةً في الاحتفاء بهذه الشخصية العلمية التي نظّمها منتدى السهلة، وتقدمتُ باقتراح للإخوة المشرفين على المنتدى بأن

(*) تم إعداد الكتاب قبل وفاة الشيخ ﵀ بعام.

الأوراق يجب أن تظهر للنور؛ ليتم التعرّف على تلك الأطروحات المقدّمة، وحتى لا يذهب هذا النشاط السنوي هباءً منثورًا. وكان الإخوة منشغلين بأمور أخرى، فاقترحوا أن أتولّى أمرها، وأبديت استعدادي من اللحظة الأولى في صفّ حروفها وتفريغ المسموع منها حتى كانت بهذه الصورة. ولا أنس جهد الأستاذ/ حسين منصور الشيخ في تواصله ومراجعته الكتاب قبل الطباعة، فله وافر الشكر والتقدير.

أرجو أن تكون هذه الأوراق المقدمة تشكل مساهمة فعّالة في التعريف بتراث العلامة الفضلي العلمي، علمًا بأن هذه الأوراق لا تمثل وجهة نظر منتدى السهلة، بل هي بحوث تمثل وجهة نظر كاتبيها، وقد اقترحتُ تسميتها بـ «**الدكتور عبد الهادي الفضلي .. بين الضوء والظل**».

والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل

عبد الله بن علي الرستم
الأحساء، قرية الطرف
رمضان ١٤٣٣هـ

الموسم الأول

الشيخ الفضلي الشخصية الاستيعابية

سماحة الشيخ محمد العباد

رمضان ١٤٢٨هـ

- افتتاحية الندوة
- الشيخ الفضلي الشخصية الاستيعابية
- مداخلات الجمهور

افتتاحية الندوة

١١ رمضان ١٤٢٨هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

في هذه الليلة المباركة، في ليلة من ليالي شهر رمضان المبارك، نفتتح هذه الجلسة التي نطمح أن تكون إحدى الليالي التي نستفيد فيها من عطايا هذا الشهر الكريم في الاحتفاء بالشيخ الدكتور عبد الهادي الفضلي من خلال استثمار (عطاء الذكرى). ولكي نكون أوفياء لجهود هذا (الفقيه المثقف)، علينا أن نكون قرّاءً لكتبه ودراساته وعطاءاته المختلفة.

نستثمر هذه الليلة المباركة بحضور فضيلة الشيخ محمد العباد في ندوة نتشارك فيها الحديث معه حول جوانب من شخصية الشيخ الدكتور عبد الهادي الفضلي، وقد اختار الشيخ محمد العباد أن يتحدث عن البعد الاستيعابي في شخصية المحتفى به، بوصفه شخصية منفتحة على أبعاد الحياة المختلفة فكرًا وثقافةً وحضورًا اجتماعيًا وإنسانيًا.

إنّ انحياز الشيخ الدكتور عبد الهادي الفضلي للخيارات التي تستوعب نبض الواقع الاجتماعي، منحه فرصة التواصل الخلاق مع أطياف المجتمع، واستيعاب متطلباته، وهذا منحه فرصة طرح محاضراته التثقيفية بوعي حاد، وفكر ملتزم بالمنهج العلمي، والشعور بالمسؤولية الأخلاقية تجاه الطرح المغاير الهادف للتغيير الاجتماعي الواعي.

يتفضل الآن فضيلة الشيخ محمد العباد؛ ليحدثنا عن شخصية الشيخ الدكتور عبد الهادي الفضلي ـ حفظه الله ـ، وعن منهجه «الاستيعابي» في فهم الواقع ومتطلباته .. فليتفضل مشكورًا[1].

(١) الفاتحة لروح السيد مرتضى العسكري، حيث تزامنت هذه الندوة مع وفاته ـ رحمه الله تعالى، حيث توفاه الله في ٤ من شهر رمضان ١٤٢٨هـ.

الشيخ الفضلي .. الشخصية الاستيعابية

■ الشيخ محمد العبّاد ■

بسم الله الرحمن الرحيم

وأفضل الصلاة وأتم التسليم، على المبعوث رحمة للعالمين، سيدنا ونبينا وشفيع ذنوبنا أبي القاسم محمد، وعلى آله الطيبين الطاهرين المعصومين.

أبدأ كلامي بالتبرك بالحديث المشهور عن النبي الأعظم ﷺ أنه قال: «العلماءُ ورثةُ الأنبياء»[1]، وكما هو متفق عليه أن يكون الحديث والكلام عن جوانب متعددة في هذه الشخصية الفذة الكبيرة العلّامة آية الله الدكتور الشيخ عبد الهادي الفضلي ـ أطال الله عمره، ومنّ الله سبحانه وتعالى عليه تمام الصحة والعافية.

وما أتصوره أن كل نقطة مما هو مُقترح أن يكون الحديث عنها بحاجة إلى كلامٍ مفصّل ومحاضرة مستقلة، وإلى متابعةٍ حتى يمكن

(١) الكافي، الشيخ الكليني، ج١/ ٣٢، باب صفة العلم وفضله وفضل العلماء.

إعطاء سماحة الشيخ حقّه في هذه النقطة أو تلك. لذلك اخترت أن يكون موضوع الحديث تحت عنوان: «العلامة الفضلي والشخصية الاستيعابية»، ويمكن من خلال هذا العنوان أن نتحدث عما هو مُقترح من النقاط أو بعض النقاط عن هذه الشخصية الكبيرة، ذلك أنّ مما تميّز به سماحة الشيخ أنه شخصية استيعابية وشخصية موسوعية بكل ما للكلمتين من معنى، ويمكن أن أُشير إلى مصداقيّة هذا العنوان على هذه الشخصية في نقاط عديدة:

☐ الأولى: الجمع بين الحوزوية والأكاديمية

الشيخ الفضلي شخصية استيعابية من خلال ما أفاده سماحته من الربط بين العلوم الحوزوية والعلوم الأكاديمية، والاهتمام في كلا الجانبين، وكذلك التوازن العلمي فيما بينهما من مشتركات، بحيث أخذ من كلا المنهجين ما يكامل به الآخر. وقد امتدّت خبرته في المجال الأكاديمي ما يقارب سبعة عشر سنة في جدّة، وقبل ذلك كانت دراسته بكليّة الفقه بالنجف الأشرف التي أسسها الشيخ المظفر ﵀، فدرس فيها، ثم عيّن أستاذًا ومحاضرًا في الكلية نفسها. وبعدما خرج من العراق، وعيّن محاضرًا بجامعة الملك عبد العزيز بجدّة، ابتعث إلى مصر لينال فيها شهادة الدكتوراه.

وفيما يرتبط بدراسته الحوزوية، وصل إلى المرحلة التي هي عادة آخر مطاف يمكن أن يصل إليه طالبُ الحوزة وهي مرحلة الاجتهاد. وفي حينها كان من العلماء الحوزويين القلّة الذين عُرفوا بدراستهم الأكاديمية، بحيث يجمعون بين الاجتهاد الحوزوي، والدكتوراه

الجامعية. وهذا ما أضاف إليه ميزة من المميزات التي يتمتع بها. وكان الجمع بين المجالين والوصول فيهما إلى أعلى المراتب يعدّ حالة استيعابية: فاستوعب علوم الحوزة إلى درجة التخصص العالي، واستوعب العلوم الأكاديمية إلى مرحلة التخصّص العالي أيضًا. وهذه الميزة الاستيعابية انعكست على دوره الميداني والعملي، فاستطاع من خلالها أن يُثري الحوزة بما تمتع به من مستوى علمي في كتاباته الحوزوية، في مناهج ومقرّرات الأصول والفقه، وعلم الكلام، وكذلك في الجانب التنظيري والتأسيسي على شكل دراسات في مسائل كثيرة كما سيأتي الإشارة إلى بعضها، فكتب حول دور المرأة، ومكانتها، وهل للمرأة أن تتبوأ مراكز ولائية، وهو ما يعني: ولايتها العامّة في المجتمع المسلم وتبوُّؤ المناصب القيادية فيه.

لقد انعكس تخصصه في العلوم الحوزوية عليه، بحيث كانت له مثل هذه الاهتمامات المتميزة التي ربما لا نجدها في كثير من علماء الحوزة، ولا شك أن لاستيعابه للمجال الأكاديمي انعكاس في أن ينتهج منحًى حقيقيًا متميزًا حتى في اهتماماته الحوزوية، فتبنّى رعاية جامعات أكاديمية في الحوزة، مثلًا، كما هي الحال مع «جامعة آل البيت ﷺ العالمية» في قم، التي رعاها وكان وراء إنشائها، وتبنّى خطتها الدراسية، ولا شكّ أن القائمين على هذه الجامعة كانوا في تبنّيهم لهذه المسؤولية تحت إشراف سماحة الشيخ، واختياره ـ أطال الله عمره. وهي من الجامعات المتميزة في اهتماماتها الحوزوية على مستوى المؤسسات العلمية في الحوزة القمية، وهذا ما لمسته عن قرب عندما تشرفت بزيارتها، فأثار إعجابنا ما شاهدناه من تطور مناهجها، والشهادات التي

تمنح للخريجين من هذه الجامعة، وما ذاك إلا انعكاس لاستيعاب شخصية سماحة الشيخ للجانبين الحوزوي والأكاديمي.

كما انعكس ذلك في علاقاته مع الجامعات على اختلافها في العالم، حيث تجاوز الشيخ كونه عالم دين في حدود المجتمع الإمامي، كما تجاوز باعتباره شخصية أكاديمية حدود عالمنا العربي، فكان أكبر وأرقى من أن يحده أو يضيّق دائرته في حدودهما الضيّقة. فعندما يتابع الإنسان علاقاته بالجامعات، تجده على علاقة مع الجامعة العالمية للعلوم الإسلامية في لندن، بل كان من رعاتها ومؤسسيها، فكان إما محاضرًا بصورة مباشرة، كما في سنوات تأسيسها الأولى، أو عبر التسجيل المرئي، وقد ظلّ على تواصلٍ دائم مع القائمين عليها حتى سنواته الأخيرة. وقد أفاد الكثير من الطلاب في محاضراته ودروسه تلك، وقد كان لسماحة الشيخ دور كبير في مراجعة الدراسات التي يقدمها الطلاب المتسبون، بحيث يُمنحون شهادات التخرج من هذه الجامعة.

وأكثر من ذلك، فهناك جامعات غير معروف بأنها إسلامية، وهي أكاديمية محضة، كجامعة اسكوا في شمال نيجيريا، كانت على علاقة وثيقة جدًّا بسماحة الشيخ. ولذلك عندما يتابع الإنسان مراسلاته مع هذه الجامعة وغيرها من الجامعات الأخرى، يجد بأن هناك علاقة علمية متواصلة أكاديمية بينه وبين هذه المؤسسات ورجالاتها من المتخصصين والأساتذة ممن تخرّجوا في هذه الجامعات.

☐ **الثانية: استيعاب الآراء المختلفة**

يستغرب الإنسان عندما يقرأ مثلًا كتاب «خلاصة علم الكلام»،

فيظن، من عنوانه، أنه مجرد مصطلحات وتعريفات وإشارات إلى بحوث في علم الكلام؛ ولكن سماحة الشيخ في هذا الكتاب تراه موسوعيًّا فيما يطرح ويتناول من آراء مختلفة في النظريات التي يذكرها ويطرحها، وهذا معنى أنه في بحثه أو تتبعه أو أطروحاته هو شخصية مستوعبة لآراء الآخرين. قرأتُ له بحث حول «السلام مع إسرائيل» الذي نشر في إحدى الدوريات الثقافية، ذلك أن من يقرأ العنوان للبحث يظن أنه بحث في التحليل السياسي المحض، والموقف الإسلامي العام من مسألة الكيان الصهيوني، فيطرح رأيه كما يطرح الكثير من المفكرين والمثقفين والعلماء وغير ذلك، ولكن القارئ يكتشف أن سماحة الشيخ يطرح هذا البحث طرحًا علميًّا استدلاليًّا مستوعبًا لآراء أئمة المذاهب الإسلامية على اختلافهم. فيطرح رأي أبي حنيفة، ورأي الإمام أحمد بن حنبل، وقبل ذلك روايات أهل البيت ﷺ، ثمّ يطرح آراء لعلماء ليسوا أئمة للمذاهب، ليستخلص بعد كل هذه الجولة العلمية الموقف من خلال دراسته واستيعابه لآراء العلماء في عدم جواز السلام مع إسرائيل.

إن استيعاب آراء الآخرين ونظراتهم يعطي مزيدًا من إقناع القارئ، بحيث لا يكون منشأ الرأي الانفعال، أو الموقف السياسي، أو الظرف الآني، وإنما منشؤه نظرياتٌ متجذرة في الفكر والفقه الإسلامي، كما أنه يستند على آراء يتشارك فيها معه علماء آخرون، وأن القائل بهذا الرأي لم يتعصّب جهة لانتسابه إليها، وإنما ذهب إليه بعدما استعرض جميع الآراء الأخرى المختلفة.

□ الثالثة: استيعاب جميع نقاط البحث

عندما يطرح أحد الباحثين نقطة ما، قد تغيب عنه نقاط عديدة يكون البحث بحاجة إليها. فلو أن شخصًا أراد أن يكتب مثلًا: عن الاستقلال السياسي، يمكن أن يطرح البحث دون الإشارة إلى معنى الاستقلال السياسي، وكأن القارئ عنده خلفية تامة حول معنى الاستقلال السياسي، أو قد يترك الإشارة إلى تاريخ الاستقلال السياسي. وهذا ما لا تجده عند الشيخ الفضلي، فعندما قرأتُ له بحثًا حول «الاستقلال السياسي»، وإذا بسماحته يبحر بالقارئ، من أول ما يحتاجه الإنسان للدخول في مثل هذا البحث، إذ ذكر معنى «الاستقلال» ثم كلمة «السياسي»، ماذا تعني السياسة، وبعدها تاريخ طرح مثل هذا البحث. وأخذ يتناول الاستقلال حتى في المجالات اللغوية، فطرح أمثلة عندما يقال: إستقل الطير، استقلت القافلة، فأنت عندما تدخل وتريد أن تصل إلى ما يريد أن يوصلك إليه سماحة الشيخ، تصل وعندك مقدمات، بحيث لو أبحرت في الموضوع، لا تبحر دون أن يكون لديك وسائل لفهم كيف تبحر، إنما تبحر وعندك الوسائل، ربما قد يوجد عندك استفسار وعندك شبهات، وسماحة الشيخ لا تخرج من البحث إلا والبحث تامٌ في كل جوانبه، أبحرت في هذا الموضوع، وخرجت باللآلئ، وما أردت أن تُبحر من أجله في هذا الموضوع.

□ الرابعة: الجمع بين الإلقاء والكتابة

قلّة من العلماء من جمع منهم بين المستوى العلمي الذي استطاع أن يوصله إلى المتلقي عن طريق الخطابة والإلقاء وعن طريق الكتابة

والتدوين. ولبيان هذه النقطة أشير إلى أننا كنا في أيام الحج في بعض السنوات، نحن نسمع بأن هناك شخصية علمائية كبيرة من المؤلّفين، لها دورات في الكتب ومؤلفات كثيرة، عندما تستدعيه لإلقاء محاضرة أو كلمة، تتوقع منه أنه يبحر في أسلوبه الخطابي وبيانه كما يبحر في قلمه، وإذا العكس بالعكس، ربما من يأتي ويستمع لخطابه ولا يعرف قلمه، يقول أصلًا هذا ليس بعالم وليس بخطيب، يفتقد أبسط آليات الخطابة الناجحة، وفن الخطاب الناجح، لكن سماحة الشيخ كما هو معلوم عند الجميع، يبحر في علمه من خلال الجلسات المباشرة والحديث معه، أو قراءة كتاباته ومؤلفاته. فيجد بأنه عالم وفذ، وعندما يستمع لمحاضراته، فهو ذلك الخطيب المفوّه، الذي يجلب الكثير من الجماهير، سواء كانوا كبار سن أو شبابًا، أو صغارًا.

عندما يكتب سماحة الشيخ ويدوّن، فترى في كتابته ذلك القلم السيّال، الذي يقرأ له المجتهد ويقرأ له المثقف، ويقرأ له الأكاديمي البسيط، والحوزوي البسيط أيضًا، فيدرك ما كتب. وكذلك من يحضر محاضراته يدرك ويفهم ماذا يقول، ذلك أن الخطيب الجيّد هو الذي ينزل إلى مستوى الجماهير ليأخذهم إلى مستواه. وهو ما يشير إلى أن الشيخ كان مستوعبًا للعلم ولآليات إيصاله من خلال فنّ الخطابة الذي يتميز به، ومعه فنّ الكتابة.

ففي محاضراته، يبدأ بإعطاء مقدمة تعريفية ببعض المصطلحات التي يكون المستمع بحاجة إلى أن يفهمها قبل نقاط المحاضرة الأساسية، ولربما يستعين في بعض الأحيان بكلمات أجنبية مرادفة أو مترجمة لهذه الكلمات، أو لكلمات عربية مرادفة للكلمة التي يريد أن يوصل معناها

للمستمع. ومن أمثلة ذلك محاضرة له حول ولاية الفقيه بدأها من خلال تفسيره أولًا لمعنى ولاية، ثم لمعنى فقيه، وبعد ذلك أخذ يبحر في تناول الموضوع من جوانبه الأخرى، كالاستدلالات الفقهية وآراء العلماء، وتاريخ طرح ولاية الفقيه، إلى أن يخرج بنتيجة واضحة جدًّا تقنع المستمع والمشاهد لما يريد سماحة الشيخ أن يوصله من فكرٍ سليمٍ وصحيحٍ إلى الآخرين.

☐ الخامسة: استيعاب شرائح جماهيرية واسعة

فالعلماء الحوزويون والمثقفون والشباب وكِبارُ السن، والمرأة، وغيرها من الشرائح والطبقات الاجتماعية عرف هذه الشخصية معرفةً قريبةً من خلال قراءةِ فكره وكُتُبِه المتنوّعة، ومن خلال دوره وتعامله الأخلاقي المنفتح على الآخرين.

هناك بعض الشخصيات سواء علمائية أو غير علمائية تسعى كثيرًا إلى تبنّي بعض المشاريع الاجتماعية ليكون باسمها الخاص، ليقال فلان من تبنّى هذا المشروع أو ذاك، بل يسعى البعض لينتقل المشروع ولو بالوراثة، فلان أقام المشروع، وبالتالي لابد لهذا المشروع، أن يبقى كأنه ملك له. وهو ما أفقد بعض الشخصيات سمة استيعاب المجتمع على اختلاف شرائحه. سماحة الشيخ تميّز بأنه لا يتبنى مشروعًا مباشرًا فلم نسمع بأنَّ هناكَ مشروعًا مّا أو مسجدًا أقيم أو حوزة أقيمت .. أو غيرها من المشروعات وكان له الدور المباشر في ذلك المشروع، وإنما كان يدفع الآخرين إلى تبنّي المشاريع على اختلافها، وكان يرفض أن يكون مشروعًا ما باسمه، فحتى الجامعة التي أشرتُ إليها، وهي جامعة آل

البيت ﷺ العالمية في قم المقدسة، على الرغم من أنها برعاية سماحته، وهو الذي دفع باتجاه إقامتها، وهو الذي لا يزال على تواصلٍ مستمرٍّ مع القائمين عليها، لكن الكثير إلى الآن لا يعلم بأن هذه الجامعة هل هي للشيخ أو باسم الشيخ أو غير ذلك؛ لأنها شخصية لا تريد أن تنطوي في دائرةٍ معينة، أو في مشروع معين، أو في فئة معينة إطلاقًا. فالشيخ الفضلي شخصية استوعبت الساحة على الرغم مما فيها من اختلاف كبير في الانتماءات، سواءً انتماءات تقليدية، أو سياسية، أو اجتماعية.

سماحة الشيخ كان، ولا يزال، شخصية مستوعبة؛ لذلك أحبه الجميع، المخالفون له في آرائه، والموافقون له. يأتي له المثقف فيستقبله، ويكتب له مقدمة، كما أن طالب الحوزة يقصده كذلك، وعالم الحوزة الذي ربما يخالف سماحة الشيخ في كثير من الأمور، مع ذلك يستقبله سماحة الشيخ بكل رحابة صدر، وعلى استعداد تام أن يقدم له مادام ذلك في صالح المجتمع، وصالحِ الحق وصالح الإسلام.

□ **السادسة: حلقة وصل بين القديم والحديث**

سماحة الشيخ شخصية استيعابية من خلال كونه حلقةَ وصلٍ بين التراثِ القديم الأصيل، وبين ما يمكن أن يدخل في دائرة التجديد، فاستوعب النظريات الأصيلة والفكر الأصيل، كما استوعب ما تحتاجه متطلبات العصر، فاستطاع أن يجمع بين الأصالة وبين المتطلبات المعاصرة.

وأعطي لذلك مثالًا: عندما طرح موضوع المرأة في بحثٍ مفصّل حول أحقيتها في تولي مناصب ولائية، تناوله في البداية من خلال

الحديث عن تاريخ المرأة، وتأثير الوضع القائم للمرأة على الرأي الفقهي؛ لأنه من المعلوم أن الرأي الفقهي عند أكثر العلماء أنه لا يصح للمرأة تولي مسؤولية ولائية، من قبيل: رئاسة مجلس شورى، أو منصب القضاء، أو قيادة عسكرية عليا، أو غيرها من الأمثلة؛ لأنها مناصب ولائية.

ولذلك بدأ البحث من الناحية التاريخية، وأن المرأة في ذلك الزمان، لم تصل في مستواها العلمي ودورها الميداني إلى درجة بحيث تُناط بها مثل هذه المسؤوليات. وكان لذلك تأثير في الرأي الفقهي آنذاك. أما الآن، وقد أصبحت المرأة كالرجل فيما تملكه من مستوى علمي، فدخلت الميدان العملي، وشاركت في ميادين عديدة، وهو ما أهّلها لأن تكون كالرجل في قدرتها على تولي مثل هذه المناصب الولائية، والمسؤوليات الولائية.

وهو ما جعله يذهب إلى أنه «لا مانع من تولي المرأة مثل هذه المناصب، فهي حقيق بها كما الرجل». فالشيخ في هذا البحث لم ينكر الرأي الفقهي القديم، ولم يقل بخطئه، ولم يهاجم العلماء، أو يتهمهم بقلة خبرة، أو الوعي، أو غير ذلك، بل على العكس من ذلك، إذ احترم ذلك الرأي، وقدّره، وبرّر له ما ذهب إليه، وعندما تبنّى سماحته رأيًا آخر، بناه على الوضع المعاصر، حيث واقع المرأة الجديد، وهو ما يتطلّب ـ حسب وجهة نظره ـ حكمًا يتغيّر بتغيّر الموضوع، وتغيّر واقع المرأة.

□ السابعة: الجمع بين التقليدية والحركية

استطاع الشيخ الفضلي أن يجمع بين العلاقة مع المرجعية كعلاقة

تقليدية، والعلاقة مع المرجعية كعلاقة حركة. وهذا ما نتبيّنه من أطروحاته في كثير من البحوث والمحاضرات، إذ يفرّق في كثير من محاضراته بين المرجعية التقليدية وبين المرجعية السياسية الولائية، التي عبّر عنها بولاية الفقيه. فقد يحصل خلطٌ عند الكثير من الناس، سواء كان من الذين يقدسون المرجعية التقليدية، أو الذين يطمحون إلى تلك المرجعيّة السياسية الولائية. فيقول في عدة بحوث له: «بأنه لا مانع أن تكون هناك مرجعية تقليدية، عبادية كما يعبر عنها، وأن تكون مرجعية سياسية لولي من الفقهاء، لمن تكون له ولاية الفقيه)، مستدلًا في ذلك بسيرة العقلاء.

ذلك أن الناس في سلوكهم العقلائي ينتمون إلى فكر شخصية معينة، علمية أو فكرية أو أدبية، لكنه في الجانب السياسي يعطي ولاءه إلى مرجعية سياسية مغايرة.

وذلك لارتباط المسألة بالأهم والمهم، فقد يجد مرجعًا معينًا أعلم في المجالات العبادية، وفي المقابل يرى فقيهًا آخر أكثر دراية، وأكثر وعيًا بإدارة الأمور وإدارة الدولة، فلا مانع حينها، من تقليد كل منهما فيما هو أعلم وأكثر تمرّسًا وخبرة فيه. ولا تعارض في تلكما العلاقتين.

فهنا استطاع سماحة الشيخ أن يكون نقطة لقاء والتقاء بين هاتين المدرستين، لا شك أن عندنا هناك مدرستان موجودتان، مدرسة تقول: لا نؤمن بولاية الفقيه، وأن الرأي رأي المرجعية التقليدية، ومدرسة أخرى تقول: لا بد أن نؤمن بولاية الفقيه، ولا بد أن يكون التقليد لمن له ولاية الفقيه.

ولكن سماحة الشيخ يذهب إلى أنه «ليس بالضرورة أن تجتمع المرجعية التقليدية والمرجعية السياسية الولائية»، وإن كان يحبّذ ومن خلال رأيه بمرجعية سماحة آية الله السيد الخامنئي عمليًّا وحدة المرجعيتين في شخصية السيد القائد - أطال الله عمره -.

وهذا هو رأيه العملي التطبيقي، لكن رأيه العلمي هو عدم المنع من رجوع المكلّف إلى مرجع ما في مسائل عبادية، وإلى مرجع آخر في الولاية العامة، التي يعبر عنها بولاية الفقيه.

□ الثامنة: الانشغال بملء الفراغات الملحّة

سماحة الشيخ معروف أنه لا توجد عنده وكالات كما هي موجودة عند الوكلاء لمراجع متعددين، مع أن سماحة الشيخ يرى في المرجعيات قادة للأمة، ويتشرّف أن يكون مُعينًا ويدًا يمدها لتقويتها فيما من شأنه أن يكون لصالح رفعة الإسلام، وبخاصّة أتباع أهل البيت ﷺ. ولكن سماحته يرى بأن الساحة مليئة بالوكلاء، القرية والمدينة إذا لم يكن فيها وكيل واحد، ففي بعضها وكيلان وبعضها ثلاثة وكلاء، فلم يرِد أن يشغل نفسه بأمرٍ هناك من يقوم به، فالوكلاء الموجودون يقومون بما يحتاجه المجتمع، وهم حلقة وصل بين المجتمع وبين المرجعيات.

لكن .. الملفت للنظر قبوله لوكالة سماحة آية الله السيد الخامنئي - أطال الله عمره -، وما أتصوره أن ذلك ليملأ فراغًا، سواء على مستوى المنطقة هنا، أو أوسع من ذلك، بما يشمل منطقة الخليج. كما أن قبوله لها لا يبعد أن يكون تبركًا بسماحة السيد القائد، ليكون يدًا معينة للقيادة والمرجعية المتمثلة في قيادة سماحة السيد الخامنئي - أطال الله عمره -.

ومع قبوله لها، لا تراه ينافس الآخرين في وكالاتهم، أو يصارعهم في مرجعياتهم، بل يعملُ إلى جانبهم ويُثني حتى عليهم، سواءً كمرجعيات أو كوكلاء للمراجع.

ومثال آخر على اهتمام بملء الفراغات الملحّة، ما قام به من دور في ملء الفراغ الثقافي الذي كانت المنطقة بحاجة إليه، فقام بدور توعوي منذ أوائل سنواته التي تشرّفت المنطقة بمجيئه إليها. فقام سماحة الشيخ بدورٍ جبّارٍ لملء هذا الفراغ في المنطقة، وأحدثَ قفزة قوية في المجال الثقافي والتوعوي، سواءً في الأنشطة المتمثلة في الاحتفالات أو على صعيد التأليف والكتابة، أو في المؤسسات والأنشطة الثقافية والاجتماعية.

ومما أتذكّره في هذا الجانب، عندما تشرفت بصحبته في زيارة لأمريكا قبل ١٤ سنة تقريبًا، حيث كان هناك موكب لأهل البصرة في ولاية ميتشغن، وطلب أهل البصرة أن يلقي سماحة الشيخ محاضرة بالمناسبة. وفي حينها، كان أهل البصرة المهاجرون يمثّلون في أكثريتهم مجتمعًا بسيطًا فيما يتعلّق بالثقافة الدينية، وقد ألقى محاضرة قيّمة عن تاريخ البصرة السياسي والثقافي والعلمي والاجتماعي، وبأسلوبٍ شيّق، بحيث أنعشَ هؤلاء المغتربين البعيدين عن أهلهم والمتشوقين إلى أن يروا عالمًا عربيًا أو أي شيء يذكرهم بانتمائهم، وكنتُ ألاحظ وجوههم وقسماتها المبتهجة وكأنهم في أسعد أوقاتهم وهم يصغون لمحاضرته.

وقد أعجبت بلفتته تلك، فما يتوقعه الإنسان من العالم الحوزوي أن يأتي لمجتمع من المغتربين ليتحدث عن الالتزام بالحجاب والصلاة وغير

ذلك، والأمر بالتقوى والاحتياط في أكل المطاعم، وغير ذلك، وإذا سماحة الشيخ لا يتطرّق ولا يشير إلى أيٍّ من ذلك، وتناول كما ذكرت في موضوعه عن تاريخ البصرة.

فسألته بعدما أنهى محاضرته: «شيخنا، هذا الموضوع، متى سنحت لك الفرصة لتحضيره، والآن طلبوه من عندك؟»، فتبسم الشيخ شاكرًا إطرائي على المحاضرة. فقد كان جميع ما ألقاه مما اختزنته الذاكرة، وذلك لموسوعية قراءته، وقد كانت هذه المحاضرة مثالًا حيًّا على ذلك.

وفي الختام، لا يسعني إلاّ الإشارة إلى أن هذه وقفات قليلة مما يمكن تناوله عن هذه الشخصية العظيمة، فقد أثرى الساحة الفكرية والمحلية، وهو ما استوجب الاحتفاء بها في أكثر من ساحة، وكتب عنه الكثير، وطُرحت شخصيته في مهرجانات وندواتٍ عديدة، مع أنه مهما طرح وذكر عن سماحة الشيخ، يبقى الكثير الذي لا يزال مخفيًّا، وإن شاء الله تظهر السنوات القادمة معالم كثيرة عن هذه الشخصية الكبيرة.

أسأل الله سبحانه وتعالى أن يمنّ عليه بتمام الصحة والعافية، وأن يمتعنا بطول بقائه، وأن ينفعنا بما كتبه وألفه وألقاه وحاضر فيه، وينفعنا بأفكاره وآرائه ونظرياته. إنه سميع الدعاء والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على محمد وآله الطاهرين.

مداخلات الجمهور

□ الاستيعاب واثره في التخصّص ومسألة الثقافة

تناولتم الجانب الاستيعابي لشخصية الدكتور الفضلي، فهل هذا الجانب الاستيعابي أثّر على التخصص، خصوصًا وأن التوجه الآن إلى الدراسات التخصصية؟

والسؤال الآخر: مؤخرًا، احتفي بالدكتور الفضلي بمدينة سيهات في مهرجان عنوانه «الفقيه المثقف»، هل هناك تلازم بين المثقف والثقافة؟

■ الأستاذ أحمد بن مبارك الربيح

□ أشرنا إلى أن من مميزات سماحة الشيخ استيعابه لمجالات كثيرة من العلوم، وهي ميزة لم تؤثر على مستواه العلمي، بل كان لها أثرها في تمكنه من استيعاب الآراء والنظريات، فكان مصداقًا للرواية: «أعقل الناس من جمع عقول الناس إلى عقله»، وللرواية الأخرى: «أعلم الناس من جمع علوم الناس إلى علمه». وما أتصوره أن هذه ميزة أكسبته مستوًى علميًّا أعلى ومعارف أكثر.

أما بالنسبة للسؤال الآخر المتعلّق بمهرجان «الفقيه المثقف»: أنا شخصيًّا لا أجد أن يكون هناك فاصل أو فارق بين الفقيه والمثقف؛ لأن الثقافة هي: ما يملكه الإنسان من وعي أو ثقافة أو علم يقوّم به شخصيته. ولعلّ القائمين على المهرجان أرادوا منها التمييز بين الحوزوي وبين الأكاديمي، ولعلّهم لو استعملوا المصطلحين: «الحوزوي الأكاديمي»، قد يكون أقرب انطباقًا على الشريحتين من أن يقال: «فقيه» و«مثقف». وهذه وجهة نظري.

□ **إفادة المجتمع من الشخصية الاستيعابية**

> **كم أمتعتنا يا شيخنا الفاضل عن هذه الشخصية التي عاشت مغمورة. فكلنا فخر واعتزاز بأن تُنتج منطقتنا مثل هذه الشخصية الاستيعابية، هذه الشخصية التي في الواقع اكتنفت بين جوانحها عدة شخصيات. فهو الشخصية العلمية، وهو الشخصية الأدبية، وهو الشخصية الباحثة، كل الشخصيات احتوتها واختصرتها واختزلتها في شخصية واحدة. وتعقيبًا على المحاضرة، أطرح السؤال التالي: هذه الشخصية الاستيعابية بأفقها الواسع، ماذا استوعبت منها المنطقة، والحوزة بشكل خاص؟**

■ الأستاذ حسين بن علي البوصالح

□ شخصية الشيخ الفضلي الاستيعابية ليس بالضرورة أن يقابلها استيعابٌ من قبل الجمهور. كما عدم الاستيعاب لا يعني عدم إعطائه

المكانة اللائقة التي تعني الفخر والاعتزاز بهذه الشخصية الفذة الكبيرة. إذ ينبغي أن تكون هناك مساعٍ حثيثة في المنطقة باتجاه بلورة النظريات والآراء والجهود التي بذلها سماحة الشيخ في المنطقة وخارجها. وفي الوقت نفسه، لا يمكن تجاهل الجهود المبذولة، فهناك مستوى لا بأس به من الاستيعاب. نعم، قد لا يرقى إلى المستوى المطلوب، لكنه موجود بقدر معيّن، فهناك شريحة كبيرة من الشباب المثقف، الذي أتصور أنه يعتز بالانتساب إلى مدرسة سماحة الشيخ الفضلي في فكره وآرائه ونهجه العملي. وهذا نراه في المنطقة عمومًا، فعندما تذهب مثلًا إلى سيهات وإلى القطيف، هناك شباب يتبنّون احتضان هذه الشخصية الكبيرة، سواء في مهرجانات الاحتفالات أو في مناسباتٍ ثقافية واجتماعية عديدة. ولا يغيب عنكم حسينية الناصر في سيهات التي كانت تهتم كثيرًا بسماحة الشيخ، كشخصية أولى لأنشطة اللجنة القائمة في هذه الحسينية.

كما أن المنطقة هنا في الأحساء هناك شباب يحمل فكر سماحة الشيخ الفضلي وآرائه والنظر إليه بأنه الشخصية الأولى في المنطقة وخارج المنطقة، وأبعد من حدود المنطقة أيضًا، وهذه صورة من صور الاستيعاب لأطروحات سماحة الشيخ.

إن الحضور الجماهيري في بعض المناسبات التي يشارك فيها يدل على أن هناك توجهًا لاستيعاب سماحة الشيخ في فكره وآرائه ومدرسته. وفيما يرتبط بالحوزة العلمية، هناك بعض طلاب الحوزة، لا شك أنهم ينظرون إلى سماحة الشيخ كما ينظر إليه الكثير من الأخوة المثقفين الواعين، ولا شك بأنهم يستنيرون بفكره وآرائه وتوجهاته وتوجيهاته.

كما أن المؤلف أو الكاتب عندما يقدّم له سماحة الشيخ أو يعرض كتابه على سماحة الشيخ لنقده أو غير ذلك، أو يستشير سماحة الشيخ في كثير من الأمور، فهذا دليل على أن هناك مستوى معينًا من الاستيعاب. نعم، قد يكون هناك نقاش بمستوى الاستيعاب، لأنه قد لا يكون بالمستوى والطموح المرجوّ، وهو ما نرجو أن يتطوّر مع الزمن.

☐ تغييب الشيخ الفضلي في تاريخ الحركات الإسلامية

الكلام عن سماحة الشيخ الفضلي، بالفعل كبير وواسع. وبخاصة عندما ننظر للأحداث الجسام التي عاصرها طوال عمره المديد، إذ يبلغ منه أربعة وسبعون سنة، أطال الله في عمره، ومتّعنا ببقائه، لقد كان حاضرًا فيها بكله. وما أتساءل حوله هو: أننا نلاحظ غياب الحديث عن الشيخ الفضلي بالتاريخ، خاصة الأحداث والحضور الشيوعي الكبير على كافة المواقع في العراق، ووقوف الشيخ الفضلي بمعيّة المرحوم السيد الشهيد الصدر، والمرحوم الشيخ محمد مهدي شمس الدين، والسيد محمد حسين فضل الله، والآن الزميل الراحل للشيخ الفضلي السيد مرتضى العسكري في تأسيس الحركة الإسلامية، وإيجاد المشروع له، وأنا لا أتساءل: لماذا تغييب الجانب التاريخي في حياة الشيخ الفضلي مع أنها نقلة خطيرة في حياة المجتمع الإسلامي، عندما تكون النقلة في النجف الأشرف وتكونُ في قم، عندما تكون النقلة بهذا الحجم في تلك المواقع، التي انعكست على سائر المواقع الإسلامية الشيعية،

وأيضًا غير الشيعية من المسلمين، التغييب أصبح الحديث أشبه ما يكون شخصيًّا عن الدكتور الفضلي، في حين أننا حينما نتحدث عن سيرة الشيخ الفضلي بهذه الأحداث وحضوره بقوّة، نرى بأن تعامله مع الشهيد الصدر والرسائل المتبادلة، والذي أطرحه كتساؤل: لماذا تم تغييب الجانب التاريخي في حياة الشيخ الفضلي على أهميته والتحولات التي حدثت فيه؟

■ الأستاذ باقر بن عبد الوهاب الرستم

□ شخصية سماحة الشيخ متعدّدة الأبعاد، ولا يمكن طرح الموضوع حسب بعد أو بعدين في شخصيته في جلسة واحدة أو جلستين أو ثلاث، وإنما تحتاج إلى مدى زمني أطول.

وقد خرج كتاب جديد عن سماحة الشيخ «الفضلي بين عراقين»، وهو كتاب يتناول سماحة الشيخ من الجنبة التاريخية أكثر من الشخصية، وما أتصوره أن البعد التاريخي في شخصية سماحة الشيخ بعدٌ ثريٌ من ناحية تعرّف الظروف التاريخية التي عاشها سماحة الشيخ، سواءً في البصرة أيام صغر سنه، أو بعد انتقاله إلى النجف الأشرف، ثم إلى بغداد، وهجوم الفكر الشيوعي في العراق، وما كان له من دور خطير، حيث كان يتهدد الوجود الإسلامي في العراق إن صح التعبير، وكان للشيخ دور في هذا المجال، وكان من ثمار هذا الدور، نتاجه أول كتاب له، وهو: «مشكلة الفقر» الذي كتبه مواجهةً للفكر الشيوعي الذي كان دخل العراق آنذاك.

لقد كان سماحة الشيخ يعيش الواقع التاريخي وأحداث الواقع التاريخي وله دور في تلك الظروف التاريخية، كما أشرتَ في السؤال، وأتصور أن هجرته من العراق إلى السعودية في جدة، ومن ثم إلى مصر كان من أسبابها وجود هذا الوضع من الفكر المُلحد والمنحرف آنذاك في العراق، إذ كان لسماحة الشيخ دور مع الشهيد الصدر في كتابة «الفتاوى الواضحة»، وحتى الكتب الأخرى ككتاب «فلسفتنا» و«اقتصادنا»، و«البنك اللاربوي في الإسلام». وتوجد بعض الرسائل المتبادلة بين سماحة الشيخ والشهيد الصدر تشير إلى بعض هذا الدور، وتجد في هذه الرسائل أن للشيخ مكانة قريبة جدًّا للشهيد الصدر ﷺ، تارة يعبر عنه بالعلامة المعظّم، رسالة كتبها الشيخ محمد جواد مغنيّة للشيخ الفضلي - أطال الله عمره -، يقول فيها: «وقد التقيت في يوم الأحد الثاني عشر من المحرم بسماحة العلامة الحجّة السيد محمد باقر الصدر ﷺ وقد أثنى فيمن أثنى عليكم وقال بأنّكم الأمل، وأثنى على كتابكم «مشكلة الفقر»، وتذكرت أني لم أشكركم بالشكر الذي تستحقونه، عرفتكم من خلال ثناء الشهيد الصدر عليكم هذا الثناء الكبير وأنكم الأمل».

إن هذا البعد التاريخي في حياة سماحة الشيخ أيضًا يقرّبنا من سماحته والتعرف عليه أكثر فأكثر، ربما نعرفه كاتبًا مؤلفًا وعالمًا فقيهًا، ومحاضرًا قيّمًا وغير ذلك، لكن يبقى دوره في تاريخ العراق وتاريخ الأمة، وحتى التاريخ العلمي، إذ نجد له يدٌ طولى في تاريخ العلم وتطوّره، وتطور الحوزات العلمية. فكما تفضلت البعد التاريخي في شخصية سماحة الشيخ بحاجة إلى تطرق إليه بخصوصه.

□ الإفادة من الدرس الحوزوي في الجانب الأكاديمي

■ أريد أن أشير إلى ناحية استيعابية عند الشيخ الدكتور - حفظه الله، فكما تعلمون في علم أصول الفقه، تُدرس أبحاث كثيرة تعنى بالقضايا اللغوية في علم أصول الفقه، ويُستفاد منها في أبحاث علم النحو، فالذي يدرس في الجامعة علم النحو فقط دون الاستفادة من علم أصول الفقه، وهي كلها توجهات ونظريات تختلف عن الذي يجمع بين علم أصول الفقه والنحو.

فالدكتور - حفظه الله - جمع بين علم النحو فهو عالم نحوي، وعلم أصول الفقه وهو من الفقهاء، واستطاع أن يستخرج لنا بعض النظريات الرائعة في هذا المجال، وألف كتابه الصغير «دراسات في الفعل»، واستفاد من نظريات علم أصول الفقه في النحو كما فعل الدكتور مصطفى جمال الدين في رسالة الدكتوراه، والسيد محمد تقي الحكيم في كتابه «تجارب الأصوليين في المجالات اللغوية».

■ الأستاذ حسن بن علي الرستم

□ إعجاب شخصيات بارزة بالشيخ الفضلي

■ لعل من الأشياء التي لا نعرفها، كنت في البحرين والتقيت بأحد الشخصيات الرسالية والنشطة، فكان يسألني عن الشيخ الفضلي ويتمنى اللقاء به، فانبهرت من حماسه الذي يتمنى فيه أن

تتاح له فرصة أن يلتقي به، ثم يستطرد ويشير إلى أنه عرف الشيخ الفضلي من الدورات التي تقيمها الحوزات في القرى وكانوا منبهرين بها، فكُتُب الشيخ الفضلي هي التي تدرس لهم، فكانوا يطبعون تلك الكتب التي يدرسونها، ويتمنون أن يلتقوا بهذه الشخصية التي تدرس كتبه. وكان يحدّثني بأن أحدهم كان يتحدّث بأن من صفات الشيخ الفضلي أنه لا يحب الاعتماد على الآخرين، لقد كان معجبًا بسماحته دون أن يراه، كما هو تعلقنا بأمير المؤمنين عليه السلام وبرسول الله ﷺ ونحن لم نتشرف بلقائهما، حتى أننا نريد أن نعرف التفاصيل الصغيرة. كان يريد أن يعبر عن مدى انسجامه مع هذه الشخصية ومدى ولعها به.

■ الأستاذ يوسف بن خليفة الشريدة

□ حديث كل أخٍ منكما يفتح أفقًا جديدًا للحديث عن سماحة الشيخ، وجميل جدًّا الإبحار في جوانبه الفكرية: مقالاته وبحوثه وكتبه، فهي جميعًا تبرز شخصيته أكثر فأكثر. فربما يسمعه أحدنا كخطيب أو محاضر، ويسمع غيره من المحاضرين والخطباء، ويمكنه أن يميز بين الشيخ وبين غيره في هذه الجنبة، لكن في الجوانب العلمية والنظرية، وبحوثه التي كتبها تعطي أبعادًا أكثر في شخصيته الكبيرة والعظيمة. هناك عدة كتب ألفت وبحوث كتبت عن سماحة الشيخ، سواء في مجلة الموسم، أو ما كتبه سماحة السيد هاشم الشخص حينما ترجم له في أعلام هجر، أو ما وزّع في ليلة المهرجان، أو ما أشرت إليه من كتاب

«الفضلي بين عراقين»، هذه يمكن أن تكون بحوث مصغرة عن سماحة الشيخ، وسيسفر التاريخ بإذن الله عن صبح مشرق أكثر لسماحة الشيخ. وعندما يظهر بعضنا إعجابه بسماحة الشيخ، فلمعرفته القليل، فكيف بأولئك الكبار الذين يعرفون الكثير عن سماحة الشيخ، عندما تحدث آية الله الشيخ التسخيري – حفظه الله – في مهرجان «الفقيه المثقف»، تحدث عن شخص كأنه أستاذ له، وكذلك عندما تحدث السيد عبد الله الغريفي، وهو العالم الواعي المثقف الكبير ذو المكانة الكبيرة في البحرين، يتحدث بحديث التلميذ عن أستاذه. هؤلاء وغيرهم يتحدثون عن سماحة الشيخ كتلامذة له، فنحن ماذا نكون عندما نتحدث عن سماحة الشيخ. ولكن يبقى سماحة الشيخ العالِم الذي لا نزال لا نعرف عن شخصيته إلا القليل.

وفي النهاية، أشكركم على هذه الدعوة وإتاحة الفرصة للحديث معكم، وربما لم أعطكم أكثر مما هو عندكم عن سماحة الشيخ الفضلي، ولكن هي ما جادت به النفس، نرجو أن يتقبله الله منّا، وأن يتقبل منكم صالح الأعمال، وأن يثقّل به ميزاننا يوم نلقاه.

الموسم الثاني

العلاّمة الفضلي في حاضرة البناء الصدري

الأستاذ باقر بن عبد الوهاب الرستم

رمضان ١٤٢٩هـ

- افتتاحية الندوة
- العلاّمة الفضلي في حاضرة البناء الصدري من الأبجديات إلى الأدبيات

افتتاحية الندوة

■ الأستاذ جابر بن عبد الله الخلف ■

إن من المزايا التي يتمتع بها الدكتور الفضلي ـ من خلال إجراء قراءةٍ ولو عابرة لكتاباته ومحاضراته ـ حرصه الشديد على أن يكون خارج ما يمكن وصفه بالسجال الفكري والديني بمعناه السلبي المتضمن للمبالغة والمعارضة والمناطحة والمبارزة والكرّ والفرّ. فهو لا تبدو عليه صفات المُطارِح فيما يتناوله من أفكار، سواء كان في كتبه أو محاضراته؛ بل يبدو بسيماء الباحث الأكاديمي، ومزايا الحوزوي في انتظام أفكاره وعمقها وشمولها. فتراه ينتخلُ وينتقي أعقد الأفكار من قتام الصراعات والسجالات قبل أن يباشر بها جمهوره، أو يفاجأ بها قرّاءه، كما ينتقي الفلاح جيد البُر من رديئه.

فهو قارئ نقدي بامتياز، وباحث منهجي يسمو بأسلوبه عن مبدأ «المطارحات والمناطحات». وهو حريص أدقَّ الحرص على انتقاء ألفاظه وعباراته وأفكاره من بين ركام الألفاظ والعبارات والأفكار السجالية المتراصّة في متون الكتب. كما أنه يُعرِّيها من أسمال القراءات السجالية التاريخية والمذهبية. فأسلوبه رصين رصانة «الأكاديمية»، ومتين متانة «الحوزوي» الأصيل.

محاضرٌ بارز استطاع، بما يمتلكه من قدرة على المناورة الفكرية، وبما يتسلح به من منهجية وإيجاز ناصع الإيحاء والإشارة، ناصع اللفظ قليل العبارة، أن يشد إليه جمهوره ومتابعي محاضراته. واستطاع أيضًا بعد تجربة علمية عريقة، وخبرة أكاديمية استبدال المنهج السجالي في الطرح الفكري والأدبي بمنهجية «ملء الفراغ» في المكتبة العربية الإسلامية. فأصبحت دروسه وكتبه ومحاضراته تملأ النفس والعقل والقلب، وأخذت مع الوقت تسدُّ الفراغات والفجوات المسكوت عنها، سواء كانت فراغات فكرية، أو عقائدية، أو فقهية، أو لغوية، أو نحوية.

وقد خلت كتبه ومحاضراته، أو تكاد، من العناوين السجالية؛ بغية النأي بأفكار قرّائه وروّاد محاضراته عن الارتجالية والاستفزاز المذهبي، أو الغلو الديني. فلا «مطارحات» ولا «مناطحات في الفكر»، ولا مبالغات، أو مخاصمات، وإنما «سلوكنا من منظور إسلامي»، و«كيف نقرأ التاريخ؟»، و«كيف يجب أن يكون النقد؟»، و«الإمامة والأمة»، و«حضارتنا في ميدان الصراع»، و«المسؤولية الخُلُقية»، و«مشكلة الفقر»، و«أصول البحث»، و«الإسلام مبدأ»، و«أصول الحديث»، و«تحقيق التراث» وغيرها.

فقد أثبت الشيخ الفضلي، بما تناوله، من دراسات أنه خارج تقاليد السجال المذهبي أو الديني. فلا تراه قد تأثر بطاحونة السجال التاريخي فيما يطرحه من أفكار أو طرحه من قضايا، بل تناول ذلك بعقلية القارئ الواعي، ومنهجية الباحث المقارن. ولذا لا تراه مشغوفًا بطرح كل فكرة قد أكل عليها الدهر وشرب، أو مولعًا باستعادة التاريخي بوصفه مأزقًا ومزلقًا، فليس من مصلحة الواقع والمستقبل الزجّ بالتاريخ بكلاكله

دون مبرر منهجي..!

كما أنَّ الدكتور الفضلي في كتاباته المختلفة، ومحاضراته الإسلامية المتعددة يتبنى «منهجية النقد» بوصفها الوسيلة المثلى في دراسة الأفكار. وهو يطرح النقد باعتباره وسيلة هدم وبناء: هدم الآيل للسقوط من الأفكار، وإعادة إعماره بمواد معاصِرة، وآليات حديثة، فيقدم البديل النافع[1].

الخميس ١٨ رمضان ١٤٢٩هـ

(١) الافتتاحية مقتبسة من مقالة كتبتها حول كتابات الدكتور الفضلي ومحاضراته، بعنوان: «اللاسجالية في كتابات الشيخ الدكتور الفضلي ومحاضراته».

العلاّمة الفضلي في حاضرة البناء الصدري من الأبجديات إلى الأدبيات

■ الأستاذ باقر بن عبد الوهّاب الرستم ■

الإيجاز الذي قرأناه لسيرته المباركة، ونوعية الكتب التي ألّفها والمدرسة التي انتمى إليها تساعدنا بدرجة ما لفهمه في عالم الحِراك النجفي الثائِر على الرجعية والتقليدية القاتلة للطاقات المتوهجة، والتي تلقّفها الصانع الحضاري الكبير آية الله الشهيد الصدر، أو هو رأى نفسه في عالمه لينتقل إليه.

وعندما تكون في عالم الشهيد الصدر الصانع الحضاري الكبير، فهذا يعني أننا نقرأ بناءً حضاريًا فذًّا، يفرض علينا قراءة طبيعة البناء الحضاري، وكيف يتم صناعته، وإن لم نكن نريد العزم بالدخول في هذا الأمر تفصيلًا، وإنما معنى ذلك في عالم الشهيد الصدر، وكيف عاشه شيخنا الجليل الفضلي.

لذلك يمكننا القول بأنّ البناء الحضاري هو: الحراك الذي تعيشه الأُمّة من لغة الخطاب فيها، إلى تعاطيها مع قضاياها، إلى بناء كيانها العمراني والعقائدي والثقافي.

إلا أنَّ الأمة لم تعش حيث مفروضات القاعدة التي كان يجب أن تقوم بها وعليها حضارتها، وهو دينها وإيمانها، وإنما كما قال الإمام الحسين عليه السلام: «الناس عبيدُ الدنيا، والدين لعقٌ على ألسنتهم، يحوطونه ما درّت معائشهم، فإذا مُحّصوا بالبلاء قلّ الديّانون»[1]، ما أورث كوارث قاتلة غيّبت عوامل النهوض من منظور أئمة أهل البيت عليهم السلام في هذه الأمة، ليغيب عنها حتى مجرّد البحث عن ذلك، ليكون بناؤها الحضاري مبنيًّا على المواجهة المفروضة، وما تفرضه المعارضة على الحاكميات المنفلتة من تراجع مرة عن غي، وأخرى ما تتظاهر به من ممارسة لخداع الناس «ما درّت به معائشهم»؛ ليكون بناؤها الحضاري في أكثر حالاته متأخرًا عن الأمم الأخرى، وإن كانت في حالات معيّنة غير مقصودة، وتغلب فيها الحالات الفردية تبرز تقدمًا ملفتًا، حافظ على عدم تأخُّر هذه الأمة إلى حد كارثي. إلا أن التخلّف الذي عاشته الأمة في زمن الانحطاط غيّب حتى الحالات الفردية وغير المقصودة؛ لتتسع الهوّة ويكون البون شاسعًا بيننا وبين تلك الأمم.

ولذلك الواقع المؤلم، تمكنت قوى الغرب الاستعمارية أن تتمدد في عالمنا الإسلامي، وتنهب ثرواته، إلا أن المسلمين قاوموا ذلك بطريقة حروب العصابات، وليس ما يحكيه عنها إرثها الديني والإيماني والفكري والثقافي الذي يفرض عليها المبادرة، أو في أقل الأحوال الالتزام بسياسة الوقاية. إلا أن المسلمين لم يستطيعوا مواجهة

(١) تحف العقول عن آل الرسول، ابن شعبة الحراني، تحقيق: علي أكبر الغفاري، مؤسسة النشر الإسلامي – قم، الطبعة الثانية – ١٤٠٤هـ ٢٤٥.

استهدافهم الثقافي والفكري، ولم يكونوا في مستوى حِرَفيّة أساليبه الماكرة، ليعود الغرب بها يشاء إلى كل أمتنا الإسلامية ليمسخ الكثير من الإيجابي الذاتي الذي لديها، وما أمكنه الاستفادة منه، فإنه أخذه ليبني قوام حضارته الجديدة.

نعم، كانت بعض الحواضر العلمية غير الشيعية منتجة وبغزارة؛ إلا أنها لا تحرّك الشارع، ولا تصنعه، وإنما انشغلت لإبراز ذاتها، وتسويغ سياسات حاكميها، ما جعل فعلها الثقافي والسياسي واقعًا تحت طائلة التوجيه والإثمار السياسي الموجّه، فيما السياسيون المتنفذون يفتقرون للإرادة وحكاية واقع أمتهم.

بخلاف المجتمع الشيعي الذي برز كمجتمع مستقلٍ، وذلك من خلال التزامه في صياغة وعيه الديني والثقافي والسياسي بالحوزة الدينية الملتزمة طيلة تاريخها باستقلالها، والذي جعل إرثه الثقافي والفكري والسياسي أكثر استقلالية، ما أعطاه نقاءً وإن كان في بعضه فكرًا غير عملي؛ إلا أنه نتاج عقلية منتجة ومستقلة، وليست موجّهة، أو تشتغل على طريقة المفكّر الموظف.

ولذلك كانت مواقع المجتمع الشيعي أكثر رفضًا وأشدّ حصانةً، ما جعلها الأكثر مقاومة، وذلك بخلاف بعض المجتمعات الإسلامية التي استطاع الاستعمار أن يبقى فيها طويلًا، مكّنه من إعادة صياغة ثقافته إلى حد التحوّل إلى لغته، كما في بعض البلدان الإسلامية، ليكون المجتمع الشيعي الأكثر تسبيبًا للخيبة له، وضياعًا للجهود الاستعمارية فيه، بالرغم من أنهم لم يقاوموه وطاغوتيات آثمة كالشاهنشاهية في إيران

والصدّامية في العراق بطريقة محترفة ومدروسة لما بعد أي إنجاز، إلا إنهم لم يعرفوا الانكسار في تاريخهم كما تشهد بذلك أحداث التنباك، والحركة الدستورية في إيران، وثورة العشرين وحركة الشهيد نواب صفوي، وحركة أبي القاسم الكاشاني، والدكتور محمد مصدّق، والحركة الإسلامية في العراق، وإن خسروا في بعض مواجهاتهم؛ لغياب قراءتهم الصحيحة لتموقعهم الصحيح بعد كل نصر، أو لعدم تكافؤ إمكاناتهم ومشروع حراكهم، كما هي الانتفاضة الشعبانية.

ما جعل الصُّنّاع الجدد للمرحلة الحضارية المعاصرة، والأكثر مصيرية يسعون لتدارك ما فات قيادات الأمس. فتميّزوا بإدارة حراكهم بامتياز، وعلى درجة متقدمة جدًّا من الوعي والحرفية، فكان الإمام الخميني والشهيد الصدر من قادا البناء الحضاري في هذه المرحلة؛ ليكون عملهما بناءً يكمِّل بعضه الآخر؛ ليكون خَلْقًا جديدًا، تبارك الله أحسن الخالقين.

فمن عاش في حاضرة الإمام الخميني، واستلهم منه وعيه وحضوره، والتزم بذلك كالإمام الخامنئي، فإنه سيكون في كل وجوده بانيًا في أي موقع يعيشه، وهكذا بالنسبة للشهيد الصدر، فسيكون من عاش حاضرته بانيًا كما هو الشهيد الصدر، ومتحركًا باتجاه أهدافه وغاياته الشريفة، كشيخنا الجليل أبي عِماد ما استطاع إلى ذلك سبيلًا. وذلك لتميّز حِراك هذين الإمامين الجليلين، كونه قائمًا على رؤية تأسيسية واعية لا تعتمد الاستثناء في مواقع البناء، وإنما تلتزم الحاجة وتعطي بالإمكانية، دون أن تضع خطًّا أحمر لعملها باسم اليأس أو العجز.

من هنا كان البناء الحضاري التأسيسي للمرحلة التي يمكن أن نسمّيها بالثالثة[1] والثانية من حيث الأهمية، وذلك لحضورهما ومريديهما في رفد ذلك البناء، ما ولّد إقامة كيانٍ عصيٍّ على الاستهداف.

في حاضرة البناء الصدري، برز الشيخ الجليل أبا عِماد كأحد العلامات الفكرية والثقافية التأسيسية في ذلك البناء، حيث عاشه من الأبجديات إلى الأدبيات، وأسهم فيه، وناضل من أجله؛ ليكون منه وإليه، والإنجاز الكبير الذي تولّد عنه.

وعندما يكون إنجازًا مرتبطًا بحقبة تاريخية وبشخصية تاريخية وبحراكٍ تاريخي مصيري يستدعي كل العناصر المكوِّنة لصورة المدرسة والإنجاز وعظمته، حيث الشهيد الصدر ذلك الميلاد الجديد للنجف، والحقبة التاريخية الجديدة، والتحوّل الذي بدأ دون نهاية يغرّد في أفق الإنجازات والإبداعات واختراقات الجمود والتقليدية، والفوضى والعشوائية.

وحيث حوزة النجف وذلك الحِراك الكبير الذي هو من طبيعتها؛ لتكون قادرة ـ بطبيعتها ـ على توليده، ليتلوه على أولي البصيرة، ما يفرز سؤالًا بحجم ذلك الحضور، مندفعًا بإثارة محتواه وحساسية حراكه. ما معنى قولتك: إن الدكتور الفضلي هو إنجاز كبير لمدرسة الشهيد الصدر وحده، حيث سواق الشيخ محمد أمين زين الدين، والسيد محمد تقي

(١) حيث الأولى بداية الرسالة وما جرى على ضوئها من بناء، ثم المرحلة الثانية التي كانت في دور التبادل الثقافي والفكري مع الحضارات الأخرى؛ لينتج عن ذلك تطورًا عمرانيًا يواكب التطوّر العلمي والفكري.

الحكيم، والشيخ محمد رضا المظفر؟!

وبالرغم من أن مشروع هذه الدراسة لم يكن بصدد تناول كامل العناوين التي أسهمت في بناء هذا الكيان الرائع المتمثل في علامة حيِّنا، والعلامة الكبير في الحوزات العلمية والجامعات الأكاديمية (جامعة الملك عبد العزيز بجدة والجامعة الإسلامية في لندن) آية الله العلامة الدكتور الشيخ عبد الهادي الفضلي، وإنما هي بصدد تناول الجانب الأساسي في شخصيته، أو قل العنوان الكبير الذي يُقرأ به ومن خلاله شيخنا الجليل، وقراءته على أنه الفقيه بفقاهة مختلفة، ومفكّرٌ ومنظّر وسياسي بطرازٍ صدري بامتياز.

إنجازٌ صدريٌّ كونه اغترف من تلك السواقي، ليُشبع ذاته، لتنتهي به في حاضرة الشهيد الصدر، حيث يرى إنجازه بتلك الهويّة، وإبداعه من خلالها، وقيمته عندما يحمل همومه التي عاشها واشتغل بها لعقدين من عُمر الوثاق بينهما؛ ليتحرّك بكل مخزونه بهمّةٍ في رحلةِ البِناء التأسيسية، ورسم الأُطر والصور والخيارات والنماذج؛ لتبرز بكل إلهاماتها.

إنجازٌ صدريٌّ عندما يستلهمُ فهمه للدّين والحياة من العبقريّة الفذّة للشهيد الصدر، ويضع لمساته في مواقع حضوره كما هي آمال وأماني الشهيد الصَدْر.

لا أقول إن الذات الفضلية ذابت وتلاشت؛ ليكون مجّرد مرددٍ لما يقوله الشهيد الصدر!!؛ لأن قراءته بهذه الطريقة يجعل منه مقلِّدًا غير قادرٍ على الإبداع، فيما هو طاقةٌ من الإبداعِ والإنجاز. وهكذا كان

الشهيد الصَدْر، وهكذا كان هو وكل من عاش ـ مثله ـ الشهيد الصدر وصناعة الشهيد الصدر.

إذ كيف يكون في حاضرة الشهيد الصدر وهو يعي موقعه ولا يكون قادرًا على الإبداع والإنجاز؟، فالشهيد الصدر فتحٌ بذاته إلى كلِّ ما هو إبداع، ولا يستطيع أن يكون في مدرسته من لا يعيه.

بدايات الشيخ الفضلي المفكّر والمنظّر والسياسي كانت في مدرسة الشهيد الصدر، وهي البدايات الأولى لتأسيس حزب الدعوة، التي كان فيها الشهيد الصدر القائد والمُلهم والمنظّر والمؤسس لمنهجه العقائدي والفكري والسياسي والاجتماعي، ولذلك فإننا عندما نقرأ الشيخ الفضلي وانتمائه لحزب الدعوة، أو عندما نقرؤه سياسيًّا لا نجده خارج حاضرة البناء الصدري.

☐ الأساتذة ودورهم في بناء الفضلي كاتبًا وعالمًا ومفكرًا

تتحرك قراءاته بمهنيته الخلاقة في الحقول العلمية والفقهية والفكرية والاجتماعية، وحتى في الحقل السياسي الذي فرضت بعض المعطيات أن يتعاطاه بحذرٍ في خارج اجتماعات حزب الدعوة (القضية العراقية)، ونظرًا إلى أن قيمة الحِراك وثماره في بعض الموارد محدودة جدًّا، أو قد تكون غير مثمرة وغير عملية، ما فرض أن يركّز الإثمار العلمي في كل عطاءاته الفقهية والفكرية والثقافية؛ ليعيش حاضره ويعمل فيه بعلميّته الفذّة، والتي تتعاطى مع الواقع والإرث التاريخي لهذه الأمة، وأثره في صناعة المنجزات، وصقل الخبرات.

وعند قراءته لهذا الواقع ومعالجة إشكالياته، فإنه سيتعاطى مع قراءته للتاريخ بطريقة مختلفة، لا يسقط حلول الأمس على اليوم، ولا مشاكل الأمس على قضايا اليوم.

قراءته للتاريخ وبداياته تعيده دائمًا إلى قراءة بُناة بداياته، وذلك الجيل الذي كانت تلك البدايات تتخلق من خلاله شواهد أو نماذج، حيث هم أساتذته وبُناته، ولذلك فإنه لا يكاد يعيش مناسبة أو قضية أو معالجة إلا وكان أحد أساتذته شاهدًا؛ لأن أساتذته عاشوا واقعهم وتجاربهم بنفس بصيرته، ووعيه وحماسته، لذلك كان حقًّا عليه أن يجلَّ ويبجل ذلك التاريخ وتلك الأستاذية، ما جعلني لا أستطيع الفرار من الإشارة إلى هذه الظاهرة في حياته.

فيما بناؤه السيكولوجي يحكي عن استعدادٍ ذاتي لديه يدفعه إلى أن يتعاطى مع عطاءات أولئك الأساتذة بروح صدريّة وثّابة، كانت في البداية توافقًا فطريًّا في المواقف والاستعداد والآمال والطموحات؛ إلا أنها تكاملت بعد اللقاء بقراءة الأبجديات والأدبيات الصدرية في فلسفته، في رؤاه، في روحيّته، في خطابه، وتحديدًا البناء الصدري الحضاري من الأبجديات إلى الأدبيات، إلى نمذجة الرؤى حياةً وسلوكًا، لأجد نفسي أمام هذه الحقيقة، وهي التي دفعتني أن أتبنّى الاعتقاد المفضي إلى كونه إنجازًا كبيرًا لمدرسة الشهيد الصدر، مع التذكير بالإشارة السابقة إلى أنني أقصده صدريًّا في الفكر والسياسة والممارسة البحثية، كما هي استفادته منه في الدرس الفقهي المتميّز والطلائعي.

وبقدر ما كان له الشهيد الصدر، وبقدر ما كان حاضرًا في وعيه، وبقدر ما كان صانعًا للمسارات الثقافية والسياسية، فإنه لا يمكن تجاهل الشخصيات الحوزوية التي ساهمت في بنائه كاتبًا محترفًا وفقيهًا أصيلًا، برزت مجتمعة في سماحته؛ ليتحدث عنها بما رسمته فيه، حيث هندستها للخطاب وبيانه والمعنيين به، كقولته في شيخه الجليل الشيخ محمد رضا المظفّر والأستاذ المتميّز السيد محمد تقي الحكيم والعبقرية الفذّة الشهيد السيد محمد باقر الصدر.

فكانت قولته في الشيخ المظفّر في معرض جوابه عن سؤال عن الشخصيات التي أثّرت في حياته: «الشيخ محمد رضا المظفّر ﵀ في اللغة العلمية، فقد كان متميزًا بقدرته على التعبير العلمي الميسّر، عن هجنة العاميّة، وابتذال الصحفية، وتعقيد التقليدية»[1].

وفي الشيخ محمد أمين زين الدين: «في التعبير الفني، حيث يتمتع بالقدرة ـ وبتميّز ـ على وضع الكلمة المناسبة في موضعها»[2].

وفي الشهيد الصدر: «في التحليل والنقد، فقد كان موهوبًا وبعبقرية منفردة في القدرة على التحليل العلمي والنقد العلمي. ومن هنا كان أصيل الرأي فيما يعطيه من نتائج، عميق الفكر فيما يكتبه أو يلقيه من بحوث، مستقل الذهنيّة فيما يُبدع ويبتكر»[3].

وفي السيد محمد تقي الحكيم: «في المجتمع وطريقة العرض، فقد

(١) منعطف القرار، علي المهنا، ١٧٦.
(٢) المصدر السابق، ١٧٦.
(٣) المصدر السابق، ١٧٦-١٧٧.

كان قليل النظير في هندسة موضوع البحث وتصحيحه، وفي أسلوب صياغة ألفاظه وبناء تركيبه»[1].

من جانب آخر، لم تكن العلامات المؤثرة في حياته العلمية محصورة في الحوزة، وإنما تجاوزت إلى الحقول الأكاديمية، والتي أخذت نصف عمره العلمي تقريبًا، في الميدان الأكاديمي برزت في حياته:

- الدكتور إبراهيم السامرائي.
- الدكتور مصطفى جواد.

وهما من كبار أساتذة اللغة العربية، يصفهما الدكتور الفضلي بقوله: «السامرائي في المجال اللغوي والأدبي، ومصطفى جواد في مجال التاريخ والأدب وتحقيق التراث. ولهما أسلوب التدريس محبّب جدًّا للتلاميذ، يشد الطالب للعلم بطريقة تربوية عالية، وقد تخرّج من مدرستهما العلمية الكثير من الأساتذة الكبار والمفكّرين»[2].

ويقول: «إن الدكتور مصطفى جواد كان ينقل لهم نقولات تاريخية وأدبية مهمّة من مخطوطات نادرة، جمعها خلال سنين طويلة، حتّى شكّلت لديه كتابًا أسماه «أصول التاريخ والأدب»، ربما جاوز الستين مجلدًا، حوى نصوصًا تاريخية وأدبية مهمّة ونادرة، ولكن للأسف كتابه ظل مخطوطًا، لم يقدّر له أن يُطبع»[3].

(١) المصدر السابق، ١٧٧.
(٢) الفقيه المثقّف، ٣٠.
(٣) المصدر السابق، ٣٠-٣١.

□ الفكر الإصلاحي في مواجهة الانتكاسات

ساهمت مجموعة من الأحداث، كأحداث فتوى التنباك والحركة الدستورية، والتي تدثّر التقليديون (السلبيّون) خلف جانبها الآخر، والمُسمّى بالمستبدّة بما ينسجم وطبيعتهم، وكذلك ثورة العشرين، ومواقف المرجعيّة والحوزة من النظام الجديد الوارث للاحتلال البريطاني، والأحداث السياسية في إيران والعراق المتلاحقة، إلى حراك سياسي ساخنٍ أجبرت طبيعتها المرجعية والحوزوية بكل ثقلهما ومراكزهما على الخوض في الشأن السياسي، ما أدخل المسألة السياسية المعاصرة في الحوزات النجفية ذات الخصوصية التقليدية في كل الاتجاهات في النجف وسائر الحوزات في العراق وإيران، تأثرًا بما يجري في العاصمة العلمية الشيعية (النجف الأشرف)؛ وذلك لأن الحوزويين في النجف الأشرف هم من الإيرانيين؛ إلا أن التعاطي مع المسألة السياسية في النجف الأشرف لم يكن مع كافة أفرادها، وإنما بَدَتْ محصورةً في محورين:

الأول: مواجهة الاستعمار وقضايا الأمة الكبرى، كاحتلال فلسطين والمواقف العلمانية في حال المجاهرة على محاربة أحكام الله وشريعته.

الثاني: مواجهة استهداف المسلمين، كالبهائية والبابية، واستهداف المرجعيات الدينية من قبل المؤسسات السياسية الحاكمة، كاستهداف الإمام الخميني من قبل الشاه المقبور محمد رضا بهلوي.

فيما العمل السياسي بمعناه المهني وفي إطاره الأخلاقي الإسلامي انحصر في ممارسات فردية، وعلى استحياء أو تقية.

ولذلك فإن ضخامة تلك الأحداث، وبالرغم من اقتحامها الواقع النجفي بقوّة، لم تساعد بما يكفي على إشاعة التعاطي الإيجابي مع الشأن السياسي، بل إن مطلق المنتمين إلى الحوزات في العراق وإيران لم يكونوا في وضعٍ ينسجم ومتطلبات المرحلة، ليفرضوا على الحوزة محدودية الإيجابي فيها.

وقد انعكس ذلك على الجانب الثقافي، بجانبيها السلبي والإيجابي. إلا أن حضور الطَبَقَة الإيجابية في الأحداث الكبيرة للأمة بكل وجودها وتمكّنها من التأثير الإيجابي فيها، واصطفاف المرجعيات والقيادات الدينية الكُبرى خلفهم أقلق التقليديين وآلمهم، بل وأقصاهم عن الساحة، ليتجاوز ذلك حد الاشتغال بغيرهم؛ ليظلوا منكمشين يبحثون عن عودة رائدة من خلال انتكاسة هنا أو هناك.

وغياب الخط التقليدي عن التأثير في الأحداث لا يعني غيابهم المطلق عن التأثير في الحياة الثقافية والفقهية في النجف، وإنما يعني عدم قدرتهم على الحضور في الأحداث الكبيرة والقضايا الكبرى للأمة؛ لأن تلك القضايا لم تكن همهم، وإنما كان شغلهم هو التعامل مع المصلحين كخصوم وأعداء، ولذلك فإنهم في مثل تلك الأحداث يغيّبون؛ ليكونوا حاضرين في أي جدلٍ داخلي.

نماذج من الوقائع التي تَمَتْرَسَ خلفها السلبيّون، ما يُسمى بالمستبدة، وهو الاتجاه الآخر للحركة الدستورية ونكسة ١٩٢٤م،

والتي أدّت إلى نفي المراجع الكبار والفقهاء العِظام إلى مدينة قم وطهران، ولم يعودا إلا بعد أن أُخذوا بتعهدٍ بعدم العودة للعمل في الشأن السياسي؛ ليؤدي ذلك إلى انكماش سياسي تامّ، إلى الحد الذي فرض على آية الله الشيخ محمد حسين النائيني أن يقوم بسحب رسالته الفقهية والمؤسِّسة للحِراك السياسي الملتزم (تنزيه الملّة وتنبيه الأُمّة) من التداول[1]، وكذلك مسألة التطبير والتي تفجّرت عام ١٣٤٥هـ، والتي كانت العامل الأكبر لعودة الخط السلبي (التقليدي) إلى الساحة بقوة، وهيمنته ـ أكثر من ذي قبل ـ على أي جدلٍ حوزوي يتعلق بالتحديث والمعاصرة، ويحكم قبضته عليها.

وقد تمثّل الخط الإيجابي في مجموعة من الفقهاء والمراجع، الذين لم يستطيعوا في فترة من الفترات ليس فقط من مواجهة السلبيين، وإنما ليجد بعضهم نفسه مُجبرًا على مداراتهم بإظهار الدعم لهم، وعلى رأس أولئك آية الله الشيخ محمد حسين آل كاشف الغطاء، الذي أظهر دعمه لدعاة التطبير، فيما كان موقفه من قبل مناهضًا له من خلال فتواه الصادرة عام ١٣٣٩هـ، ليشي ذلك أنه كان ضده منذ البداية، إلا أن وراء موقفه المستجد عنف وتطرّف جماعة التطبير، التي كان يتزعمها الخطيب السيد صالح الحلّي، وقد أفصحت إجابة الشيخ آل كاشف الغطاء للأستاذ جعفر الخليلي في كتابه «هكذا عرفتهم» عن دوافع أخرى لذلك الموقف، خاصة وأن الشيخ آل كاشف الغطاء أعاد الفتوى الأولى في كتابه «الفردوس الأعلى» الذي صدّره بمقدمة له عام ١٣٧١هـ، وفيها لم

(١) هكذا عرفتهم، جعفر الخليلي، ١/ ٢٥٩.

يأتِ في ذات الكتاب على فتوى تأييد التطبير، أو التعليق أو التهميش لها، على أن هذه فتواه قبل العدول إلى القول بالتطبير[١]، كما أن الأستاذ جعفر الخليلي سأله عن موقفه الداعم للتطبير حينها، فقال له: «عفا الله عمّا سَلَف»[٢]، فيما أعلن المرجع الأعلى في زمانه آية الله السيد محسن الحكيم رفضه له متأخرًا، وقد روى ابنه الشهيد السيد محمد باقر الحكيم ذلك عنه[٣].

فكانت هذه القضية الأكثر فاعلية في حضورهم في مواجهة الخط الإيجابي، وهذا ما يفسّر كثرة السؤال والإلحاح فيه، حتى في غير أوانه، حتى اجتهدت جماعة التطبير أن يصنّفوا مخالفيهم في معسكر بني أميّة.

ولذلك حاول الخط الإيجابي الإصلاحي تجاوز مسألة التطبير إما بمداراة أهله، أو بعدم الصدام معهم، كما فعل آية الله الشيخ محمد حسين آل كاشف الغطاء، مخافة أن يُفسد تصدّيهم مشروعهم الإصلاحي للحوزة.

وقد برز إلى جانب آية الله الشيخ محمد حسين آل كاشف الغطاء مجموعة من الفقهاء الإصلاحيين:

١. آية الله السيد أبو الحسن الأصفهاني.
٢. آية الله السيد محسن الأمين، وكان رأس الإصلاحيين.
٣. آية الله الشيخ محمد جواد البلاغي.

(١) الفردوس الأعلى، المسائل القندهارية، جواب السؤال الثاني، ٥٨.
(٢) هكذا عرفتهم، جعفر الخليلي، ١/ ٢٣٤.
(٣) موقع دار الولاية للثقافة والإعلام.

٤. آية الله السيد هبة الدين الشهرستاني.
٥. آية الله الشيخ عبد الكريم الجزائري.

كما ساهم بعضهم بحماسة في العمل الإصلاحي، إلا أن مساهمتهم تلك اتّسمت بالفرديّة، وكانت تتراجع للضمور أو للحِراك الخجول؛ لتكون أهم عوامل عدم ذلك غياب السياسة الداخلية لتلك المشاريع، وعدم قيامها بصياغة المناهج المرجوّة لمراحل البناء الذي يستهدفونه، وليس المقترحة والمنتقاة، وإعداد الكوادر المباشرة للمشروع والملتزمة به حاضرًا ومستقبلًا، فيما كان مشروع الجيل الثاني أخذ ذلك في أولويات عمله الإصلاحي.

فكانت بدايات الجيل الثاني من خلال الأساتذة:

١. الشيخ محمد رضا المظفّر.
٢. الشيخ جواد الحجامي.
٣. السيد علي بحر العلوم.

وذلك عبر تأسيس «جمعية منتدى النشر» عام ١٣٤٣هـ، فيما ظهرت أسماء أُخرى على هذا الصعيد، كالشيخ علي ثامر، والسيد محمد سعيد الحكيم (١٣٠٢ - ١٣٩٥هـ) - غير الفقيه الحالي، والسيد يوسف الحكيم، النجل الأكبر للمرجع السيد محسن الحكيم، والسيد موسى بحر العلوم.

وهكذا تتالت المشاريع الإصلاحية؛ لينتهي الأمر بتأسيس كلية منتدى النشر، وكلية الفقه في النجف الأشرف؛ ليتحصل لدينا العناوين الكبيرة في العمل الإصلاحي، وهي الرائدة في ذلك العمل، تلك التي

كانت تصنع الإصلاح، لا تلك التي تتبناه أو تظلّ تبحث عنه دون أن تضع يدها مباشرة على طبيعة المشكلة وعلاجها بالتحديد؛ ليبرز الروّاد الأوائل في الأساتذة الآيات:

١. الشيخ محمد رضا المظفّر.
٢. الشيخ محمد أمين زيد الدين.
٣. السيد محمد باقر الصدر.
٤. السيد محمد تقي الحكيم.

فكان عملهم انتهاج العمل الميداني المباشر، والخطط العملية لتفعيل القراءات الإصلاحية وتوسيع دائرة الحضور، ومدِّهِ بالحياة والفاعلية عمرًا يتجاوز نَفَس الخصوم، وإن كانت بداياتها صغيرة وهادئة، إلا إنها أصبحت فيما بعد علامة نجفية رائدة.

فكان أن حملوا على عاتقهم مسؤولية النهوض الفكري والثقافي والسياسي بالنجف الأشرف بما تحمله أسماؤهم وما يختزنه تاريخهم. ولذلك استطاعوا تلمّس الحاجات التي تتناسب وغايات الانتماء إلى جامعة علمية يمتدّ تاريخها إلى تسعة قرون، فكانت رؤيتهم تقوم على أساس أن تلمس الحاجة يولّد حلولًا ورؤًى وخططًا ونتاجًا يتناسب ومدى تلمّسهم ذاك.

وعندما نتحدث عن الإصلاح والتحديث، فهذا يعني ذلك الحِراك في مواجهة الرجعية والسلبية العتيدة، ما فرض أن يتّسم أولئك الروّاد بالصبر والمرابطة والمداراة، فيما رَكَن آخرون إلى العزوف. إلا أن ما يلفت الانتباه هو أن يتجاوز عمر العمل الإصلاحي القرن، ولا يزال

وكأنه في بداياته، ما يعني المعاناة الشديدة والبدء الأشد في حركة الاستجابة، والهيمنة المشددة لأولئك السلبيين على واقع الحوزة، وإن لم يتمكّنوا من شلِّ تلك الجهود المضنية؛ لتمنّع روّادها بالإرادة الصلبة والعزيمة الراسخة.

في ظل ذلك الصراع وتداعياته، والذي لم يحيِّد أحدًا؛ ليجعل الأقوى على ضبط إيقاع أدائه منتميًا أو محسوبًا على هذا الطرف أو ذاك؛ ليعيش الشيخ الدكتور الفضلي كل ذلك الحِراك في أوج نشاطه وتفاعلاته، ويفرض عليه انتماءً منسجمًا وطبيعته؛ ليرسمه في بداياته تلميذًا نجيبًا لأساتذة الجيل الثاني الإصلاحي، وسرعان ما كان رائدًا إلى جانبهم، وفاعلًا ومؤثرًا بقلمه، بمحاضراته، بكتاباته، بتآليفه؛ ليشارك بمهنيّة محترفة في إعداد المناهج والمقررات.

☐ تمايز الأساتذة واختيار الطريق

مشاركة الشهيد الصدر مجموعة البناء والتأسيس لتحديث المناهج والدراسة في الحوزة كانت نموذجية وخلاقة، وذات خصوصية أبرزت رؤيته للبناء الذي يتجاوز بها حدود المطالب المحدودة بحدود مقررات الدرس الحوزوي، دون الالتفات إلى غاياتها التي تبني مستقبلًا ينسجم وتطلعاته، ما أعطاه تمايزًا على نظرائه الإصلاحيين في أن الإصلاح يتجاوز الدرس والزي والفتوى والمظاهر الاحتفالية المخنوقة في النطاقات الضيقة؛ ليعيش الحياة كلها، ويصوغها وفق رؤية مستوعبة متنامية، ليس فقط تلتزم عصرنة أداء عنصرها البشري، وإنما فتح آفاق القابليات لديها، وتشجيع قدراتها، وذلك وفق رؤية نصّية للبناء

والعصرنة من الفرد إلى الشعب إلى الحكم والحاكمية.

وحيث يرى أن مسؤولية صياغة هذه الرؤية وذلك الواقع المنشود، فإن هذا يعني مسؤولية الحوزة في إعداد وبناء الكوادر الإصلاحية والموجهة لحركة الأمّة نحو أعلى المراتب التي تحكيها حقيقة إرثهم العقائدي والفكري والسياسي، وهو ما ترجوه الإنسانية وما هُيئت له، فيما أولئك الأساتذة الأفاضل الثلاثة فقد انحصر حضورهم في حدود الحراك العلمي المحض، ولم يتجاوزوا به حركة النهوض بالنجف كمؤسسة علمية أو جامعة علمية ذات التاريخ والمجد العريقين، وإن لم يكونوا سلبيين تجاه الحراك الصدري.

ومن هنا فإن حِراكهم، وإن كان قادرًا على صناعة استعداد لمشروع حركي أكبر، يتجاوز النهوض العلمي، إلا أنهم لم يكونوا بصدده، أو لعلّهم كانوا يعتقدون أن ما بعد حِراكهم هو خاصّية الشهيد الصدر، القادر على تجاوز المسار التقليدي المحض للحِراك الحوزوي.

آية الله الدكتور الفضلي بما يملكه من خصوصية منفتحة على مسألة البناء بحقولها الفقهية والفكرية والسياسية والاجتماعية، فإنه سيجد نفسه في أجواء الشهيد الصدر بقوّة تزداد، وهجًا كلّما مثّل الشهيد الصدر فتحًا في آماله وطموحاته. ولذلك أصبح الانتماء إلى الشهيد الصدر انتماءً إلى مدرسة ذات خصوصية مختلفة عن أولئك البُناة، وإن كان يحمل في نفسه بصماتهم.

فمراجعة مؤلفات أولئك الأساتذة الأفاضل يؤكد ما قلناه عنهم، فيما مؤلفات الشهيد الصدر وحِراكه اتخذا طابعًا مختلفًا يتحرّكان من

الصياغة الفكرية والعلمية والاجتماعية إلى بناء الدولة الإسلامية بشعبها وبحراكه الثقافي والسياسي والاجتماعي والعلمي، والتي لم تستقبل فكرتها وضريبتها إلا من خلال الشهيد الصدر ومدرسته.

ولأنه عاش الشهيد الصدر بآماله وطموحاته، وإثرائه الخطاب الديني على مستوى الدين والمجتمع والدولة، فقد شارك أستاذه في العمل التأسيسي للفكر السياسي المعاصر في العراق؛ ليكون أول من كتب في الدولة الإسلامية وطرحها بطريقتها البحثية والمنهجية؛ لتكون أطروحته بمثابة الفتح النجفي في ذلك الوقت، ولم يسبقها حركيًا إلا الإمام الخميني ﵀، وذلك أن الإمام الخميني عندما طرح كتابه «كشف الأسرار» لم يكن بصدد معالجة إشكالية فقهية، وإنما بصدد صياغة رؤية سياسية لحاكمية فقهية، منطلقة من النص، ثم أعاد الكرّةَ إليها من جديد في بحوث الخارج في قم حتى قبل رحيل آية الله السيد البروجردي، وهذا ما ظهر في تقريرات آية الله الشيخ جعفر السبحاني لدرس خارج الأصول الذي كان يلقيه، والذي ظهر بعنوان «تهذيب الأصول»، وقد طُبع في الستينيات الميلادية، فيما كان إلقاؤها في الخمسينيات، ثم أظهر التزامه هذا بمواقفه السياسية التي أدّت بالنتيجة إلى انتصار الحَرَكة الإسلامية في إيران، وهذا ما دفع الشيخ الفضلي للذهاب للإمام الخميني لمناقشته في رأيه عندما كان في قم المقدسة.

ويعني هذا أن موقفه تجاوز حدود الرأي الشخصي ليتحوّل إلى رأي فقهي مؤسَّس على التزام مبنائي، ورؤية ذات بُعدٍ حركي لتتبلور نظريةً سياسية لتنتج نظامًا سياسيًا نموذجيًا، من حيث تأسيس النظرية ثم قيام النظام على أساسها.

لهذا تبنّى الإمام الشهيد الصدر هذه النظرية قبل مجيء الإمام الخميني إلى النجف: «وكان لهذا اللقاء أثره بعد عودة الشيخ الفضلي للنجف، حيث دارت نقاشات الشهيد الصدر، وتبنّت الدعوة على إثرها نظرية ولاية الفقيه»[1].

في هذا الصدد، ألّف الشيخ الفضلي كتابي «الدولة الإسلامية» و«في انتظار الإمام» والكتب والدراسات الأخرى التي تحمل الطابع ذاته؛ ليرسم جهة انتمائه، والمدرسة التي صاغته وتصوغه حركيًّا. ومن خلاله يترجم خطاب ومنطق تلك المدرسة الصدرية التي تختلف قراءتها عن طبيعة الهموم والاشتغالات التي عاشها واشتغل بها أولئك الأساتذة الذين شاركوا في صناعة الفضلي العالم.

ومن هنا، فإنني عندما أتحدث عن الفضلي كإنجاز في حاضرة البناء الصدري، إنما باعتباره إنجازًا صدريًّا أو قل إنجازًا استوحى قيمه والتزامه وحِراكه ومفهوم البناء لإقامة عالم ونظامٍ ومجتمع إسلامي من خلال مدرسة الشهيد الصدر؛ لأجد نفسي أنني أمام إنجازٍ صدري بامتياز. هذا ما أعنيه بالإنجاز، حيث خصوصية الانتماء؛ لأجد لمسات الشهيد الصدر فيه، ولتجعل منه صدري المشروع والرؤى والفكر والسياسة.

ولذلك قال علامتنا الفضلي عن ذلك الفتح النجفي التاريخي الأستاذ العبقري الفذ آية الله الشهيد الصدر: «كان ﭬ ينطلق في إضافاته المثمرة من نظراته لحاضر الحوزة ومستقبلها من خلال واقع

(١) الفقيه المثقف، ٣٨.

رسالتها في حياة المسلمين وتحقيق أهدافها في مجتمعاتهم. وحيث إن الحياة تطوّرت أساليبها ووسائلها، وتختلف ثقافاتها تبعًا لتطوّر حضاراتها حتى أصبح الإنسان المسلم المعاصر أبعد مدًى في نظرته للمستقبل، وأوسع شمولية في استقطابه لما يدور حوله»[1].

وقد ظلّ إلى جانب أساتذته الأجلاء (المظفّر والتقي الحكيم وزين الدين) في نضاله العلمي والحوزوي، وإلى جانب أستاذه الشهيد الصدر في كل حضوره العلمي والحوزوي والفكري والسياسي والثقافي، وحتى في قراءاته لإمداد الأمّة بالوعي الفكري والسياسي والاجتماعي ما أمكن، والتي كان يعمل بها في مرحلة نشاطه العلمي والحَرَكي في النجف الأشرف، وإن كان في طريقة البحث والاستنتاج العلمي اتخذ منحى الأداء الأكاديمي الذي يعتمد المنهجة المدروسة والإيجاز العلمي الإيجابي الذي يشبع المادة عرضًا وحاجة، وقد تعامل معه الشهيد الصدر في كتابة «الفتاوى الواضحة»، وذلك في أخذ الجانب التربوي في نظر الاعتبار؛ لتكون مشروعًا جديدًا وخلاقًا في كتابة الرسالة العملية.

وهذه الرؤية الفضلية النوعية في صياغة الخطاب الحوزوي الجديد ملأ بها موقعين:

الأول: مراعاة الجانب الدراسي والعلمي التربوي.

الثاني: أن تكون في إطار مشروع البناء الصدري الذي يرمي إلى بناء نظرية إسلامية على أساس علمي رصين وأصيل.

(١) المصدر السابق، ٢٨.

ومن ثَمَّ بناء مجتمع إسلامي واعٍ، وينطلق من رؤية واضحة وملتزمة ومستوعبة للمشروع، رؤية وقابلية وتداعيات.

◻ ميادين العمل الفضلية

عندما تكون الظروف معقّدة فإنه من العسير أن ينجح المدفوعون دفعًا لمعالجتها، ما لم يملكوا القدرة على القراءة الدقيقة لطبيعتها المصابرة والمرابطة حتى الخروج من تداعياتها بنجاح.

وقد أطاحت تلك الظروف بقابلية أشخاص رُشّحوا أو زُجّوا في أحداثٍ لا يملكون القدرة على فهم طبيعتها ولا تداعياتها، وهذا ما حدث عندما استبسط بعض من التحق بالشهيد الصدر؛ ليكتشف فيما بعد أنه صغيرٌ جدًّا أمام همّةٍ عالية، وتطلعات كبيرة، وعفّة نفس مجرّدة عن الهوى والصَّغار تحمل في طبيعتها شعار: «من لحق بي استشهد، ومن لم يلحق بي لم يدرك الفتح»؛ ليكون آية الله الفضلي المدرك البصير بهذه الظاهرة الصانعة، ويعيش كلّ همها وتطلعاتها، بل وضريبتها .. إلا أنه لا يُغفِل طبيعة العمل في مثل هذه الساحات، والتي تقتضي الكرّ والفرّ، الظهور بلغة، والغياب بجسد؛ ليجد نفسه الحاضر بقوّة في تلك الحاضرة والفاصلة التاريخية والمؤسِّسة لمرحلة نجفية جديدة متألّقة تضجّ بالحياة، وتنضح حيث الريادة الفذّة التي تختزن المثابرة والثبات والتاريخ والتطلّع المشروع؛ لتتخلّق من خلالها رؤية ومشروع العمل الإسلامي الشيعي في العراق، القائم على الأهداف الثلاثة التالية:

الأول: صياغة النظرية الإسلامية في السياسة والفلسفة والاقتصاد والاجتماع.

الثاني: إصلاح مراكز صنع القرار في المجتمع الشيعي (المرجعية والحوزة).

الثالث: دفع المجتمع الإسلامي بقوّة إلى مشروعه الإصلاحي من خلال صناعة الكوادر الملتزمة وتربيتهم وفق حركيّة المشروع ومدَياته، وتحريكهم نحو الصِدام مع العقبات الكأداء لإضعافها ومن ثم إزالتها، وهو المشروع الذي يحمل مشروع المواجهة والشهادة.

مشروعه هذا لا يقف عند حد تلك العقبات الكأداء، وإنما هدفه مواجهتها إلى أبعد حد، وهو قد تصوّر البديل، وتصوّر الحالة والإشكالية والمعالجة وضريبة كل ذلك، اعتقادًا منه أن ذلك مسؤولية أخلاقية وشرعية إزاء انتمائه. إلا أن مشروعه هذا كما هو بحاجة إلى منظّر لمرحلة التأسيس والبناء الأولى بحجمه، فهو بحاجة إلى مفكّرين من الطراز الأوّل لفهم خطاب النظرية وميدان ذلك الخطاب والنظرية، ما يستدعي منهم استيعاب خصوصية انتمائهم، وطيف الانتماءات الأخرى، فلا يقفون متفرّجين إزاء حالات النشاز التي أوجدها المد الشيوعي، واختراقاته لأوساط المتديّنين المشغولون بتحويل عاداتهم وتقاليدهم إلى واقع شرعي، ما يعود بكارثيّة على الخطاب الإسلامي الإصلاحي ومشاريعه، ومواجهاتها أمام مستهدفيه، وما يسهّل على مستهدفيه اختراقه.

فكان على الشهيد الصدر ومعه كادره الذي التفّ حوله أن يضعوا لَمساتهم الخلاّقة؛ ليعيدوا الكرّة في ملعب الآخر الذي كان يزعم أن الإسلام بلا نظرية سياسية أو اجتماعية أو اقتصادية، بالرغم من أنهم واجهوا عنفًا خطيرًا من جهتين:

الأولى: من كثير من أبناء الحوزة، والذين لم يفهموا أو لم يستوعبوا مشروعه، أو أنهم يرون في هيمنة هذا التيّار الفكرية والفقهية ما يحجِّم حضورهم أو يلغيه.

الثانية: المتضرر الآخر، والذي كان مشروع الشهيد الصدر يستهدف من الأساس، وهو النظام البعثي.

من هنا، كان الشهيد الصدر بمجموعته التي عمل على صناعتها وتربيتها وتكثيرها يحمل مشروع الإسلام الكبير، فكان مشروعه بحجم الإسلام في شموليّته وبحجم فاعليّته في بناء الحياة. فكان الصف الأول في مجموعته أفضل من استوعب خطابه ومشروع حِراكه، وإن اختلفوا في بعض مفاصل عملهم نتيجة الاحتدام العنيف مع النظام البعثي، إلا أنهم برزوا كأنضج ما عرفته النجف الأشرف من منتمين إلهيًّا على مستوى الانفتاح على الآخر وتقديم قراءة نموذجية للإسلام في كافّة حقوله، والتي تمثّل أكثر إلحاحًا لدى السائل الآخر.

ولم يكن دخولهم في أجواء الشهيد الصدر وفي مشروعه بهدف أن يتوحدوا جميعهم في إنتاج مادة واحدةٍ وببيان واحد؛ وإنما بتبنّي كل واحدٍ منهم مجموعة من العناوين والعمل عليها ما استطاع، فكان الشهيد الصدر في مقدمتهم، عندما انفتح على أكبر قدرٍ ممكن من العناوين والقضايا التي تُشغل الساحة العِراقية والإسلامية، وتعني الإسلام في شموليّته وفي عالميّته؛ ليشتغل فيها بروحيّة المتخصص والمُبدع والمؤسِّس، وكان كما اشتغل قلمه؛ ليكون المُبدع في كل حضوره.

وقد كان علامتنا الفضلي من أبرز علامات الحِراك الصدري

الإصلاحي النموذجي، فاشتغل في الكتابة والمحاضرات والتبليغ بحِرَفيّة أُستاذه؛ ليصفَ الشهيد الصدر ذلك الحضور بقوله: «والواقع إن ما يحزّ في نفسي أن تكون أوضاع الحوزة بشكلٍ يزهد في الإقامة أمثالكم، ممن يرفع الرأس عاليًا، ويشكّل رقمًا من الأرقام الحيّة على عَظَمةِ هذه الحوزة التي تُتيح رغم كل تبعثرها أن ينمو الطالب في داخلها بجُهده الخاص إلى أن يصل إلى هذا المستوى المرموق فضلًا وأدبًا وثقافة. وعلى أيّ حال، سواء ابتعدت عن الحوزة مكانًا أو اقتربت، فأنت من آمال الحوزة ومفاخرها»[1].

□ سِمات ذاتيّة في البِناء

ما نريده هنا هو أن نُسلّط الضوء على هذه العلامة في حِراك الشهيد الصدر، أي الدكتور الفضلي بأخلاقياته، بحِراكه، بثباته، وماهيّة منتجه المتميّز طيلة عمره العلمي المبارك.

عندما نزمع قراءته فقهيًّا وسياسيًّا ومثقفًا ومنظّرًا للحركة الإسلامية في العراق، فإننا بحاجة إلى الاقتراب كثيرًا منه، حيث سماته الذاتية ودورها في صياغته مفكّرًا ومنظّرًا حركيًّا، وكيف كان إلى الشهيد الصدر ذلك الأخلاقيّ المتفاني في قضيته، المتميّز بنكران ذاته؟؛ لنقرأ في سجاياه ما يجذبه إلى الشهيد الصدر؛ ليرتبطا معًا في الرؤية والتاريخ والبناء والالتزام.

ورد عن النبي ﷺ قوله: «ألا وإنّ الأرواح جندٌ مجنّدة، فما تعارف

---

(١) منعطف القرار، علي آل مهنا، ٩٥.

منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف»[1]، فلم يكن اللقاء مع الشهيد الصدر لقاءً في الرؤية السياسية والمعالجات الإصلاحية فحسب؛ وذلك لأن هناك كثير من يرون ذلك، ولم يكن شيخنا الفضلي منسجمًا معهم، ولا متفاعلًا، بل في بعض المراحل كان على النقيض وإيّاهم، وهذا ما يفسّر ادّعاء البعض الانتماء للشهيد الصدر، فيما أخلاقيّاتهم على النقيض والشهيد الصدر، فأصبح احتسابهم عليه إساءة له، وعبئًا على كل حضوره.

هذه الخاصّيّة أثارتني ولفتت انتباهي؛ نظرًا إلى أنني عشتُ هذه الحقيقة بنفسي، فأتحدث عنها عن قربٍ وتجربة؛ لتكون شخصية بحثنا هنا منسجمةً وطبيعية الرؤى والمعالجات الإصلاحية وأهدافها الشريفة، كما أنّ حديثي هنا يحتضن الرغبة لديّ في أداء الأمانة، وحفظًا لأستاذيّته في البناء، إلى درجة ألا يشعر الهدف بمشروع بنائه إلا وقد شبّ عن الطوق، بفضل منهجية البناء الفضليّة المتميزة.

وفي أجواء الحديث عن الشهيد الصدر والبحث عن شاهدٍ يُترجم لي ما يدور في خَلَدي، فوجدتُ الكثير ما ينوء به كتابٌ كبير، إلا أن ما كان يعنيني رأيته لدى شاهدٍ عاش الفضلي نجفيًّا في النجف، وكيف كان يتعاطى مع الآخرين، وأستاذًا ومربيًا، حتى فيما لو كانوا في بعض حالاتهم خصومًا له، فلنقرأ ما كتبه الأستاذ المفكّر السيد هاني فحص: «ما رأيته في أيّامي الأولى في النجف الأشرف من سلوك سماحة العلامة الشيخ الفضلي اعتبرته لاحقًا بعد تكاثف الخبرة والتجربة لونًا من

(١) روضة الواعظين، الفتال النيسابوري، ٤٩٢.

تواضع العلماء الذين يتيسر لهم المزيد من العِلم بإلحاحِهم الدائم على اكتساب المعرفة، وأحيانًا وكلّما ازدادوا علمًا بدا عليهم أنهم يتّهمون أنفسهم بالجهل، وكلّما ازدادوا شكًّا في معارفهم واستقلالًا لعلمهم، كلّما أنصفهم الآخرون من أساتذتهم وزملائهم وتلامذتهم؛ لشدة تواضعه أغراني أنا تلميذه المبتدئ بالظنّ بأني زميله، كنتُ أقلّ إدراكًا لظننتُ أني أستاذه، ذلك أني كنتُ أعرف أمورًا من نوافل المعرفة؛ لكنه يستحسن بعض ما أعرفه، فيصغي متعلمًا لأكتشف لاحقًا أني أنا الذي ازددتُ معرفة من علمه، أما هو فقد ازداد محبّة في قلبي ومهابة في عقلي.

قيل لدى وصولي إلى النجف بأن في عيني وفي لغتي ما يشي برغبة في وصل القديم المنجز بالحديث الواجب الإنجاز، فما عليّ إذن إلا أن أعتني بدروسي الابتدائية الحوزوية، وأتابع دروسي الثانوية في مدرسة المنتدى، التي هي نتاج مدرسة فكرية رائدة، أرادت أن تحقق المطلوب من تأسيس المعاصرة على الأصالة، وكان سماحة الشيخ الفضلي إحدى ثمراتها الأولى. ولأسابيع كنت تلميذه في المدرسة الليلية، لأكتشف أنه لا يزيد في تعليمي العربية عن إعادة سليقتي السليمة نسبيًّا إلى قواعدها، لتتحول إلى علم باللغة يؤهلني لفهم النص على نسقٍ علمي، بدل أن يبقى الانطباع هو حيلتي في التعامل مع النصوص، وهو لطيفٌ في الفهم والفقه، ولكنه لا يكفي. من هنا، كان يقف مرتاحًا إلى إنشائياتي ومشجّعًا، مشترطًا أن أعتني بالوحدة العضوية بين الشكل والمضمون.

هدوؤه خفّف قَلَقي الذي يكاد أن يكون من خصائصي، وعندما كاشفته بأنّ هذا القلق يساورني من استمراري في المدرسة قد يقطعني عن الحوزة، ابتسم ابتسامته المعتادة الهادئة مع صوتٍ خفيف في حركة

الشفتين يطمئنك بأن الابتسامة غير مفتعلة، وقال: على بركة الله، فغادرت المدرسة، ألحّ الصحب الأتراب على أن لديّ ما يؤهلني لتجاوز التراتب الزمني في طلب العلم، وشدّوني إلى الصف التحضيري في كلية الفقه، فجمعني الصف الضيق مساحة إلى عشرة ونيّف من الطلبة، وعدد من الأساتذة، أطلّ علينا شيخنا الفضلي أستاذًا نهاريًّا في موقع الإعداد للدراسة الجامعية التي أريد لها أن تكون مرحلة إعداد حديثة لما لا ضرورة إلى تحديثه؛ لأنه حديثه.

وغبتُ عنه ثلاث سنوات لأعود إلى الكلية التي تخرّج منها وعلّم فيها من دون أن أكون تلميذه في هذه المرحلة، ولكن علاقته الوظيفية والأساسية بجمعية منتدى النشر والكلّيّة عمومًا، وضعتني في سياقه، فانعقدت بيننا صلة وثيقة، أدّت إلى قبوله أن أكون مع بعض الزملاء مشرفين على إصدار مجلة الكلية «النجف» وتجديدها على مفصل النكسة عام ١٩٦٧م، على أن يكون ممثلًا للعمادة في هيئة التحرير، وهنا انفتحت العلاقة بيننا على إشكال لم يلبث أن انفجر، فأنا والأربعة من شركائي في هيئة التحرير لنا موقفٌ سلبيٌ من الموقع السياسي الذي يحتلّه سماحة الشيخ، من دون أن يستطيعوا بسبب سلوكه المتوازن أن يخلطوا بين شخصه وإطاره السياسي، ولكنّهم قرّروا أن يستبعدوه بصفته السياسية عن المجلّة، وحصل، فصدرت سبعة أعداد من المجلة من دون أن يُدعى إلى اجتماع تحرير أو يُستشار في شيء، واستقوينا عليه بنجاح المجلّة. ربما تعرض هو للضغط من أطراف حساسيات نخمّنها ولا نعرفها بالتفصيل؛ نظرًا لأن المجلة المكتوب اسمه فيها ممثلًا للعمادة، اتبعت خطًّا يمكن أن أتهمه بأنه معادٍ للإسلام السياسي أو الحَرَكي أو الحزبي،

وأدوات تحليله ومشروعه، كان لا بد لمن يرى ذلك أن يصنّف المجلّة، فصُنّفت يسارية مرة، وقوميّة مرة أخرى، فشعر الشيخ بالحَرَج الشديد وانفجر في وجهنا في اجتماع الهيئة الإدارية للجمعية، فاعتذرنا ولكننا واصلنا عملنا بالطريقة ذاتها. كان الحلّ في النهاية أن تتوقف المجلة عن الصدور بعد عددها التاسع.

نحن شعرنا بالانتصار على الشيخ، على الإطار السياسي المقصود، لم نشعر بالخسارة، أما الشيخ فقد شعر بالخسارة، ولم يشعر بالانتصار على أحد، وهذا كان الفرق بيننا وبينه، وتبين لنا ذلك من بقائه على علاقته الودودة بنا، على رغم نظرتنا الجافة إليه.

وفي لحظة شعرتُ شخصيًّا بأن الرجل يريدني أقرب إليه مما أنا عليه، فاقتربت وأسرّ لي بحبه لي وأمله فيَّ ونصيحته لي بأن أنتبه إلى أن مستقبلًا علميًّا ينتظرني، فلا يجوز أن أفرّط في وقتي وعقلي.

أشعرني هذا الكلام بالزهو من دون جبروت، ولكن أثره عليّ فيما أراده لم يكن كبيرًا، ذلك أني شديد التوتر وقلقي يتفاقم والحوزة هادئة ومستقرة، أما الشيخ الفضلي فإنه استطاع أن يعضد توتره الدائم واعتراضه العميق بالإذعان العلمي للحوزة، ومن هنا كانت حصيلته العلمية أوفر، ولكن المشترك بيننا أي الانهمام [هكذا] والاهتمام بالحوزة والإسلام والمعرفة والمصير والتجديد، كان واسعًا وكان جامعًا، ويومًا وافيته بنص من نصوصي المتوترة فقرأه بإمعانٍ ونصحني ألا أنشره؛ لأن الجهة موضوع النقد، وهي سياسية لا تتحمله، ويمكن أن تؤذيني؛ لأنه يؤذيها، وهي بحسب تجربته المعمّقة داخلها، لا تتسامح في أي أمرٍ يطال

بُنيتها وأداءها شأن أيّ حزب، وإن كان ذلك لم يمنع أن تتطور بعد خسائر جسيمة لتصبح أرحب وأكثر إصغاءً للنقد المخلص، وامتثلت لنصحه .. وهذا شاهدٌ من شواهد شهادتي له. وقد كنتُ أفضل أن يشهد لي أكثر؛ لأنه يشهد لي بالإخلاص، وسلامة الذات وحبّ المعرفة والإخلاص، ولكنه لا يشهد لي بالصبر والأناة .. لقد استعجلت، أما هو فقد تأنّى وصَبَر. وعاقِبَةُ الصبر: الاجتهاد، وإحساس الجميع بحجّيّته: الحاجة إليه، وأنا الآن أحاول بالاعتدال الذي اهتدى إليه الشيخ مبكّرًا أن أعوّض بعض ما فاتني.

كدتُ لطول ما رأيته قليل التغيير لملابسه صيفًا وشتاءً أن أسأله عما إذا كان بحاجةٍ إلى المال، واستبعدت أن يكون بحاجة، وإنما هو الزهد والتواضع، ولكني لاحقًا اكتشفتُ أنه بحاجة إلى المال، ولكن العفّة بَلَغت منه مبلغًا، جعله يرى قديم الثوب جديدًا، وجديد العلم قديمًا .. فيمضي يجدد علمه ويضفي من عقله ومضمونه على ثوبه وشكله .. وأخذنا نرى ثوبه نظيفًا أنيقًا جديدًا»[1].

لقد لامستْ هذه الكلمة حقيقة شيخنا الفضلي، إلا أن هناك مفردة أراها لم تأخذ حقّها في كلمة السيد فحص، وهي فيما يتعلّق بملبسه وعدم التغيير لتعففه، فمن خلال ما رأيته أنه حتى بعد أن كان في وضع مادّي مريح جدًّا لم يختلف شيئًا في حياته.

كان يثير انتباهي بشدّة كلّما زرته، فهو بالرغم من زياراتي العديدة له، فإنني لم أجد شيئًا يتغيّر في مجلسه، حتى الكنبة المثقلة بزوّاره لم تتغيّر،

(١) منعطف القرار، علي آل مهنا، ٣٥٣-٣٥٨.

والتي في بعض مقاعدها ضعيفة لا تقوى على تحمّل الجالس الصغير، فلم يتغيّر حتى لون الصبغ العادي جدًّا لمجلسه، وكذلك البساط. وأما ملابسه، فإني لا أكاد أراها تتغيّر، على رغم المسافات الزمنية التي أحظى بشرف زيارته، وإذا تغيّرت لا أستطيع أن أنتبه لذلك التغيير؛ لعدم اهتمامه بذلك.

في الواقع لا يمكننا القول بأنه كان متعففًا بالرغم من حاجته للمال، وإنّما كان زاهدًا وورعًا. فتاريخه وماضيه وما أنتجه وما يتوفر عليه من حصيلة علمية قرأها الفقهاء والأساتذة الجامعيين والمثقفين الذين شهدوا له بعلوّ كعبه فيما كتب. لم يتحرّك باتجاه تسنيم نفسه مقامًا يتناسب وتلك الآثار الجليلة التي أثرى بها المكتبة الإسلامية والحوزوية، حيث تلاميذه بَلَغوا مقامات عالية في الحوزة، وهم يشهدون بأستاذيّته عليهم، إلا أنه لم يسعَ إلى شيء من ذلك، ليبحث عما يحقق آماله وطموحاته الجليلة، وإن كانت في أحد تلامذته؛ ليعيش نُكران الذات كما هي حالة أستاذه الشهيد الصدر.

في احتضانه لمن يعتقد أنهم طاقات شابّة يمكن أن تشب وتكبر، رأيت تبنّيه الكثير دون أن يعنيه انتماءاتهم الثقافية والفكرية، فيرعاهم، ويتواصل معهم ليسرّه أن يرى أحدهم وقد وضع قدمه على المساراتِ المأمولةِ لديه.

رأيتُ ذلك معي، بالرغم من تقدّم ميلاده المبارك على ميلادي بأكثر من ثلاثةِ عقود ونصفٍ إلا أنني لم أشعر أنني أجلس يومًا إلى أستاذٍ يُلقي عليّ درسه أو تعليماته أو تجاربه، وإنما إحساسي معه دائمًا

أنني في حلقة حوارٍ ومناقشةٍ وتداول، تأتي إلى فكرته بحماسٍ شديد، فلا تجده يحفل بذلك فرحًا أو مكسبًا، وإنما عينه على بناءِ إنسانٍ مثقّفٍ ومفكّر وطموح.

تسأله: «ما جديدك؟»، فيذهلك بإقباله عليك، يراك كفوًا أن يجيبك حتى بتفاصيل إنجازه، إلى حد أن يقول لك أين وصل، أسأله بخجل، لأكون بنشوةٍ عارمة عندما يجيبني على ذلك النحو من التفصيل؛ لأنني أرى نفسي كبيرًا في عينه عندما يتحدث لي على ذلك النحو.

ومن جهة أخرى لا يتصفّح أمامك تاريخه ليشير إلى ذاته وإلى إنجازاته، فينتشي بالتغنّي بها، وإنما يجيبك عند سؤالك عن جديده، إلا أنه في اهتمامه مشغولٌ ببناءٍ آخر يضع اللّبنات الجديدة على ما بناه سَلَفًا. لا تجده يهدم بناءً ارتدادًا على فكرةٍ أو نكوصًا عليها، لأن فلانًا آمن بها، وتوافرت له الظروف لترجمتها قبله، كما هي حالات بعضهم.

في اللقاء الفكري الذي تشرّفتُ بإجرائه معه، والمنشور في مجلّة المنهاج في العدد (٤٧)، ذكر تأسّفه لأسلوب الدرس والتدريس، سواءً في الجامعات أم الحوزة، وهو عدم تبنّي الطالب كشريك ومشارك في الدرس، وإنما الإبقاء على التقليدية التي تحدُّ من نموّ وبناء ذهنيّة الطالب، حيث لا تتجاوز أن تسير بالطالب وقد تخرّج بتلك المادة وبتلك الكيفية، في حين يريد أن يخرج الطالب مستبقًا المادة ليطوّر فيها بطريقة مبدعة ومنتجة، وهو ما يعوّده على الإبداع والإنجاز مبكرًا، في حين أن التقليدية في طريقة الدرس في الأكاديمية والحوزة تؤجل ذلك

إلى سنٍّ متأخرة، قد يقضي على وهج الحماسة التي يتمتع بها أيام دراسته.

> **«■ تتميز كتاباتكم بأنها تسعى إلى منهجة الدراسات الحوزوية بأسلوب أكاديمي يركّز على المعلومة وتبسيطها وحذف المكرر، بدءًا بالمقدمات (مختصر النحو، وخلاصة المنطق، ومبادئ علم الفقه، ومبادئ علم الأصول)، وانتهاءً بالسطوح العليا من خلال دورتي الفقه والأصول اللتان قدمتهما للطلبة. ألا تتصور أن ذلك يؤثّر سلبًا على شموليّة العرض وعمق الاستدلال للطالب الحوزوي؟ وهل مشروع رسم الخطط للطالب منذ بدء دراسته يمكن أن يساعد على تحديده لأهدافه ومعايشته لواقعه؟ ولاختصاره للزمن الذي يشتكي منه دائمًا في الدراسات الحوزوية؟!**

□ بالنسبة للمحاولات التي قمتُ بها أعتبرها محاولات متواضعة وتجارب بسيطة، والذي دفعني إلى وضع أمثال هذه الكتب هو افتقاد العنصر التربوي في الدراسات الحوزوية، بمعنى أنني أحببتُ أن أدخل العنصر التربوي إلى جانب العنصر التعليمي.

نحن لا نريد الطالب في الجامعة أو في الحوزة أن يكون متلقيًا كالطالب في الابتدائية أو في المتوسطة أو الثانوية، نريد من الطالب في الحوزة والجامعة أن يكون مشاركًا، نريد أن نربي فيه الذهنية العلمية، نريد أن يكون مشاركًا في مرحلة البكالوريوس وما بعدها، أو في مرحلة البحث الخارج في الحوزات العلمية، لا نريد أن يكون لدينا أستاذٌ ولدينا طالب، والطالب يتلقى فقط. نريد طالبًا مشاركًا وأستاذًا مشاركًا، مع

الفارق في المستوى، هذا لا يتأتى إلا إذا أدخلنا العنصر التربوي، وهي محاولة»[1].

لا تسمع منه عبارة: «لا زلتَ صغيرًا» أو «أنت لستَ أهلًا في أن تخوضَ في هذا»، أو «هذا ليس تخصصك، أو من شأنك»، ليُنهي حواره معك بهذه العبارة بمنطق فوقي متعالٍ .. أبدًا، وليس من سجاياه أن يفعل ذلك، ولم يفعل. بل كلّ همّه أن يضيء لك الأشياء بحماسة شبابك، دون أن تعبث بسجاياه سنوات شيخوخته التي تهجّمت عليه دون هوادة. من هنا، فإن زيارته والجلوس معه حلقة درس لا تبدأ بعنوان، ولا تنتهي بـ «احفظ عنّي ذلك، رعاك الله، وسأسألك عنه»، لذلك تشتاق لجلسته التالية وأنت في مجلسه.

بل كان يشعرني أنني أفضل زائرٍ له، فإذا رأيتُ كيف استقبل ضيوفًا جددًا، رأيته يصنع لهم ما صنع معي، بالرغم من أنهم قد يختلفون معه فكرًا وانتماءً، وقد أفصح لي عن بعض زوّاره واختلافهم معه، إلا أنهم لم يشتكوا منه تقصيرًا ولا ملَلًا ولا استخفافًا.

لنقل ذلك سجيّة جُبل عليها، أو لنقل ذلك التزامٌ شديدٌ منه بمشروعه في بناء ما أمكنه في أمّته التي اشتغل لأجلها منذ خمسينيّات القرن الماضي الميلادية. والصحيح أن كليهما اجتمعا في عملية البناء، ولا يستطيع أن يُفسّر على ما لم يكن مجبولًا عليه لأكثر من خمسة عقودٍ متوالية.

---

(١) نص اللقاء الموجود لدي.

☐ حضوره حيث هي آماله وطموحاته

ثلاثون عامًا من عمره المبارك في قراءة المقررات الدراسية الحوزوية، وإعادة صياغتها منهجةً وأسلوبًا، خطتها التبسيط والإيجاز غير المخلّين بطبيعتها العلمية. وبقدر ما يعنيه هذا العمر المبارك من الالتزام بقضيته، بقدر ما يعني ذاك نَفَسَهُ الطويل في العمل لإنجاز ذلك المشروع الكبير المحور ما يُبرز خاصّية الثبات لديه، ويتعاطى مع التنوّع الزماني والمكاني الذي عاشَ ألوانًا مختلفة من التغيّرات والتحوّلات، دون أن يُحدث ذلك ارتجاجًا أو اهتزازًا في قناعاته أو التزاماته. وإن كان له من قراءة جديدة أو رؤية جديدة، إنما هي وفق أصول البناء والالتزام الفقهي والفكري لديه؛ ليكون أكثر إبداعًا ونموذجيًا في تقديم رؤيته مع تقدّم الزمن.

وهذا ما يبرز خصوصيةً أشار إليها الصديق العزيز الشيخ إبراهيم الرضي ـ حفظه الله ـ في حديثٍ شخصي عن التزام شيخنا الفضلي بالمرجعيّات الحركية طيلة تاريخه، وبتسليط الضوء من جهتي على رؤية سماحة الشيخ الرضي، رأيتُ الشيخ الفضلي يقتربُ كثيرًا كلّما كانت المرجعية الدينية تتحرّك أكثر وتتعايش مع واقع أمّتها أكثر فأكثر.

فتمثّل ذلك في دعمه لمرجعية آية الله السيد محسن الحكيم، والذي تبنته ودعمته كل جبهة الشهيد الصدر، ودافعت عنه وقدّمته إلى الأُمّة باعتباره المرجع الأعلى للطائفة؛ ليتحرّك الحكيم مع هذا البناء، وكانت أمنية الشهيد الصدر وجبهته أن تكون المرجعيّة التي تخلُف السيد الحكيم تحمل ذات الرؤية وذات الهم، وتتحرك باتجاهه، إلا أن رؤية

المرجعية الخَلَف، والمتمثلة في سماحة آية الله العظمى السيد أبي القاسم الخوئي لا تنحى ذلك المنحى، وإنما اشتغل بخصوصيته الحوزوية مرجعًا في الفتوى بالمعنى التقليدي، وأستاذًا في دروسه المعهودة ما استطاع، ولا يتوجّه إلى العمل السياسي إلا في ظروف خاصة جدًّا، ومحدودة جدًّا.

إلا أن حِراك المرجعية لم يتوقف عند آية الله السيد محسن الحكيم، وإنما كان هناك حراكٌ رافق مرجعية السيد الحكيم، وتابع خطاه بعد رحيله، بل كان أكثر حراكًا مما كانت تعيشه مرجعية السيد محسن الحكيم، وهي مرجعية الإمام الخميني، فيما مرجعية الشهيد الصدر كانت تتجه لتكون بديلًا جادًّا في النجف الأشرف. إلا أن الشيخ الفضلي، ومن خلال قراءته وفهمه لواقع النجف الأشرف وطبيعتها، وحساسيّات المسألة لم يكن يرى الأجواء مؤاتية لمرجعية أستاذه الشهيد الصدر، ناهيك عن المعاناة التي بلغت أوجها جرّاء من جعلوه خصمًا أو عدوًّا لهم، ولجهة انتمائهم.

وبالرغم من أنه لم يعلن موقفه حينها، إلا أنه كان يرى في الشهيد الصدر المرجعية الفقهية الأصيلة الملتزمة وفق الرؤية الحوزوية التقليدية في مفهوم الأعلمية ومرجعية التقليد، وكان يرى فيه المرجعية الحركية التي تمثّل طموحه وقراءته وتطلّعاته لحركة المرجعية القائدة في الأمة.

ذلك كان في أيام وجوده في أتون الحِراك العراقي من خلال حزب الدعوة، الذي كان أحد رجالاته، فيما نأى بنفسه عن هذه المسألة بعد استشهاد الشهيد الصدر، لينحو إلى التعاطي مع مسألة المرجعية حيث

قابلية الناس وواقعهم، وقدرتهم على التجاوب معها. ولذلك كان تعاطيه مع مرجعية السيد الخوئي، الذي كان من الناحية العملية مرجّحًا على مجموعة من الفقهاء المراجع المعاصرين المعروفين، فيما كان موقفه ملفتًا يوم أعلن بعد وفاة آية الله السيد الگلبيگاني تأييده لطرح النجف الأشرف والمتمثل في آية الله السيد السيستاني، ولطرح قم المقدسة والمتمثل في آية الله الشيخ الآراكي، وهو الموقف الذي آمن به، حيث القبول بتعدد مرجعيّات التقليد، والالتفاف حول قيادة فقهية ملتزمة متصدية، والتي كان شخصها آية الله الإمام الخامنئي، والذي رأى فيه بعد أن طُرح للتصدي للمرجعية من قبل جماعة المدرّسين، وثُلّة كبيرة من الفقهاء الكِبار، ليجد فيه النموذج الناجح والعملي الذي يُجسّد شخصيّة مرجع التقليد والقيادة.

لم يلتفت إلى حقيقة هذه الرؤية إلا قِلّة، كان من بينهم أستاذنا الفضلي، لتتجلى هذه الصورة بعد رحيل الإمام الخميني، وذلك لأن خلفيته لم يكن حينها أحد مراجع التقليد، كما أنه لم تُتح له إبراز هذه القراءة إلا متأخرًا، بعد أن أعلن بأنه لم يبقَ في العمر ما يُخشى عليه من أجله في محاضرة له تعتبر الموقف الرسمي والعلني الذي أفضى فيه برؤيته تجاه القيادة والمرجعية، والذي أرجعها إلى لقائه بالإمام الخميني عام ١٩٦٣م في قم المقدسة، بعد أن سأله عن اشتراط المرجعية في الولي الفقيه، فأجابه بأن رؤيته الفقهية لا توجب الولي الفقيه أن يكون مرجعًا أو أن يكون الأعلم.

وهذا كان بعد رحيل الإمام الشهيد الصدر، والذي كان ملتزمًا مشروعَه حتى في دعمه لمرجعية الإمام الخميني. وحثّ مريديه لالتزام

ذلك، من خلال رسالته إلى طلابه في إيران قائلًا لهم فيها: «ويجب أن يكون واضحًا أيضًا أن مرجعية السيد الخميني التي جسّدت آمال الإسلام في إيران اليوم لا بد من الالتفاف حولها، والإخلاص لها، وحماية مصالحها، والذوبان في وجودها العظيم بقدر ذوبانها في هدفها العظيم»[1].

وما اتضح من عبارة الشهيد الصدر الآنفة أنه يرى في المرجعية التي يمثلها المرجع من حيث حضوره وحضورها، والتي حسم الأمر فيها، بعد تردد في شأن المرجعية التي يتعاطى معها بهذا النَفَس المتحمِّس، بعد أن كان قد تبنّى مرجعية الإمام الخوئي بمعناها الحَرَكي، إلا أن سياسة العمل المرجعي عند الإمام الخوئي وطريقة مواجهتها للأزمات والاستهدافات تختلف ورؤية الشهيد الصدر، ما فرض على الشهيد الصدر أن يقدم رؤيته الفقهية والفكرية لعمل المرجع والمرجعية من خلال رسالته (المرجعية الرشيدة).

بعد وفاة الإمام الخميني ﷿، لم تكن مرجعية خَلَفِه الإمام الخامنئي قد تبلورت بالمفهوم الحوزوي الطبيعي للمرجعية، وإنما برز كولي فقيه، فإن العلامة الفضلي قام بدعمه من خلال رؤيته هذه، ولكن بعد أن تم طرح مرجعية الإمام الخامنئي كأحد مراجع التقليد، وقد احتضن قضايا الأمة برؤية رشيدة هي ذات تطلّع الشهيد الصدر ومنهجيته المتميزة والجريئة في معالجة قضايا الأمّة، والتي تتجاوز بذلك حدود القُطر الإسلامي الإيراني، فإنه تبنّاه إلى أبعد حد، ووفق الرؤية الحوزوية

(١) السيد محمد باقر الصدر.. السيرة والمسيرة، ٤/ ٢٧.

الطبيعية لولادة المرجعية، ووفق رأيه الفقهي لمرجع التقليد، وإن ظل ملتزمًا برؤيته في مسألة تعدد مراجع التقليد بالمفهوم التقليدي، ووجوب الالتزام بقيادة المرجعية الحَرَكيّة المتصدية للواقع الإسلامي بالمفهوم الصدري.

بدايات العمل الإسلامي وعلى وقع المد الشيوعي على كل العراق، والذي أضعف حضور وفاعلية المؤسسة الدينية، وعلى قدرتها في توجيه الأحداث والوقائع على الساحة العراقية، وذلك «بما يملكه من فكر أيديولوجي قائم على مبادئ ونظريّات وغايات، وله تجارب ناجحة في ثورات الشعوب، والأهم من ذلك أن حركته السياسية والفكرية متمثلة بالحزب الشيوعي تملك تنظيمًا عالميًّا عاليًا»[1]، كان هناك تحرّك نحو مشروعٍ إسلامي حركي يبحث عن صور منطقية ومعاصرة ومنسجمة والواقع المعاصر للدخول إلى ساحة العمل الإسلامي.

«وكانت البدايات التأسيسية للحركة النجفية السياسية قبل انقلاب ١٩٥٨م وقيام النظام الجمهوري ببضع سنين، يروي لنا الفضلي تلك الأيام فيذكر أن الساحة السياسية كان بها حزبان إسلاميّان سنيّان: حركة الإخوان المسلمين التي كانت سرّية في البداية، وانبثق منها بعد قيام النظام الجمهوري (الحزب الإسلامي)، والحزب الآخر (حزب التحرير)، وكلاهما كانت مرجعيته خارج العراق.

وفي وقتٍ متقارب قبل قيام النظام الجمهوري ببضع سنين، بدأ تحركان في الحياة السياسية الشيعية، الأول في النجف، والآخر ببغداد.

---

(١) الفقيه المثقف، ٣١.

ففي النجف كان المرجع السيد محسن الحكيم يحمل ـ كما أشرنا ـ مشروعه السياسي لقيام دولة إسلامية في العراق، وكان عدد من العلماء الشباب يومها يتفاعلون مع ما يجري على الساحة العراقية والعالمية، ويرون وجوب التحرّك السياسي ليكون للإسلام كلمته في الساحة، فكانت الانطلاقة الأولى في النجف عبر تأسيس جماعة العلماء التي يشرف عليها السيد الحكيم في عام ١٩٥٩م، وكانت الجماعة تصدر نشرة باسم «الأضواء» يكتب افتتاحيتها السيد الشهيد الصدر، وتضم هيئة تحريرها الفضلي والشيخ محمد مهدي شمس الدين، والسيد محمد حسين فضل الله، والشيخ كاظم الحلفي، والشيخ محمد رضا الجعفري، وتكتب الجماعة منشورًا أسبوعيًّا يكتبه السيد الصدر يرسل لجميع أنحاء العراق، ويقرأ في الإذاعة العراقية، وهذه الحركة كانت بداية العمل الجهادي للشيخ الفضلي وأساتذته وصحبه في الساحة الثقافية والسياسية العراقية، وقد شارك فيها الفضلي مشاركة فاعلة بالقلم والمنبر والميدان.

أما في بغداد، فكان الكثير من شباب الشيعة المثقف يرى ويقرأ عن الأحزاب الإسلامية وأطروحتها، فتحرك جماعة منهم وانضموا في البداية إلى حزب التحرير، وكان منهم: المهندس محمد هادي السبيتي، وأخوه المهندس محمد مهدي، والشيخ عارف البصري، والدكتور جابر العطا، والشيخ سهيل نجم، والسيد طالب الرفاعي، وكانوا يومها مثقفين مؤمنين طموحين يبحثون عن تغيير واقعهم ويحملون فكرًا شيعيًّا واعيًا للمرحلة ومدركًا لتحديات الواقع ومتأثرًا بما يقرأ ويسمع، ولم يكن حزب التحرير يومئذ يظهر تعصبه وطائفيته.

ولكنهم، وبعد أن أظهر الحزب تعصبه ضد الشيعة، استفتوا السيد الحكيم في حكم الانضمام إليه، فطلب السيد الحكيم ﷺ من الشيخ محمد أمين زين الدين أن يقرأ كتب الشيخ تقي الدين النبهاني مؤسس الحزب، وبعد أن اطلع السيد الحكيم بما حوته، أصدر فتواه بحرمة الانتماء لحزب التحرير.

في إثر ذلك، تحدث كل من المهندس محمد هادي السبيتي، والشيخ عارف البصري، والسيد طالب الرفاعي مع السيد مهدي الحكيم، وطرحوا عليه ضرورة وجود حزب إسلامي شيعي. وبعد التداول، فاتحوا السيد محمد باقر الصدر في ذلك، فأيد الفكرة ولكنه طلب موافقة السيد الحكيم والشيخ مرتضى آل ياسين.

وبدأ الصدر ـ بعد أخذ موافقة وتأييد المرجعية ـ بوضع وكتابة الأسس الإسلامية التي يرى أن الحزب والدولة الإسلامية يجب أن تقوم عليها. ثم دعا السيد مهدي الحكيم مجموعة من العلماء لحضور درس السيد الصدر للأسس الإسلامية، حيث بلغ عدد الذين حضروا الدرس (١٥) عالمًا، تم اختيارهم بعناية، منهم السيد مهدي الحكيم، الشيخ عبد الهادي الفضلي، السيد طالب الرفاعي، الشيخ مهدي السماوي، الحاج محمد صالح الأديب، الشيخ عارف البصري ... ولا يمكن اعتبار حلقة الدرس هذه الخلية الأولى في الحزب كما توهم ذلك بعض الباحثين، وإنما هي تأصيل للأساس الفكري الذي سيقوم عليه الحزب».

يقول العلامة الفضلي: «إن حلقة الدرس استمرت أكثر من سنة،

وبلغ عدد الأسس كاملة (٢٨)، والمنشور منها حاليًّا (١١) فقط، ولا يُعلم إن كان الباقي موجودًا عند أهل بيت السيد الصدر أو عند آخرين»[١].

ولما توجه كل عنصر من عناصر جبهة الشهيد الصدر للعمل التحديثي في مناهج ومقررات الدراسة الحوزوية، بالإضافة إلى النهوض بالفكر الحوزوي بمستوى تلك الطموحات والآمال، عمل كل واحدٍ منهم للتصدي لملف له دور في بناء وعي الأمة العلمي والثقافي والسياسي والاجتماعي الذي قد أصيب بالفوضى والعشوائية، وأُرهقَ من التقليدية الجامدة التي تصرفه عن أهدافه ليصوغه بمنهجية ذات رؤىً وأهداف واضحة ومحددة ومنسجمة، وقيم وأهداف وتطلعات القراءة الصدرية وغاياتها الشريفة، رغبة في تحريك واقعهم نحو قراءتهم المُثلى له.

وكان من أهم ما يشغل ذلك الفريق هو حاجة المؤسسة الدينية إلى مناهج علمية وفكرية وفقهية قائمة على أساسٍ تربوي ملتزم للدراسة، وأُخرى للفلسفة الإسلامية والسياسة الإسلامية والاقتصاد الإسلامي والمجتمع الإسلامي للنهوض بالأمة، ما دفع كل واحدٍ منهم إلى أن يتصدّى للقيام بما تتوجه إليه قابليته واستعداده.

وكانت الحوزة أحوج المواقع التي يتحرك فيها ذلك المشروع إلى جبهتين:

---

(١) المصدر السابق، ٣١-٣٤.

الأولى: إعادة القراءة للنصوص القرآنية والنبوية وروايات أهل البيت ﷺ، بل حتى فقهاء الطائفة للدولة الدينية ومقتضياتها.

الثانية: منهجة مقررات الدراسة الحوزوية؛ لتكون دراسته ذات بدايات واضحة، وأفقٍ واضح وتصورٍ واضح ورؤية واضحة، حيث التركيز على الرؤى التي تعمل على تغيير الواقع إلى منشودٍ واضحٍ ومعلوم.

فتبنى العلامة الدكتور الفضلي، كما ذكرنا سَلَفًا، الحضور بما يحكيه حجمه ووزنه في الساحة ليملأ كل شاغرٍ يمكنه أن يملأه. ولذلك فإنه عند توجهه لساحة العمل، برزت أمامه من خلال قراءة واقعه أربع قضايا مهمّة ومصيرية، وهي:

١. دوره في مشروع الدولة الإسلامية.
٢. مقررات الدراسة الحوزوية.
٣. افتقار الساحة إلى كُتّاب حقيقيين، وافتقار المكتبة الإسلامية إلى الكتب ذات القيمة العلمية والفكرية.
٤. نقل ثقافة الحوزة ورؤيتها إلى الشارع، ونقل خطاب الشارع إلى الحوزة.

وهذا ما سنتناوله بشيء من التفصيل في العناوين اللاحقة، إن شاء الله.

☐ دوره التأسيسي في الحركة الإسلامية في العراق

في سياق فهمه للإسلام، والذي تولّد لديه من خلال حِراكه على المستويين العلمي والسياسي مع الأساتذة الذين استلهم منهم فنّ

الكتابة وصياغة الرؤية في قالبها اللغوي، والأستاذ الذي عاش معه واستلهم منه الإسلام الذي يعني صياغة الحياة بكل مواقعها ووقائعها وفق منظورٍ ديني مستلهم من مدرسة أهل البيت ﷺ.

منذ البدء، كان الشهيد الصدر يتحرّك باتجاه صياغة رؤية متكاملة للإسلام في إدارة الحياة السياسية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية، كونه القراءة الحقيقية للواقع، والعلاج الأنجع لإشكالاته، والبديل لأي عجزٍ أو ضعفٍ أو إفراطٍ في أي معالجة أو رؤية اجتماعية أو فشلها.

في لقاءٍ لي معه، يقول العلامة الفضلي: «إن الإسلام لكل الحياة، ولا يستثني شيئًا منها، فلا يمكن أن يُعالج إشكالية لأنها مسألة دينية، ويترك أخرى لأنها مسألة اجتماعية لا علاقة لها بالفتوى. وهذا الرأي اشتغل عليه الشهيد مرتضى مطهري، وتعرّض له في كتابه الاقتصاد الإسلامي في قوله: «وقد ذهب بعضهم إلى أكثر من ذلك، فقالوا: إن الحياة – بكل ما فيها – شيء والدين شيء آخر، ولا ينبغي إدخال الدين في قضايا الإسلام.

خطأ هؤلاء الأول هو تصوّرهم لقضايا الحياة مجردة مجزأة. كلا، إن الحياة وحدة متكاملة من اجتماع كل شؤونها، بعضها إلى البعض الآخر، وصلاح أو فساد كل شأن منها يؤثر على سائر شوؤنها، فلا يمكن أن تكون ثقافة مجتمع أو سياسته أو قضاؤه أو أخلاقه أو اقتصاده أو تربيته فاسدة، ويكون دينه سالمًا، وبالعكس»[1].

(١) الاقتصاد الإسلامي، الشهيد مطهري، ١٥.

وهذا ما يجعله يتحرك في اتجاه تفعيل هذه الرؤية، من خلال القنوات المتاحة، وفي المساحة التي تقبل بذلك، ذات الفاعلية السياسية الملتزمة بقيم وأخلاقيات الحوزة من منظور صدري؛ ليكون ذلك من خلال حزب الدعوة.

حيث تأسس حزب الدعوة على أساس تلك القيم وتلك الأخلاقيات وتلك الأهداف، وبتلك القضايا والاهتمامات، فكان صف القيادات الأول ما تمخض عنه اجتماع كربلاء، ثم بعد ذلك قيام بعض القيادات بالدعوة لبعض من يحمل أهليّة الانضمام إلى هذا الحزب الإسلامي الفتي.

ولم يكن ما بين تأسيس حزب الدعوة ودخول الجيل الثاني مدة تقضي بتفاوت كبير بين الأعضاء المؤسسين والأعضاء الجدد، مضافًا إلى خبرات الأعضاء الجدد، أو علاقاتهم بالشهيد الصدر كالشيخ الفضلي جعلهم في موقع مؤثر جدًّا على مستوى الصياغة والصناعة الحزبية، خاصة وأن الشيخ الفضلي كان من حُضّار دروس البناء لأسس الحزب، أي في بداياته الأولى، وليس متأخرًا عن ذلك.

وكما ذكرنا سلفًا، إن شيخنا الفضلي التزم منذ البدء بأستاذه الشهيد الصدر، وتبنّى رؤيته، إلا أن ذلك من خلال وعيه، وفهمه لطبيعة المشروع الذي التزمه أستاذه، ما دفعه إلى أن يكون حاضرًا فيه بقوة، بل علامة جليّة ومؤثرة فيه.

وعلاقة أستاذنا الفضلي بأستاذه الشهيد الصدر كما يروي سماحته

استمرّت عقدين من الزمن[1]، لتكون بداياتها بعد قدومه للنجف بثلاث سنين تقريبًا، أي عام ١٣٧١هـ، فيما فارق العمر بينهما سنة واحدة، أي كان الشهيد الصدر في الثامنة عشرة وشيخنا الفضلي في السابعة عشرة.

علاقة مبكّرة جدًّا، وحيث كان الشهيد الصدر العقلية الفذّة والعبقريّة المتألقة، فيما كانت بدايات الشيخ الفضلي حينها مع الدراسات الحوزوية العليا، فقد كان ارتباطه بالشهيد الصدر ارتباطًا مناقبيًّا، بين أستاذٍ ملهم وتلميذ طموح، ما جعله يحرّك كوامن الفاعلية والإبداع عنده، فينطلق بقابليّاته ونضجه وروح الإبداع لديه مع الشهيد الصدر، حيث مثّل في حراكه كل معنى الإبداع والتألّق التي لا تزال تسير أمامه راشدة وراعية وقائدة.

لا أستطيع أن أؤرخ أول حركة سياسيّة بالمعنى الحرفي في النجف الأشرف بالمعنى الثقافي، نظرًا إلى أن النجف كانت حاضرةً منذ أحداث فتوى التنباك عام ١٣٠٦هـ في خضمّ العراك السياسي، إلا أنه يمكننا تأريخ أول حِراك تنظيمي سياسي نجفي، وذلك من خلال تنظيم عز الدين الجزائري تحت عنوان «تنظيم الشباب المسلم» عام ١٩٤٠م، وهذا يعني أنه سبق تأسيس حزب الدعوة بأكثر من سبعة عشر عامًا.

وكان النشاط السياسي يتحرّك بأشكالٍ شتّى؛ ليتوّج أخيرًا بتأسيس حزب الدعوة الإسلامية، والذي تزعّم تأسيس قواعده الفكرية والسياسية والتنظيمية آية الله الشهيد الصدر ﭬ.

(١) منعطف القرار، علي آل مهنا، ٢٢٠.

إلا أنه، ونظرًا إلى أن الأحزاب الإسلامية المعاصرة لم تكن تملك فكرًا تنظيميًّا، وذلك بعد عملية المسح التي طالب بها الشهيد الصدر للحركات السياسية الإسلامية والعلمانية المعاصرة[1]، فإنه توجه إلى تلك الخطوة ليكون تنظيمًا إسلاميًّا يتحرّك وفق قواعد حزبية عملية ورؤى سياسية ثابتة وواضحة.

وهذا يعني أن الشهيد الصدر وإن تحرّك في تأسيس قواعد حزب الدعوة التنظيمية، إلا أنه كان بحاجةٍ إلى حراك ثقافي متنوّع وفاعل بأقصى درجة على مستوى القادة المؤسسين، الذين عاشوا ويعيشون كل أدبيات الحزب الفكرية والسياسية والاجتماعية، وفي مساحةٍ أكبر نظرًا إلى أهدافه الكبرى.

ولذلك كان الشيخ الفضلي من الكتّاب المبدعين في مدرسة الشهيد الصدر؛ لتكون بعض كتاباته على شكل مقالات في مجلة «الأضواء» التي كانت تصدرها جماعة العلماء، وكان هو أحد أعضائها التحريريين، وبعضها كانت كتبًا، وهي كلها في سبيل صناعة وإشاعة رؤية إسلامية سياسية تأسيسية، والتي من بينها:

١. من البعثة إلى الدولة (مقالة).
٢. نحو كتابة دستور إسلامي (مقالة).
٣. مشكلة الفقر (كتاب).
٤. في انتظار الإمام (كتاب).
٥. حضارتنا في ميدان الصراع (كتاب).

(١) منعطف القرار، علي آل مهنا، ٢٠٣.

٦. الدولة الإسلامية (كتاب).
٧. جدل الرؤى (مقالات في الفكر السياسي الإسلامي).

وكان هذا النوع من الكتابة جُرأةً وإقدامًا يعتبر في حد ذاته مجازفة بالمشروع السياسي الذي يعمل من أجله، وقد تتجاوز التداعيات حدود التخلّي عن المشروع إلى التخلي عن الانتماء للحوزة، كما كان ذلك من بعض المنتمين لها.

التزامه ذاك، يحكي عُمق إيمانه بقضيّته، ووعيه العميق بها؛ ليظهر ذلك في أجلى صورة من خلال زيارته للإمام الخميني، وهو حينها في السابعة والعشرين من عمره المبارك ليقدّم للإمام تصوراته للعمل الإسلامي، فكان موفقًا بدرجة فائقة، كونه يتكلّم بحِرَفيّة بخطاب إسلامي ملتزم في السياسة والعمل الحزبي، وفي وقت مبكر جدًّا بالنسبة للعمل الإسلامي الشيعي، ناهيك عن الهموم التي برزت في حديثه مع الإمام الخميني، وهو الهم المشترك. فهو لا يشغله الهم فقط، وإنما يعيش ذهنية منفتحة على الوسائل المنطقية لترجمة تلك التطلّعات، ولذلك أُعجب الإمام الخميني به وبأطروحاته، «ثم سأله الشيخ الفضلي [أي سأل الإمام الخميني] عن حركته [أي عن حركة الإمام] مشيرًا إلى أنها تعتمد نوعًا جديدًا من الثورات ليس له مثيل سابق، يقوم على طريقة المرجعيّة في مقابل طريقة الحزبية. فالثورات السابقة حيث الشعبية منها بدأت بحركات وأحزاب سرّيّة، فأُعجب الإمام الخميني بتحليله، وأضاف أنها حركة جماهيرية علنيّة، وليست سرّيّة تهدف إلى التغيير دون

استخدام السلاح»[1].

إنَّ ممارسة النشاط السياسي بتلك الحرفية وفي ذلك العمر، وفي ظل الطاغوتية البعثية البغيضة، وبموقعه الحركي في حزب الدعوة، وأن يكون مبعوث الشهيد الصدر إلى الإمام الخميني أكبر شخصية دينية حركية في العالم الإسلامي، وأن يثير إعجابه، يعطي انطباعًا مثيرًا إلى نضج مبكر في قراءاته السياسية، ووعي لحراكه السياسي والثقافي والاجتماعي في ظل أجواء الحوزة العلمية في النجف الأشرف، ذات التقاليد غير المواكبة للمستجدات على الساحة السياسية في العِراق والعالم الإسلامي.

بثقله ذاك، وأدائه الكبير جعله مطلوبًا لدى البعثيين، ما فرض عليه أن يقرأ استراتيجية الحِراك الجديد، وهو بتلك الذخيرة التي هي بحجم الفاعلية الإصلاحية في النجف الأشرف، ذات التاريخ العلمي العريق؛ ليكون عمل ذلك المبدع والخلاق خارج الموطن الذي تخلّقت فيه ونَمَت لديه قابليّات الصناعة الإبداعية والخلاقة، ومع ذلك استطاع أن يتغلّب على صعوبات الواقع الجديد، من خلال تصوّرات جديدة وأساليب خلاقة للعمل، تمكّن من خلالها أن تكون أياديه ناصعة، ولا يمكن لقارئ لِحراك المنطقة الثقافي أن يتجاوز حضوره وفاعليّته فيها.

☐ منهج الدراسة الحوزوية

حضوره في قراءة المناهج الدراسيّة كان ضمن فاعليته في العمل

---

(١) الفقيه المثقف، ٣٧-٣٨.

الإسلامي الإصلاحي في العراق، وذلك لمعالجة الواقع غير الإيجابي، والمؤثر سلبًا على ذهنيّة الحوزوي الذي يفترض فيه ألا يترك الساحة لخصومه اللادينيين من الشيوعيين والبعثيين يعبثون فيها وبها كما يشاؤون، إما بالفكر السياسي والاقتصادي والاجتماعي، أو من خلال تشجيع التقليديين للإصرار على الدراسة بأسلوب ومناهج الكتاتيب وثقافتهم التي لا تتجاوز المكان الذي تدرس فيه، ولا تضيف وعيًا ولا بصيرة بما يجري في الساحة من مستجدات، ومن جانبٍ آخر لا تجد فيها فرقًا واضحًا في المراحل الدراسية، وما تضفيه كل مرحلة إلى عقل الطالب وما يُرجى منها.

من جانب آخر، كان انفلات المدارس الرسمية وميلها إلى أدبيّات وإيمان مخالف لإيمان وأدبيات الشعب العراقي، تأثرًا بالغرب والثورة الفرنسية والهجمة الشيوعية التي استهدفت الإسلام والمسلمين، أدى إلى أن يقوم بعض مراجع الدين بالإفتاء بحرمة الدراسة في تلك المدارس، فيما اتجه المصلحون لتأسيس مدارس ملتزمة بالإسلام وبمناهج البحث الحديثة، للاستفادة من المنهجية العلمية الأكاديمية في طريقة الدرس ومنهج التربوي.

المعارضون لم يكونوا ملتفتين إلى خطورة المسألة، وإنما كان جل همّهم هو الانشغال والالتزام الحرفي بطريقة البحث والدراسة الموروثة في النجف، ومادة الدرس القديمة، وعدم جواز الاهتمام أو الانشغال بغيرها، فيما الحرب الشعواء والشرسة ضد من يخالف هذا الاتجاه.

هذه الحالة لم تكن صحّيّة، بالرغم من أن طبيعة الدراسة في الحوزة

يُراعى فيها إلى درجة ما المستويات العمرية للدارس، إلا أنه لم يكن يراعي فيها مدى حاجة كل مرحلة، نتيجة لفوضى الكتب الدراسية ومدى الحاجة إليها ومدى مناسبتها له في هذه المرحلة، والوقت الزمني الذي تحتاجه، بل حتى فوضى المراحل، حيث يُترك ذلك للأستاذ، الذي سُلّم له دون أن يسأله أحدٌ عن جدوى ما يقدّمه أو عدمه، أو مدى التزامه بتدريسه بوقت محدد أم لا، أو قد تكون منهجًا فائضًا على تلك المرحلة، مما تجعل الطالب يشعر بطول المدّة وثقلها عليه، وقد يُصاب بالملل.

وبالرغم من عدم كونه قدرًا محتومًا على الطالب أن يعيشه، إذ يمكنه أن يتحرر منه، ليكون له حق البحث عن أستاذ آخر، إلا أن إدراك الطالب لذلك قد يكون متأخرًا، وقد يكون الأستاذ الجديد هو من نفس فصيلة الأستاذ السابق، فيما تأخذ مرحلة البحث عمرًا لا يمكن الاستخفاف به. أما متى ينسجم مع أجواء الأستاذ الجديد، فهي لا تقل عن مرحلة البحث.

بعض من الطلبة يعمل على اختصار المدة الزمنية من خلال تكثيف دروسه حتى في إجازاته الأسبوعية والسنوية، بل والاعتماد الذاتي على قراءاته المكثفة والمتواصلة والواعية، والانتقال إلى أكثر من أستاذٍ علّه يجد من بينهم من يشعر بهمّته واستعداده، فيوصله إلى مرحلة متقدمة تناسبه، ومن يفعل ذلك هم المتميزون الذين يملكون طاقة وقابليّة وتوجهًا حماسيًّا للدراسة الحوزوية، فيما الطلاب غير المتميزين يظلّون سنوات طويلة تحت نير تلك المناهج المتعبة، ومنهم من يتوقف ويتوجّه إلى اتجاهٍ آخر، قد يكون في بعض الاتجاهات خصمًا للحوزة ذاتها.

لو جئنا إلى المدارس النظامية والجامعات وطريقة دراستها، فإننا نراها منتظمة وواضحة، وعندما يدخل الطالب إليها فإنه ينظر إلى سنوات محددة لينال البكالوريوس، وإلى سنوات أخرى للماجستير والدكتوراه والأستاذية.

في الحوزة قد ينظر الطالب في بداية دراسته إلى زمن محدد إلا أنه قد يتفاجأ بكثافة المناهج المكررة في التخصص الواحد، والأشد من ذلك تراخي الأساتذة في الالتزام بالتدريس، أو تبدّلهم بين الفينة والأُخرى، ليعود كل جديد من جديد في المادة، ما يرهق الطالب ويذهب بحماسه، لنرى النسبة العالية من طلاب السطوح المتقدمين في السن أو أنهم درسوا سنوات طويلة بحث الخارج، إلا أنهم لم يتمكنوا من بلوغ مرتبة الاجتهاد في المسائل الشرعية، مما يُشعر أنهم تعبوا من الدراسة وتركوها لطول أمدها دون بلوغهم المرتبة العلمية التي كانوا ينشدونها.

نعم، في كل مؤسسة علمية تجد الكثيرين من الذين انتموا إليها قد تركوها، إلا أنك عندما ترى طلابًا متميزين أو آخرين يملكون القابلية للتميز، وقادرين على الوصول إلى مراتب عالية في العلم ولو بالاعتماد على وسائل أخرى غير العبقرية التي قد لا يحظى بها بعضهم قد تركوا الدراسة الحوزوية قبل أن يصلوا إلى المراتب العالية في الدرس فإن هذا ينم عن وجود ثغرات لم تُعالج لتحافظ على حالة التميّز لدى أولئك المتميزين، ما أثقل على أولئك المتميزين التعاطي التقليدي من قبل التقليديين وخصوم العمل الإصلاحي في الحوزة العلمية مع الوقائع والأحداث، ما جعلهم كثيرًا ما يثيرون الإرباك في الحياة العامة، بدل أن يكون دورهم الفعال في نظمها وفق الخطاب الديني، ورؤيته التي

أبرزها الإمام الخميني والشهيد الصدر، وفي أحيانٍ كثيرةٍ تجدهم في حالة مواجهة عنيفة وقاسية مع الشريحة المثقفة المتدينة، وليست المتهتكة.

هذه المسألة أخذت من الشيخ الفضلي كثيرًا، خاصة وأن المناهج الدراسية من المقدمة إلى مرحلة القدرة على الاستنباط تستهلك عمرًا طويلًا لا يقل مجموعه عن ثلاثين عامًا متواصلة دراسة في المتوسط، في أكثر الحالات، وذلك لو أن الطالب انتظم في الحوزة في سن الخامسة عشرة، أو السابعة عشرة من عمره فإنه سيشارف على الخمسين ليكون قادرًا على الاستنباط، وهذا العمر طويلٌ جدًّا قد ينهكه بالملل، ويعزف به إلى غير تلك الوجهة، فيما يبرز المتميزون ما بين الخامسة والعشرين والأربعين، أما النوابغ، وهم لا يتجاوزون أصابع اليد الواحدة الذين يبلغون درجة الاجتهاد دون الخامسة والعشرين.

أما لو تم دراسة المراحل، والزمن الذي تحتاجه كل مرحلة، والمناهج التي تحتاجها، والأساتذة المتخصصين لتدريس تلك المناهج، والحصص المطلوبة لاستيعاب الدرس والمنهج والمرحلة، فإنه قد يصل على منشوده في سنوات، تصل إلى النصف، ما يعني بلوغه مرتبة الاجتهاد وهو دون الثلاثين ليتحرك نحو فقاهة متعمقة ومتميزة في حدود الأربعين من عمره.

ولذلك كان رسم المناهج قد أخذ من الدكتور أكثر من ثلاثين عامًا، بدءًا من مختصر النحو، وانتهاءً بموسوعتي الفقه والأصول، حيث كتب «دروس في فقه الإمامية» في أربعة أجزاء، و«مبادئ علم الفقه» في ثلاثة أجزاء، وفي الأصول «دروس في أصول فقه الإمامية» في جزأين.

لم يتوقف عمله ولم تصرفه كثرة الأحداث التي رافقت وواكبت مشروعه، بل كانت جزءًا من حياته وجهاده، ولم يشغل ذلك الاهتمام عن أن يكون متابعًا ومراقبًا لتلك الأحداث وصاحب رأي فيها؛ لنجد له لمساته ورؤيته فيها.

وفي هذا يقول الأستاذ خالد توفيق (جواْد كسار): «لم يزعم الفضلي ولم يدّعِ أبدًا في كتبه التي أصدرها في هذا المضمار أنه بصدد مشروع تجديدي جامع ومانع، بل قراءة آثاره في هذا السياق وتأمّلها هما اللذان جعلانا نضعها في مصافٍّ مشروع فردي شامل ينطلق من رؤيته، ويقوم على خطة، وبالتالي يتجاوز حدود المبادرات الجزئية»[1].

ويقول أيضًا: «وبالنسبة لقضية الحوزة بشكل عام، فالفضلي يؤمن بـ «تطوير الحوزات وفق متطلبات حياة المسلمين المعاصرة»، وفيما يتعلق بتطوير الدرس الحوزوي الذي نحن بصدده، يذهب الفضلي إلى فتح الملف على مصراعيه، بحيث يشمل التجديد مقررات الدراسة الحوزوية من حيث الكم والكيف، وبواعث هذا العمل ترتبط من ناحية بالتطور الكبير الذي يشهده العالم اليوم، وبتغيير وتكثر متطلبات الحياة المعاصرة، كما يتمثل من جهة ثانية بالتطوّر العلمي للمواد الدراسية المقررة في الحوزات»[2].

إلا أن المعلوم أن أوّل مناهج الدراسة التي أعدها كان «التربية الدينية»، وكان وضعه بقصد إعداد منهج مدروس ومتميز، بل كان

(١) الفقيه المثقف، ١٤.

(٢) المصدر السابق، ٨٦.

مشروع كلية الفقه هو هذا، ولذلك ليس بالضرورة أن تكون هناك مقدمة تتحدث عن مشروع بذلك الحجم، وإنما يمكننا قراءة ذلك من خلال المؤسسة العلمية التي يعمل فيها، وماهيّة مشروعها لنعلم إن كانت الكتيّبات الأولى داخلة في مشروعه أم لا.

إلا أن الأستاذ كسّار أشار على نقطة مهمة، وكانت مطلبًا رئيسًا للشيخ الفضلي، وهي أن عمل المنهج الواحد قائم على خطة ومنهجية ملتزمة. فعندما تقرأ المنهج تجده منهجًا يرعى الوصول بالطالب إلى مرحلة علمية بعينها، فيما اعتمدت أيضًا وضوح العبارة وابتعادها عن الطلسمة والتعقيد لتكون عبارة سهلة جدًّا وقادرة على إيصال مطالبه ببساطه.

في كتابه «دروس في أصول الفقه الإمامي» استخلص الأستاذ علي المحمد علي مجموعة من الملاحظات التي يراها سماحته، وقد قالها لي أيضًا شفاهًا:

١. **الابتعاد عن المنهج الفلسفي**، كما أشار في مقدمة كتابه «دروس في أصول الفقه الإمامي»، ومحاولة الرجوع إلى الأساليب الاجتماعية، وهو ما يقتضي تحليل النص تحليلًا لغويًّا اجتماعيًّا لا تحليلًا فلسفيًّا عقلانيًّا[1].

(١) وفي هذا الإطار قال لي في إحدى زياراتي له: «مشكلتنا أننا لا زلنا نقرأ وندرس الفلسفة القديمة، فيما لا أحد يتعاطاها اليوم، وقد دخلَتْ في البحث الأصولي، هي وعلم الكلام، فيما أصل المباحث في الأصول هو مبحث ألفاظ. كيف تُفهم المفردة، وكيف تُستعمل. ولذلك يجب أن تقرأ الفلسفة بأداء يتناسب والنسق الذي يتم تعاطيه اليوم مع مادة الفلسفة».

٢. الابتعاد عن المباحث التي ليست لها علاقة بعملية الاستنباط، مثل: مبحث التجري الذي يُذكر في مبحث القطع، فقد ذكر لي شفهيًّا أن هذا البحث ليست له مدخلية مباشرة في عملية الاستنباط.
٣. الاعتماد على أوثق المصادر اللغوية، خصوصًا المعاجم الحديثة، وقد سمعتُ ذلك منه شفهيًّا في سياق الحديث عن حجّيّة قول اللغوي.
٤. بالأخذ بنظرية أن اللغة ظاهرة اجتماعية، وقد أشار إليها في بعض كتبه اللغوية.
٥. الدمج في الأصول العملية بين أصلي البراءة والاحتياط.
٦. الفقيه الذوقي أقرب إلى فهم النصوص من الفقيه الصناعي، فالفقيه الأديب أدرى بشعاب مكة؛ لأنه من أهلها[1].

كان أستاذه الشهيد الصدر عمد في كتابة الحلقات بطريقة التدرّج إلى أن تصل إلى مستوى الكفاية، إلا أن الفضلي لا يريد العودة إلى الكفاية باعتبار أن لها رسالة وقد أدّتها، والمطلوب الآن أن تخرج مناهج اليوم من تعقيدات مناهج الأمس وطلسمتها، فيما يريد الشهيد الصدر أن يظل خطاب الروّاد والمؤسسين حاضرًا في ذهنية الدارس.

وقد اشتغل على كل مناهج الحوزة بمراحلها المختلفة، ليأخذ ذلك من عمره المبارك أكثر من أربعين سنة، وقد كان شغله في مشروعه ذلك مادة الدرس الحوزوي والمفردة التي تصاغُ به، والطالب الذي سيدرسها.

وفي ذلك يقول: «يجب أن نسرع الخطى في هذا التجديد لنسد كل الفراغات، ونلبّي كل المتطلبات، فنحن وتجديدنا في سباق مع الزمن

(١) الفقيه المثقف، ٢٣٠-٢٣١.

والسابق هو الفائز»[1].

وهذا بالنسبة له يعتمد على أربعة أسس:

١. إعداد المادة وفق منهج عصري، ينسجم في بيانه وطريقة العرض والتحليل والاستدلال مع واقع الطبيعة المعاصرة في الفهم والإدراك والانفعال والتفاعل الإيجابيين التي نعيشها اليوم.
٢. معالجة تعقيدات الجملة الحوزوية المتداولة، وعسيرة على الفهم أحيانًا، وذلك من خلال تبسيطها ما أمكن، أو استعاضتها بما هو أنسب منها إن تعذر تطويعها.
٣. مراعاة العمق والشمولية واستيعاب المسألة.
٤. مراعاة ما هو متوخى من المادة في شوط الطالب الدراسي.

ويجمل هذه الأسس في الآتي:

«لنكون ونحن في أصالتنا في الوقت نفسه مع المعاصرة، وهذا يتطلب منا وعلى نحو الاختصار:

١. أن نستفيد من النظريات والدراسات اللغوية الحديثة، وخصوصًا فيما يرتبط منها بفهم النص.
٢. أن نستفيد للتطوير في مجال علوم البلاغة من جديد علم الأسلوب، لاسيما في فهم الجمل والتراكيب.
٣. أن ننأى عن المنهج الفلسفي في دراسة علم أصول الفقه وأن نضع له منهجًا علميًّا خاصًّا.

[1] المصدر السابق، ٨٦.

٤. أن ننظر إلى الفقه في تعاطينا وتعاملنا معه على أنه نظام حياة الإنسان المسلم، ننطلق فيه من محاولة فهم حياة الناس بكل شؤونها تفصيلاتها فردية واجتماعية، ومسايرتنا لمختلف تطورات حياة الإنسان في جميع أنماط سلوكه الفكرية والعملية»[1].

ولذلك فإنه بالرغم من ذلك العمر الذي قضاه في عمل المناهج، إلا أنه يرى نفسه في سباق مع الزمن للوصل للأهداف والغايات التي ترسمها تلك المناهج.

ذلك أن تخرج أساتذة نجفيين من خلال مشروع التحديث والتطوير والمنهجة التي يراها أستاذنا الفضلي، بما يتناسب واسم النجف وتاريخها ـ وبخاصّة أنه قد جرت العادة الدراسية على تلك المناهج الثقيلة المتخمة بالخطاب الفلسفي المعقّد، سيكون في غاية الصعوبة والمعاناة؛ وذلك لأن قراءتها من جديد وإنتاج مناهج تخصصية، تقوم على فرز المادة، والتخلص من العناوين غير الضرورية أو المحشورة فيها قهرًا، وإشباعها بما تحتاجه من تركيز، ودراسة جدواها الدراسية، وقراءة مرحلتها، وموقعها الدراسي، وما تحتاجه من عمر زمني للدراسة، بحاجة إلى قابلية واستعداد ذي خصوصية نجفية للعبقرية والإبداع، عندها لن يكون ذلك بعيدًا أو مستهجن، إلا أنه أيضًا يستحق كل ذلك العمر الطويل عندما تكون مبادرة فردية.

نعم، سيكون ذلك العمر غير عملي وغير منطقي عندما يكون من خلال مجمع علمي تخصصي يعمل من أجل ذلك.

(١) الفقيه المثقف، ٢٠٤-٢٠٥.

صحيح أن ملاحظة الأستاذ جواد كسّار لمستْ واقعًا لوحظ على بعض إنجازات الشيخ الفضلي الأولى، عندما قال: «لا نملك إلا أن نحوم حول نتف متناثرةٍ صدرت من المؤلف في هذا المجال أو ذاك، نجمع بينها لبناء رؤية، نرجو أن تكون وافية»، وذلك أن شيخنا الجليل الفضلي كان في بداياته يعمل على إعداد مناهج أولية للدراسة الحوزوية تعتمد العلمية، وتعويد الطالب لاستساغة منهج جديد في الأسلوب والقراءة، لتحرضه تلك البدايات على مواصلة المشوار ليتكامل فيما بعد مشروعًا ناضجًا شغله منذ بداياته، يتعاطى معه بعنوان (المشروع)، وذلك ما أفضت إليه نتيجة مسحه أثناء دراساته الحوزوية، ومشروع إعداد المقررات الدراسية لمدارس منتدى النشر وكلية الفقه، ولوجوده أستاذًا فيهما جعله لا ينظر إلى البدايات كـ «التربية الدينية» و«خلاصة المنطق» و«مبادئ علم الفقه»، وإنما ينطلق إلى كل المقررات الحوزوية التي يدرسها الحوزوي إلى آخر مراحل دراسة مقررات «السطوح»، ويعمل على تقديمها بمهنيّة علمية متقنة تحافظ على عمق البحث الحوزوي، ووضوح المفردة والمراحلية في تنوّعها؛ ليكون بعد إنجازه ذاك في حالةٍ من الرضى، كما قال مجيبًا على سؤالٍ ضمن لقاءٍ تناول سيرته، وهو منشور في موقعه: «ما هي أهم مشاريعكم التي كنتم تودون إنجازها؟ وما الذي تحقق منها؟

مشروعي الأهم كان وضع المقررات الدراسية للحوزات العلمية وتطوير موادّها وفق مناهج البحث العلمي الحديث، وأحمد الله سبحانه

الذي وفّقني في إنجاز هذا المشروع»[1].

وهذا المشروع هو السبب الذي فرض عليه أن يلجأ للتقاعد، ويتوقف عن ممارسة التدريس الجامعي الرسمي، كما جاء ذلك على لسانه في معرض إجابته عن سؤال بهذا الشأن: «كان السبب الأول للتقاعد هو التفرّغ لإكمال مشروع المقررات الدراسيّة»[2].

وبإطلالة أخرى على أعماله بشأن المقررات الدراسية، يمكن أن نصنّفها وفق المراحل الدراسية في الحوزة على الشكل التالي:

١. المقدمات، والتي يمكننا تسميتها بالابتدائية، والتي تبدأ بالصف الرابع ابتدائي لنظام الدراسة الأكاديمية المعاصرة: مبادئ علم الفقه، مبادئ علم الأصول، مختصر النحو، مختصر الصرف.

٢. والمرحلة المتوسطة: دراسات في الإعراب، تهذيب البلاغة، خلاصة المنطق، الوسيط في قواعد فهم النصوص الشرعية، التقليد، الاجتهاد.

٣. وللمرحلة الثانوية: أصول البحث، حقل اللغة العربية وعلومها وآدابها (النحو والصرف)، شرح ألفية ابن مالك (الذي هو الآن مخطوط)، أعراف النحو في الشعر العربي، أصول البحث، مذكرة المنطق، خلاصة علم الكلام، تاريخ التشريع الإسلامي، أصول الحديث، أصول علم الرجال، أصول تحقيق التراث، من مصادر الفكر الإمامي في العقيدة والتشريع. وكذلك يمكن الاستفادة من

(١) http:/www.alfadhli.org/article.php?act=read_art&id=393

(٢) (http:/www.alfadhli.org/article.php?act=read_art&id=393)

أهم دروس (أصول فقه الإمامية، ودروس فقه الإمامية)، تمهيدًا للدراسة المعمّقة.

٤. المرحلة الجامعية: وهي الدراسات التخصصية: دروس في أصول فقه الإمامية، ودروس في فقه الإمامية.

وبالإمكان إضافة مادة أو مادتين، أو حتى ثلاث مواد أخرى، يتم اختيارها بعناية تنسجم والمرحلة المعنية، وليس بالضروري أن يكون من إنجاز الدكتور الفضلي، في أي حقلٍ من الحقول، وأي مرحلة من المراحل، ليتوجه بعد ذلك لدرس الخارج، والذي هو بمثابة إعداد رسالة (دكتوراه)، يُفترض أن يكون الفقيه المتوجه لإلقاء تلك الدروس آخذًا في عين الاعتبار هذا المستوى، والمأمول المرجو من تلميذه؛ ليتخرّج برسالة ستكون بلا شك ذات ثمرة في الدراسات الفقهية والأصولية المعمّقة، ذات الإنجاز الأكثر إثمارًا في الحوزة.

وما لا يمكن الغفلة عنه أن وجود أكثر من ألف رسالة بحكم وجود أكثر من ألف طالب علم سيتعذر على الفقيه دراستها، إلا أن معالجة هذه الإشكالية يمكن أن تكون من خلال وجود لجانٍ مختصة لقراءة تلك الدراسات، وتقييمها، وإعطاء الإجازة على ضوئها.

ناهيك عن الدروس التمهيدية أو التثقيفية الأخرى التي تتحرك في كل مشروعه والتزاماته الفكرية والفقهية والعقائدية، ككتاب «مذهب الإمامية»، و«نحو أدب إسلامي»، و«ثورة الحسين عليه السلام في ظلال نصوصها ووثائقها»، و«حضارتنا في ميدان الصراع»، و«جدل الرؤى: مقالات في الفكر السياسي، الكيان السياسي الإسلامي من خلال

نصوصه المالية العامة».

ومن أجل إنجاح ذلك المشروع الإصلاحي في مناهج الدراسة، يُفترض أن يكون هناك تعديلًا جادًّا يدخل على ضوئها الطالب الحوزة منذ سن الخامسة أو السادسة من عمره، مع الأخذ بعين الاعتبار اللغات الفاعلة في أداء الطالب البحثي والتبليغي، كالإنجليزية والفارسية إن كان الدارسُ عربيًّا، والعربية والإنجليزية إن كان فارسيًّا، والعربية والفارسية إن كان غير عربي، ثم يُتاح له اختيار اللغة التي يطمحُ أن يُبلّغ بها.

وما لا ينبغي الغفلة عنه هو أن دراسة اللغتين العربية والفارسية مصيرية في دراسة الطالب في الحوزة؛ وذلك لأن التراث الإسلامي قرآنًا وأحاديث وسننَ وموسوعاتٍ فقهية وأصولية وفلسفية وكلامية تقوم على هاتين اللغتين.

وأرى أن ذلك ليس فقط لا يتعارض وأطروحات الشيخ الفضلي المنهجية، وإنما ينسجم معه مادةً وروحًا، دون أن يكون التعديل بدرجة هنا أو هناك مخالفًا لأصل هذه الرؤية.

□ الكتاب والمكتبة الإسلامية

بداياته ككاتب، بدأت من خلال عمل الشيخ محمد أمين زين الدين ﷺ لإعداد ثلّة من المتميزين للكتابة بأسلوبٍ معاصر وفعّال، وهو كما وصفه علامتنا الفضلي: «أستاذ موهوب يمتلك القدرات التربوية، ما أهّله لأن يكون أستاذًا من أساتذة الأجيال في النجف أدبيًّا

وعلميًّا»[1]. وقد «عقد [الشيخ زين الدين] حلقة تدريس لكتابه الإسلام، ينابيعه، مناهجه، غاياته [حضرها معه الشيخ مهدي السماوي، والسيد مهد الحكيم، والشيخ محمد حيدر، والسيد محمد باقر الحكيم، وآخرون]، تم اختيارهم من الشيخ زين الدين نفسه، لتعليمهم نظريًّا وتطبيقيًّا على كتابة المقالة الأدبية، وهو أوّل درس من نوعه في النجف»[2].

«ويرجع هذا لأن الساحة يومذاك لم يكن يوجد فيها أديبٌ إسلاميٌّ ملتزم، سوى الشيخ زين الدين نفسه والأستاذ السيد محمد باقر الصدر. ويرجع هذا في عوامله ودوافعه إلى انتشار الأدب الاشتراكي الملتزم، وكانت تمثله بوضوح وقوة مجلة الآداب التي أصدرها عام ١٩٥٣م ببيروت الأستاذ سهيل إدريس، وكان يكتب فيها أقطاب الاشتراكية من الأدباء العرب. وكانت تنتشر انتشارًا واسعًا، وكانت تصل إلى النجف الأشرف، وكان لها مفعول مجلة الرسالة في الاستقطاب والتأثير.

وفي المقابل، كان الشيخ زين الدين، وهو الرائد في الكتابة الإسلامية في مفاهيم الإسلام، ومن خلالها كعقيدة شاملة ونظام كامل للحياة، وهو المؤمن الغيور على دينه وأمّته، كان يرى لزامًا عليه أن يكوّن جيلًا من شبّان أهل العلم في النجف كُتّابًا إسلاميين يحملون الإسلام، ينشرون ويدافعون عنه، ويقفون أمام الغزو الاشتراكي. فكان له ما أراد. فقد استطاع أن يكوّن من تلاميذه من قام بالمهمة، وأدّى

(١) الفقيه المثقف، ٢٦.
(٢) المصدر السابق، ٢٦.

الوظيفة على خير وجه»[1].

وقد تأسست جماعة أُطلق عليها اسم: «جماعة العشرة»، ويشرف عليها السيد موسى بحر العلوم، وهدفها «تعليم أعضائها وتدريبهم على كتابة البحث وتكوين كُتّاب إسلاميين في النجف يكتبون وينشرون الأبحاث والمقالات العلمية في المجلات والدوريات الثقافية؛ لأن النجف يومها لا يوجد بها كُتّاب يقومون بذلك»[2].

وقد استوعب الدرس، وتحرّك باتجاه ترجمته باحثًا في البدء عن موارد الحاجة ليملأها، وكانت همومه وشغله الشاغل، فأثرى المكتبة الإسلامية بعناوين جديدة في كثير منها، فيما بعضها الآخر كانت إضافات مضيئة، كانت داخلة في مشروعه الدراسي.

وبعد انتقاله مرحلة الأستاذية، وقد كان أستاذًا ومربيًا لأجيال حمل إليهم أمانة علمه، إيمانًا منه «إذا ظهرت البدع فعلى العالم أن يُظهر علمه، فإن لم يفعل سُلبَ نور الإيمان»[3]، و«من كتم علمًا نافعًا أُلجم بلجامٍ من نار»[4]، بل إيمانًا منه بأنّ «زكاة العلم نشره»[5].

فآمن أن أولى بجهاده التربوي ذاك وما يمثل طموحه أن يرى من يحمل همومه فيشتغل عليها كرسالة وأمانة هي منطقته التي ظُلمت كثيرًا

(١) المصدر السابق، ٢٦-٢٧.
(٢) المصدر السابق، ٢٨.
(٣) وسائل الشيعة، الحر العاملي، ١١/ ٥١١.
(٤) عوالي اللئالي، ابن أبي جمهور، ٤/ ٧١.
(٥) مستدرك الوسائل، ٧/ ٤٦.

بالتقصير تارة وبالقصور تارة أخرى، وبالاستهداف في كثير من الأحيان، ظنًّا من العاملين فيها أن حاجتها فقط هو معرفة الحكم الشرعي والعمل بمقتضاه ليس إلا. فكانت البدايات رعاية مسابقاتٍ في كتابة البحوث العلمية، والتي تم طرح عناوينها بعناية تامة، تقتضي الالتزام بفكرة معينة والتركيز على تناولها بمهنيّة علمية حديثة، تلتزم الكتابة العلمية، والمعلومة المستوعبة لمادة البحث.

وقد حظيتُ بالمشاركة في اثنتين منها، كما قدم لي ثلاث مرّات، وفعل مثل ذلك لِكُثُرٍ غيري، وكان يقول بأن مشروع المقدمة ليس بأن يسرد المقدِّم ملاحظاته وانتقاداته وعيوب الكاتب، وإنما لإبراز صورة البحث وملامحه من الناحية العلمية للقارئ، وتشجيع الكاتب من خلال قراءة الموقع الذي بلغه، فيما هو في أحيانٍ أخرى يقوم بوضع ملاحظاته داخل متن البحث، كما حصل ذلك معي ومع بعض الكُتّاب الذين رأيتُ مراجعاته لبحوثهم.

وقد كانت متابعته لهذا البناء ورعايته له أن قال عبارته الملفتة: «إن لدينا كُتّابًا يفوقون كثيرًا من كُتّاب النجف».

بل كان ينتقد أحيانًا بعض الكُتّاب المشهورين هناك، فيما يُغدق على بعض كتابات منطقتنا ثناءً كبيرًا، وإن كان في بعض الثناء تحفيزًا، إلا أنه أحيانًا تجده ينطلق من إيمانٍ بالكاتب وقدرته الحقيقية على الكتابة بحرفيّة متميزة، ليمدحه باستحقاق وجدارة.

الموسم الثالث

الإحياء الإسلامي والدراسات القرآنية عند الشيخ الفضلي

سماحة الشيخ إبراهيم آل رضي

رمضان ١٤٣٠هـ

- افتتاحية الندوة
- الإحياء الإسلامي في كتابات الدكتور الفضلي «الحوزة والجامعة في مشروعه»
- مداخلات الجمهور
- جهود الشيخ الفضلي في الدراسات القرآنية

افتتاحية الندوة

■ الأستاذ جابر بن عبد الله الخلف ■

تأتي هذه الندوة في دورتها الثالثة المخصّصة حول شخصية مهمة في منجزها المعرفي، وهي فضيلة الشيخ الدكتور عبد الهادي الفضلي.

في ١١ رمضان ١٤٢٨هـ تناول الشيخ محمد العباد محاضرة بعنوان: «الشيخ الفضلي الشخصية الاستيعابية»، وفي ١٨ رمضان ١٤٢٩هـ تناول الأستاذ باقر الرستم محاضرة بعنوان: «الشيخ الفضلي الإنجاز الكبير لمدرسة الشهيد الصدر»، وتأتي هذه الندوة في سلسلة اهتمام المنتدى بهذه الشخصية المنجِزة.

أن يبقى الحديث مستمرًّا حول الشيخ الفضلي، وحول قراءة منجَزه المعرفي خطوة مشروعة وجديرة الاهتمام، باعتبار أن الشيخ الفضلي قدم ما يستحق القراءة والمراجعة والتواصل.

أول ما يلفت نظر القارئ في مدونة الشيخ الفضلي هو عنايته بتناول المفاهيم المعاصرة برؤية عصرية وأصالة معرفية، سواء في الثقافة الإسلامية أو في طرحه الديني. فلا تخلو محاضرة له أو كتاب من تأصيل لمفهوم معاصر أو إعادة إنتاج لمفهوم تراثي أصيل، ولكن بأسلوب

عصري، ولغة علمية رصينة.

إن تحرير الأفكار والرؤى الإسلامية من عوالق التقاليد والأعراف الدينية والاجتماعية الثقافية لهو مجهود عسير يحتاج إلى طاقة علمية وجهد متواصل، وهذا بالضبط ما اشتغل عليه الدكتور الفضلي، ولذا نأى بنفسه عن القيل والقال وكثرة الأقوال، وإعادة المقال.

لا يخلو بحث أو محاضرة أو طرح له من مفهوم للتجديد أو التطوير أو الإحياء أو ضرورة إعادة الاجتهاد فيه، باعتبار أن عملية الاجتهاد لديه حركة فكرية معرفية وليست شهادة أو رتبة أو لقبًا أو إجازة.

وجهوده في ضرورة الاجتهاد الفقهي والتطوير الفكري والتجديد الثقافي والأدبي جهود جلية واضحة تستحق منا على الأقل مداومة القراءة في استمرارها ثم التواصل معها قراءة وتحليلًا ونقدًا. فهذا المنجز المعرفي الثرّ والواعي والناضج والمنفتح على الثقافة والحياة والدنيا والآخرة، يستحق منا القراءة الجدية والمتواصلة؛ ولذا جاءت هذه الندوة الرمضانية التي تهدف إلى محاولة القراءة في مدونة الشيخ الفضلي والتواصل معها معرفيًّا وثقافيًّا.

لم يمارس الفضلي دور الداعية أو الواعظ بقدر ممارسته دور المفكر والباحث المتسائل؛ ولذا قال مرة: «الوعظ ينبه، ولكن لا يُربي». ولهذا اشتغل على مفهوم «التربية الدينية» وليس الوعظ الديني الذي يتقنه كل من يملك حنجرة مستطيرة أو أحبالًا صوتية عالية النبرة.

لم يكتف بأن يكون معيدًا دور الخطيب، بل ارتضى لنفسه أن

يمارس دور الفقيه المثقف، ولذا اشتغل على مفهوم «تراكم الممارسات» حسب تعبير المفكر العربي عبد الإله بلقزيز.

لم يحفل بمجرد الحظوة الاجتماعية والوجاهة الدينية، بل انحاز إلى دور الأستاذ المشارك والشيخ المجتهد لا بالمعنى الأكاديمي المحض، ولا بالمعنى الحوزوي الصرف، ولكن بالمعنى المعرفي. فنراه التزم العمق والشمولية والدقة العلمية وسهولة التعبير ومتانة اللغة والأسلوب التربوي والتواصل مع الآراء العلمية الحديثة والنظريات الفكرية المتطورة.

هناك كثير من المفكرين والمشتغلين بالقضايا الفكرية المعاصرة يربطون كثيرًا بين الإحياء والتجديد والتطوير، وبين القضايا الدينية والمفاهيم الإسلامية، ومنهم الشيخ الدكتور الفضلي، ولذا نحن الآن مجتمعون كي نستفيد ونتعلم من كتابات الشيخ الفضلي ومحاضراته.

ومع فضيلة الشيخ إبراهيم آل رضي في محاضرةٍ له بعنوان: «الإحياء الإسلامي في كتابات الشيخ الدكتور عبد الهادي الفضلي».

فله منا كل الشكر والتقدير، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

[*] مقتطفات من محاضرة:

الإحياء الإسلامي في كتابات الدكتور الفضلي

«الحوزة والجامعة في مشروعه»

■ الشيخ إبراهيم آل رضي ■

١٣ رمضان ١٤٣٠هـ: ٣ سبتمبر ٢٠٠٩م

في البداية، أتقدم بجزيل الشكر والامتنان لهذا المنتدى المبارك في هذه القرية الطيبة على هذه الجهود المباركة في رفع سقف الوعي والثقافة في الأمة. وكم كان السرور عظيمًا عندما استقبلت رسالةً من الأستاذ الفاضل يوسف الشريدة حول هذه العنونة والعناوين المتعددة، والتي تفتح آفاقًا للمتكلم. نعم، لو اقتصر على عنوانٍ لكان ذلك ضيّقًا، ولكن السعة في التعدد. أقول وأنا أمام النخبة الطيبة والمباركة ما أنا إلا كناقل التمر إلى هجر. إذ لعل المستمع قرأ أكثر مما سيسمعه الآن، ذلك أن شخصية الدكتور الفضلي أضحت رمزًا يشار له بالبنان.

□ الكلمة والعنوان «الإحياء الإسلامي»

نطلُّ أولًا على أطلس العالم عبر خارطة العرب، وتحديدًا عبر منفذ الجزيرة، حيث كان آنذاك والعالم كله يعيش سباتًا عميقًا، إذ لم تكن من يقظة هناك، فهي لدى حضارات اليونان وفارس والهند إلى ما هنالك من هذه الأمم.

أما العرب، ولاسيما الجزيرة منها، فكانت خارطتها معدومة فيها كل التضاريس الحضارية، ويكفي من الانعدام ما عبر عنه القرآن بصيغة العموم: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا ...﴾[1]، أميون بكل ما تحمل الكلمة من معنى.

وكان المعنى الواضح والماثل هو الموت، الإماتة الفكرية التي يترشح من موت الفكر، وموت الروح، وموت القيم والسلوك، وموت الحضارة.

هكذا كانت الحضارة، وإذا بالسماء تفتح نافذةً لتطلَّ على الأرض من خلال ما سمي في السماء: «أحمد» وفي الأرض: «محمد»، والجامع بينهما هو المحمود ﷺ. تطل السماء من هذه النافذة وتبعثه على حين فترةً من الرّسل، فكان هو ذا الانقطاع، وإذا بالحياة تدّبُ وتنبعث بانبعاث الرسول ﷺ إلى جسد الأمة وبقية الأجساد في أطراف الأرض. لذا كانت هذه الحياة، والحياة فقط، من خلال المنظومة الرفيعة والعالية، منظومة القيم والمعارف القادمة من السماء والنازلة من الله.

(١) سورة الجمعة، الآية: ٢.

وكما أوجز وعبر عنه الشهيد الصدر ـ رضوان الله عليه ـ في تعريفه للحكم الشرعي: هو الخطاب الصادر من الله لتنظيم كافة شؤون الحياة. هكذا الحياة تبدو عند المشرع وبقلمه وفكره.

إذن، الإحياء الإسلامي حقيقةً كان إحياءً للأرض، فمصطلح «الموات في الأراضي الميتة» الذي ما يزال ساري المفعول وضعه المشرع الإسلامي ليُحيي به الأرض، ولكن أعتقد هنا الأرض الحقيقية هي أرض الإنسان، أرض البشر؛ لأن موت البشرية يُميتُ الأرض، وإذا ما ظلّ الإنسان حيًّا سوف يحيي كل ما يحيط به.

إن الإحياء الإسلامي كلمة واسعة، ولذلك أختصرها بانتقاء أداة من أدوات الإحياء؛ ولعل هذه الأداة هي بمثابة الرأس فيها، وهي الإحياء الفكري الذي هو أساس أنواع الإحياءات الأخرى، وهي أساس للحياة بكل تنوّعاتها.

□ الشيخ الفضلي والحوزة

إننا حينما نطل على مناهج الحوزة لا نرى ـ ولا أقل اليوم ـ إلاَّ أن يقف طالب العلم منذ البداية في المقدمات وحتى حينما يرتقي للسطوح، بل وحتى حينما يصل إلى بحث الخارج، لا نراه إلا مُتَّكِئًا على متكآت الشيخ في مؤلفاته؛ لأنها تتسم بالعمق الحوزوي وبالطرح الأكاديمي المُمنهج والمنقَّط.

لذا يرى الطالب فيها حالة انسياب مع الكتاب، وهذا ما يميز كتابات الشيخ في الحوزة. من هنا، فإنني في هذا الاتجاه أكتفي بهذه

الإشارة: لقد أضحت مؤلفات الشيخ اليوم ـ ويحق لنا أن نفخر أنها خرجت من هنا، من هذه الواحة الخضراء، من (هجر) خرج هذا الفكر ليتصدر الحوزة في مناهجها، ليس في حوزة (الأحساء) وإنما حتى في حوزة (قم)، وقبل (قم) كانت (النجف)، وإن كان نحو المختصرات والخلاصات. إلا أن المهم هو في الخلاصة؛ لأنها تعني عصارة الشيء، فلذا الشيخ اعتمد هذه الخلاصات والتلخيصات ليقدمها في ثوبها الجديد لطالب الحوزة.

☐ الشيخ الفضلي والجامعة

وأما الجامعة، والتي تعتبر نموذجًا آخر وجناح ثانٍ من أجنحة الأمة الواعية والمثقفة، فحدِّث ولا حرج، إذ أضحى عميدًا للجامعيين في كلية الآداب، وبجدارة فائقة، وذلك لتمتعه بعقلية العمق الحوزوي الذي دمجه مع الطرح الأكاديمي.

☐ المحاضرات نوع آخر من الإحياء الإسلامي

نعم، يبقى نوع آخر من الإحياء الإسلامي، وهو من خلال ما قدمه من مفاهيم كانت بحقٍ جديدة ولا أقل على هذا المجتمع. فكانت البداية في مؤلفاتٍ على نحو الكراريس، ولكنها أضحت من أبجديات الوعي الإسلامي، وذلك حينما ألّف (مشكلة الفقر)، وكتاب (في انتظار الإمام)، ومعهما ناقش وكتب في كثير من المفاهيم.

نعم، كان الشيخ قويًا هنا بلسانه، فكان يتمتع بلسانٍ ذربٍ عميق، فلذا انتعشت البلاد حينما تقاعد، ووالذي كان تقاعدًا عن الوظيفة

الرسمية، إذ لم يتقاعد عن العطاء، بل عدَّهُ الشيخ نعمة للتفرغ لخدمة المجتمع، فكانت المحاضرات امتيازًا عاليًا، حيث كان المجتمع بحاجة إليها، وكانت الآذان تنصت لها إنصاتًا جيدًا.

وما أتذكره حينما استمعت لإحدى محاضراته لأول مرة، وكان ذلك عام ١٤٠٢هـ، أي: قبل ٢٨ سنة مضت، وكانت بعنوان «الأيديولوجية الإسلامية»، فقدم فيها، ولو على نحو التنظير، ما تمتاز به هذه الحضارة الإسلامية من أيديولوجية عالية، بيسر يستوعبها كل من حَضرَ، النُخب وعامّة الناس.

هكذا الشيخ أضحى خطيبًا؛ لأن الخطيب من يتمتع بعنصر الخطابة، ألا وهي البلاغة التي تعني: «مراعاة مقتضى الحال»، فكان يُراعي - ورعايته عالية - جميع مستويات الحضور.

□ الحقيقة الناصعة للإحياء الإسلامي

أختم بما قدمه سماحة الشيخ من نموذج عالٍ في المفهوم الإسلامي للنظام السياسي، إذ أبى إلا أن يقدم الصورة الناصعة لحقيقة الإحياء الإسلامي، وهو إحياء لا يكون إلا من (روح الله) حينما ألف كتابًا عالي القيمة، ألا وهو: (الحكومة الإسلامية)، حيث قدم في هذا الكتاب حقيقة النظام الإسلامي، وأن هذا النظام لا يمكن أن يأتي إلا من خلال القراءة الشاملة والدقيقة للمنظومة الدينية.

ذلك أن أفضل صياغة للأديان صيغة على ضفاف الغدير التي انبثقت الحياة ولا تنبثق إلا من الماء، هنالك وعلى الضفاف جاءت الصياغة كاملة في قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ

نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾[1].

هذه الصياغة انتقلت على كف المعصومين من كفٍ إلى كف، لذا لم يصبها خلل ولا نقص ولا تحريف؛ لأنها بيدٍ معصومة، والقرآن عصمَ نفسه: ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ﴾[2]، وكذلك المقترن بقرن أكيدٍ مع القرآن وهي العترة: «إنِّي مُخَلِّفٌ فيكم الثقلين ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا أبدًا: كتاب الله وعترتي أهل بيتي، لن يفترقا حتى يردا علي الحوض»[3]؛ لأن العترة معصومة: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾[4].

كانت هذه الصياغة مرت عليها قرون وقرون من الغيبة ـ بغيبة الولي ـ ولكن يا تُرى نسأل وإياكم في أداة الإحياء الإسلامي: وهل الصياغة تغيب بغيبة الولي؟، إنها لا تغيب؛ لأن النبي ﷺ أبى إلا أن تكون ظاهرة؛ لأنه أظهر هذه الصياغة: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾[5].

نعم، لا تغيب لأن «حلال محمد حلال أبدًا إلى يوم القيامة،

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٣.

(٢) سورة فصلت، الآية: ٤٢.

(٣) معاني الأخبار، الشيخ الصدوق، ص ٩٠، باب معنى الثقلين والعترة.

(٤) سورة الأحزاب، الآية: ٣٣.

(٥) سورة التوبة، الآية: ٣٣.

وحرامه حرام أبدًا إلى يوم القيامة»[1].

نعم، نحن نتمتع بمناظير عالية ودقيقة تقرأ ما بين السطور، وأفضل المناظير في قراءة هذه الصياغة للأديان عبر منظور: «ولاية الفقيه»، هذه القراءة الشاملة والدقيقة والتي تمتعنا وإياكم من خلال هذه القراءة.

كان شيخنا آية الله الفضلي أحد القراء من منظور «ولاية الفقيه»، وكان يعتمدها اعتمادًا أساسيًّا، ويشيد بهذه القراءة الخمينية. واليوم وهو يجل كثيرًا الإمام الخامنئي إلى درجة يعتبره نموذجًا دقيقًا وفريدًا ووحيدًا في قراءة هذه الصياغة للأديان، ويقول ـ وأنقل ما سمعته ـ: «إذا ما أعطى الله الإمام الخامنئي عمرًا سوف ترون ما يُذهل مما يقدم من قراءات وافية لهذه الصياغة في إحياء الإسلام».

نعم، هكذا أضحى الشيخ في هذه المنظومة وفي هذه الصياغة قارئ، وقارئ مجيد، وبلا ملل وبلا كلل.

□ عطاء الشيخ في مرضه

حينما أصابته الجلطة الأولى، قمت بزيارته، وكنت متواصلًا معه، إلا في هاتين السنتين حيث امتنع عن اللقاء، وأنا أقدر له هذا الامتناع؛ لأنه يرفض أن يُرى بهذه الحالة، رأيته وسألته: «هل لا تزال تكتب؟»، فقال: «يا شيخ، أضحيتُ أميًّا؛ لأنني لا أكتب إذ لا أتمكن من رفع القلم. ولا أرى، حيث لا أتمكن من القراءة، فأنا أميّ».

(١) الكافي، الشيخ الكليني، ج١/ ٥٨، باب البدع والرأي والمقائيس.

ولكنّي أقول له، عبر هذا المنبر: «لست أميًّا؛ لأننا وقد استمعنا في مهرجان «الفقيه المثقف» من ابنك الأستاذ فؤاد ـ الذي أضحى فؤادًا لك ـ أنك كتبت، وكانت من خيرة الكتابات في فترة الأميّة التي تتحدّث عنها».

ولكم أن تتخيلوا هذه الحال في الأمية، فكيف إذا رجع إليك بصرك، وتحركت يدك، ما عساها أن تمسك لتنبعث الحياة من جديد؟!

أسأل الله لشيخنا العمر المديد والصحة والعافية، وأتمنى من إخواني أن يكونوا على مقربة قريبة من كتابات هذا الشيخ، فإن من لا يقرأ لمثل الشيخ، سيبقى أميًّا وإن قرأ الكثير لغيره. فعلينا أن نزيل الأمية من خلال ما قدمه الشيخ في الإحياء الإسلامي، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

من مداخلات الجمهور

□ **افتقاد الشيخ الفضلي محاضراً في المنطقة**

فقدان الشيخ الفضلي كمحاضر وكأستاذ ومربٍّ يعتبر كارثة للمنطقة، أنا في العام الماضي لما أرسلت كتابي للشيخ الفضلي أثنى الأخ (فؤاد) عليه وكذلك الشيخ، وقال لي الأخ (فؤاد): أنا قرأتُ الكتابَ على الشيخ. وهي مقولة آلمتني، لذا لا بدَّ للشيخ أن يشعر أن هنالك من أبنائه الأحسائيين من يشعر به ويقدر عطاءه، ويتفاعل معه. وقد آلمني أن مهرجان «الفقيه والمثقف» كان أشبه بالتأبين، وليس التكريم. فما ألقي من ذكر المناقب وطبيعة العلاقة به هي أشبه بالتأبين لا بالتكريم. وما أتساءل حوله هو: ما مدى حضور الدكتور في الحوزات العلمية في السعودية، أو في(قم)، أو في (النجف)؟

■ الأستاذ باقر بن عبد الوهاب الرستم

□ لا بدّ من التأكيد أن حضور الشيخ لايزال فاعلًا على الصعيدين الحوزة والجامعة، إما من خلال ما يكتب من مناهج، أو من خلال ما

يرسم من أيديولوجية للجامعة والحوزة.

وأنا في سنة من السنوات التقيت آية الله الشيخ محسن الآراكي في الحج ـ وهو المسؤول المباشر لجامعة آل البيت في لندن، والتي أسسها الإمام القائد الخامنئي ـ وأعطاني ملفًّا طلب مني أن أسلمه آية الله الشيخ الفضلي، حتى يضع تصورًا شاملًا لهذه الجامعة.

إن إيران ومع ما تمتلك من حضارة ومن عقليات جبارة إلا أنها تستعين بالشيخ الفضلي، وهو يدل على قوة حضوره.

حتى هنا في حوزة (الأحساء) الشيخ متواجد، وهنالك اتصالات معه، وإن كانت ليست بمستوى سماحة الشيخ .

وحينما نقرأ في أرشيف طلاب الشيخ، نرى هناك نماذج رفيعة على كل الصُعد، سواءً المفكرة أو السياسية أو القيادية، كما هي الحال مع السيد محمود الهاشمي وهو أحد تلامذته المبرزين، والشيخ محمد مهدي الآصفي[1]، فاعتقد أن هذا الامتداد الوجودي للشيخ على نحو النماذج من الطلاب والأساتذة والشيوخ والمفكرين والقادة السياسيين وغيرهم، هذا دليل على أن الشيخ لا يزال متواجدًا.

☐ معالم الإحياء عند الشيخ الفضلي

■ الدكتور الفضلي ـ حفظه الله ـ كما ذكرت في كتابه (مشكلة الفقر)، وكتابه (في انتظار الإمام)، حينما تقرأه تحتاج إلى أوسع من هذا المستوى،

(١) الشيخ الآصفي ليس من تلامذة الشيخ الفضلي، وإنما من زملائه. المعدّ

الموجود هذا مجرد أبجديات، وهذه الأبجديات تحتاج إلى موسوعة كاملة. والواقع، مع شديد الأسف، كما تطرق الأستاذ باقر علي غرار مهرجان (الفقيه المثقف)، حيث الكتابات التي تناولت الدكتور الفضلي لم تتناوله بالمستوى المطلوب، خرجت لنا ثلاثة ملفات ولا يوجد فيها دراسات تنصف الدكتور، إلا اثنتين أو ثلاث تقريبًا. نعم، هنالك عناوين براقة لكن لا يوجد بها مضمون. وسأكون ربما قاسيًا هذه الليلة، فما استمعنا إليه إنما هو تقرير ولم يكن قراءة، فأين هو مفهوم الإحياء الإسلامي في كتابات الدكتور الفضلي، إننا نريد أن نتلمّس معالم منهج الدكتور الفضلي في قضية الإحياء الإسلامي، أو إلى مقارنة للدكتور الفضلي مع غيره من الفضلاء الذين حملوا هذا الهم، هذا هو مفهوم الإحياء الإسلامي. إن الإحياء الإسلامي ـ كما تفضلت ـ مفهوم واسع، ولكن أنا لم أستمع إلى أمثلة أو مقارنة أو إلى دراسة في كتاباته، وشكرًا.

■ الأستاذ عبد الله بن علي الرستم

□ أنا ذكرت نماذج من الإحياء الإسلامي في كتابات الشيخ ما عبرتَ عنه في سؤالك بأنها أبجديات الوعي الإسلامي في هذين الكتابين: «مشكلة الفقر» و«في انتظار الإمام»، وختمتها بأن أفضل قراءة لصياغة الأديان الإلهية عبر منظور (ولاية الفقيه) التي تعني الشمولية في هذه المنظومة الصياغة.

ذكرت جملة من هذه النماذج، ويبقى الباب مفتوحًا، وليس على

نحو رفع التقرير، وإنما أنا ممن تأثر بالشيخ الفضلي من خلال قراءاتي، فكان منذ البداية في (قم المقدسة) سنة ١٤٠١هـ أحد المرجعيات الفكرية في القراءة لدي، والنماذج التي ذكرتها كآية الله السيد محمود الهاشمي والشيخ الآصفي تعد انعكاسًا لمشروع الشيخ في الإحياء الإسلامي.

جهود الشيخ الدكتور عبد الهادي الفضلي في الدراسات القرآنية

■ الأستاذ جابر بن عبد الله الخلف ■

ما أعنيه بهذا العنوان هو تناول الكتب والأبحاث والتحقيقات التي طرحها الدكتور الفضلي حول علوم القرآن الكريم، مثل: القراءات والتجويد والناسخ والمنسوخ وغير ذلك.

وهو موضوع لا أدعي فيه تقديم أي جديد، وإنما يمكنني ادعاء تقديم المفيد، حيث سيكون موضوعي عرضًا لما كتب، وتعريفًا بمجموعة من الكتب، وليس لي فيه ابتكار أو إنجاز ما لم ينجز، وإنما رميت إلى تحقيق رغبة القراءة المتأنية فيما كتبه الشيخ الفضلي حول القرآن في هذه الأمسية القرآنية في شهر رمضان.

يعرّف الدكتور داود العطار في كتابه (علوم القرآن) بقوله: «هي الأبحاث العلمية في القرآن الكريم، فلقد أقبل العلماء على دراسة كتاب الله المجيد، وكتبوا عنه أبحاثًا علمية قيمة أسموها: (علوم القرآن). وأهم هذه العلوم هي: علم التفسير، علم آيات الأحكام، علم الإعجاز، علم المكي والمدني، علم أسباب النزول، علم الناسخ

والمنسوخ، علم المحكم والمتشابه، علم الإعراب، وعلم البلاغة، علم الرسم القرآني، علم القراءات»[1].

□ منذ الطفولة

من الطبيعي أن ترجع عناية الدكتور الفضلي بالقرآن منذ نعومة أظفاره، وذلك من خلال عناية والده الميرز محسن الفضلي (ت ١٤٠٩هـ) به، فقد ختم القرآن الكريم في كُتّاب البصرة، وهذه هي النشأة الطبيعية لطالب العلم في ذلك الوسط العلمي في العراق، وخصوصًا في البصرة، حيث مسقط رأس الشيخ الفضلي عام ١٣٥٤هـ.

ويتجدد اهتمام الشيخ الفضلي بالدراسات القرآنية فيما بعد أثناء تحصيله العلمي في البصرة، ودراسته (تحفة الأطفال في علم التجويد) للجنزوري، و(هداية المستفيد في علم التجويد) على يد الشيخ جاسم البصير، وتوسعه العلمي سواء كان في الحوزة العلمية، أو في كلية الفقه في النجف، ودراساته الأكاديمية في كلية الآداب بجامعة بغداد، ثم جامعة الملك عبد العزيز بجدة، وكلية دار العلوم بجامعة القاهرة.

□ المفاهيم الإسلامية من منظور قرآني

ويمكن رصد اهتماماته أيضًا من خلال طرحه للمفاهيم الإسلامية في ضوء القرآن الكريم من خلال التأصيل لها من الآيات الكريمة، وذلك في كثير من كتاباته ومحاضراته وندواته العامة في المناسبات الاجتماعية والثقافية والاحتفالات الإسلامية في المنطقة الشرقية، سواء

(١) موجز علوم القرآن، داوود العطار.

في الأحساء أو القطيف، مثل: طرحه لمفهوم (الأولى) و(الآخرة) في القرآن، وحديثه عن القرآن الكريم بوصفه منهجًا تربويًّا في دراسة أصول العقيدة الإسلامية من خلال كتابه التربوي (التربية الدينية) مع شرح موجز لبعض السور القرآنية؛ كي يكون القرآن الكريم أول كتاب تنفتح عليه الناشئة.

في «فهرست مؤلفات العلامة الدكتور عبد الهادي الفضلي» الذي أعده الأستاذ حسين الشيخ، وهو يحتوي على المطبوع منها والمخطوط، صنفه مؤلفه إلى سبع مجموعات، وفي مقدمة هذه المجموعات (مجموعة علوم القرآن)، وجاء الفهرس كالآتي:

(١) بداية الهداية في علم التجويد ـ تحقيق، تأليف: الشيخ عبد المحسن اللويمي الأحسائي (ت حدود ١٢٥٠هـ): تبحث هذه الرسالة في علم التجويد: أحكامه ومسائله، في ضوء منهج فقهي استدلالي، يعتمد طريقة الاجتهاد وأصوله أساسًا في الدراسة والاستنتاج، ويرجع هذا إلى أن مؤلّفها من الفقهاء المجتهدين، وممن ألف في فقه الصلاة ثلاث رسائل، وبطريقة علمية استدلالية، حتى عاد عميق التخصص ودقيقه في فقه الصلاة. ويبحث الكتاب مادة علم التجويد ضمن العناوين التالية: مخارج الحروف وصفاتها، الإدغام في القرآن، أحكام النون الساكنة والتنوين، حروف لا تدغم فيما يقاربها (المد والقصر)، ترقيق الراء وتفخيمها، تغليظ اللامات وترقيقها، الوقف على أواخر الكلم.

(٢) درة القارئ (منظومة في ظاءات القرآن الكريم) ـ تحقيق، نظم :

الحافظ عبد الرزاق الرسعني (ت ٦٦١هـ): وهو لون من التأليف يعرض لبيان ما يُقرأ ويُكتب بالظاء من الكلم القرآني الكريم، فتدخل مادته في دائرة التأليف في علوم القرآن، واعتمد مؤلفه أسلوب النظم فيه تسهيلًا لاستظهاره، وتيسيرًا لاستحضاره، وهو نهج سلكه غير قليل من المؤلفين المتقدّمين، وشاع سلوكه في أخريات العصر العباسي، وعصر الدول المتابعة. وتتألف منظومته من واحد وثلاثين بيتًا، من البحر البسيط التام، ورويّها: النون المكسورة، وأشار الناظم إلى تسميتها وبحرها بقوله:

سـميتها (درة القـاري)، ونِسـبَتُه بحر البسيط، فزنها، واختبر تـبنِ

(٣) شرح الواضحة في تجويد الفاتحة ـ تحقيق، تأليف: ابن أم قاسم المرادي النحوي (ت ٧٤٩هـ): يتألف الكتاب من متن وشرح. فمتنه: منظومة من البحر الطويل، وقافيتها دالية مكسورة، عنوانها: (الواضحة في تجويد الفاتحة)، من نظم الشيخ برهان الدين إبراهيم بن عمر الجعبري المقرئ النحوي، والمنظومة تتحدث عن أحكام تجويد كلمات سورة الفاتحة. أما الشرح، فهو للحسن بن قاسم المرادي النحوي المعروف بابن أم قاسم، يلقي فيه الشارح الأضواء على الجوانب التجويدية والقرائية واللغوية والنحوية لأبيات المنظومة، ومطلع المنظومة:

بحمـدك ربي أوّلَ الـنظم أبتـدي وأهـدي صـلاتي للنبـي محمـد

(٤) القراءات القرآنية.. تاريخ وتعريف: من أوائل الكتب التي

تناولت بحث القراءات القرآنية بالتعريف والتأريخ بتوسع وشمولية، توزعت فصول الكتاب على النحو التالي: نشأة القراءات وتطورها، التعريف بالقراءات، مصادر القراءات، اختلاف القراءات وأسبابه، الاختيار في القراءات، المقياس القرائي، القراءات والتجويد.

(٥) قراءة ابن كثير وأثرها في الدراسات النحوية ـ رسالة دكتوراه (١٩٧٥م): تتكون هذه الرسالة من تمهيد وثلاثة أبواب: **الباب التمهيدي**، ويشمل التعريف بابن كثير: نشأته، حياته العلمية، أساتذته، تلاميذه، ووفاته. وبعده **الباب الأول: القراءات القرآنية**، وقد استلّه المؤلف من الرسالة لاحقًا وطبعه ككتاب مستقل، وقد عرفنا بفصوله. ثم **الباب الثاني: قراءة ابن كثير**، ويشمل فصلين: **الأول: التعريف بقراءة ابن كثير**: أساتذته، إسناده في القراءة، إمامته فيها، تلامذته وراوياه، وإسنادهما إليه، طريقته في القراءة، التأليف في قراءة ابن كثير. **والثاني: نصوص قراءة ابن كثير**، حيث بلغ مجموع ما ذكره المؤلف (١٦٠٠) نصًا متواترًا. وآخرها **الباب الثالث: أثر قراءة ابن كثير في الدراسات النحوية**: وذلك من خلال بيان أثر القراءات عامة في الدراسات النحوية، ثم خصص البحث في أثر قراءة ابن كثير في الدراسات النحوية، وقسم ذلك الأثر في الأصوات والصرف والنحو، والأساليب. ثم الخاتمة وضمت خلاصة البحث ونتائجه، وهي كما وردت في كتاب الفقيه المثقف ص ١٦٣:

١. مكة المكرمة من حواضر الدراسات النحوية في فترة ولادة النحو ونشوئه، أي من النصف الثاني من القرن الأول الهجري.
٢. ابن كثير كان نحويًا من رواد علم النحو الأوائل.

٣. استشهد العلماء بقراءة ابن كثير في الأصوات والصرف والنحو والبلاغة واللهجات والمعاجم والتطور اللغوي.
٤. قراءة ابن كثير للنحو شاهد على قواعده ومسائله منذ بدء التأليف فيه حتى الآن.
٥. جواز الجمع بين الساكنين غير مقصور على ما كان أول الحرفين منهما مدًّا كما هو رأي النحاة، وإنما يشمل ما كان الحرف الثاني منهما مُدغمًا، وما كان الحرف الأول منهما حرف مد ولين، استنادًا إلى قراءة ابن كثير.
٦. جواز قصر الممدود في النثر.
٧. جواز تقديم الأسلوب البلاغي على القاعدة النحوية.
٨. حفظت لنا قراءة ابن كثير لهجة إثبات حرف العلة حالةَ الجزم.
٩. ابن كثير كان يوافق في كثير مما انفرد به الأصل النحوي، كما في وصله هاء الكتابة، ووصله ميم الجمع.
١٠. يوافق ابن كثير الاستعمال العربي الشائع فيما اختلف فيه القراء، واعتُبِر من القراءات المشكلة نحويًّا.
١١. اختيارات ابن كثير جاءت موافقة للغة قريش والحجاز.
١٢. حفظت لنا قراءة ابن كثير ١١٦ لهجة منسوبة وغير منسوبة.
١٣. يؤثر ابن كثير في أغلب اختياراته للهجات العربية الشائعة.
١٤. إن كثيرًا من الألفاظ المعجمية في القراءات قد أغفلها مؤلفو المعاجم العربية.

(٦) الناسخ والمنسوخ ـ تحقيق، تأليف: كمال الدين عبد الرحمن بن محمد العتائقي الحلي: الكتاب يعرض لسور القرآن الكريم، ويشير في

كل سورة إلى عدد الآيات الناسخة أو المنسوخة فيها، ثم يثبتها مع الإشارة في كل آية منسوخة إلى الآية التي نسختها، مبتدئًا من الفاتحة، ومنتهيًا بسورة الناس.

(٧) علم التجويد: كتاب دراسي في علم التجويد، ما يزال مخطوطًا.

لم يذكر الأستاذ حسين الشيخ كتاب: **زلة القارئ**، للنسفي بتحقيق الدكتور الفضلي، وقد ذكره السيد هاشم الشخص في أعلام هجر في مجال تحقيق الكتب، وذكره أيضًا الأستاذ عبدالإله صالح آل علي في بحثه الجامعي: «الدكتور عبد الهادي الفضلي عالم اللغة والنحوي السعودي».

كما لم يذكر الأستاذ حسين الشيخ كتاب **اللامات**، وهو دراسة نحوية شاملة في ضوء القراءات القرآنية وقد اقترح منهجها في رسالته للدكتوراه عن قراءة ابن كثير وأثرها في الدراسات النحوية. كما أنه لم يذكر كتاب إعراب سورة الفاتحة، وقد ذكره السيد هاشم الشخص.

☐ في مجال الإشراف الأكاديمي على الرسائل العلمية

ومن جهود الدكتور الفضلي في خدمة القرآن إشرافه على الرسائل العلمية، والأطاريح الجامعية، ومن أمثلة ذلك:

- إشرافه على رسالة دكتوراه، للدكتورة صباح بافضل، كلية التربية للبنات في جدة، بعنوان: (من الظواهر النحوية للحروف المستخدمة في القرآن الكريم).
- وإشرافه على رسالة ماجستير، للأستاذة ثريا مدن عمير، في الجامعة

العالمية للعلوم الإسلامية، بعنوان: (مناهج التفسير).

□ في مجال البحث الفقهي

في بحثه بعنوان: (الشيخ الفضلي فقيها) عرض السيد محمد الحسيني للملامح العامة لمنهج الشيخ الفضلي الفقهي، وهي في اختصار: الفهم العرفي، النزعة التاريخية، الذهنية المعاصرة، البعْد العلمي، المرجعية القرآنية، الرؤى المستقلة.

ويمكن تلخيص ما يعنيه السيد الحسيني فيما يعنيه بالمرجعية القرآنية في الآتي: «يلاحظ على المنهج الفقهي السائد ـ مع الاعتراف بالمرجعية القرآنية ـ التعاطي مع السنة الشريفة بمستوى واحد، وبمسافة واحدة مع القرآن الكريم، في وقت يؤكد فيه عدد من الفقهاء على ضرورة قراءة نصوص السنة الشريفة وتفسيرها في ضوء القرآن؛ لأنه المصدر الأول للتقعيد، ولا ينفصل أي نص، أو موقف عن الإطار العام للنص القرآني»، ثم يضيف: «وتبدو هذه الإشكالية في المسائل الحرجة، ومن ذلك مركز المرأة القانوني في ضوء بعض النصوص الشرعية، ومسائل أخرى مهمة تتصل بالشأن الحياتي العام». ويضرب السيد الحسيني أمثلة لذلك، مثل: مسألة ولاية المرأة للوظائف العامة، ومنها الولاية السياسية والقضائية، ومسألة الغناء، ومسألة السلام مع الكيان الصهيوني.

لقد انطلق الشيخ الفضلي في مقاربة هذه المسائل بقراءة أقرب ما تكون إلى (السياق القرآني). إن اهتمام الدكتور الفضلي بمرجعية النص القرآني في أطروحاته الفكرية والفقهية باعتبار أن القرآن هو المرجع

الأول في التشريع، فهو من المهتمين بالمدارس العلمية الجديدة في مجال الدراسات الحوزوية والأكاديمية.

والخلاصة: إن جهود الشيخ الدكتور الفضلي في الدراسات القرآنية جهود ثرة ومهمة، وهي جهود ذات قيمة علمية عالية، فقد ختم القرآن منذ نعومة أظفاره، واهتم بتناول علوم القرآن في مجال طرح المفاهيم ومناقشتها، وفي مجال تحقيق التراث العربي الإسلامي، والعناية بالمخطوطات، ومجال التأليف الذاتي، وفي مجال الإشراف الأكاديمي، وفي مجال المنهج الفقهي درسًا وتطبيقًا.

إن علوم القرآن كثيرة، وقد اشتغل الدكتور الفضلي على بعضها، وألف في أهمها، مثل: علم القراءات، وعلم آيات الأحكام في منهجه الفقهي، وعلم الناسخ والمنسوخ، وأشرف على دراسات علمية تتعلق بمناهج التفسير، ونحو القرآن وإعرابه .

□ الهوامش

(١) من مراجع الشيخ جلال الحنفي البغدادي في كتابه قواعد التجويد والإلقاء الصوتي (كتاب بداية الهداية في علم التجويد)، كما أن من مراجعه أيضًا (رسالة في بعض أسرار التجويد)، للشيخ أحمد بن زين الدين الأحسائي المتوفى سنة ١٣٤١هـ.

(٢) كتاب القراءات القرآنية في الأصل ليس كتابًا مستقلًا، وإنما هو مقتبس من أطروحة الدكتوراه التي أعدها الدكتور الفضلي في جامعة القاهرة، ويبدو أنها فصولها الأولى، وقد رجع إليه، ونقل منه

الشيخ جلال الحنفي البغدادي في كتابه قواعد التجويد والإلقاء الصوتي، والسيد جعفر مرتضى العاملي في كتابه حقائق هامة حول القرآن الكريم.

□ **المصادر**

١. أعلام هجر، السيد هاشم الشخص.
٢. التربية الدينية، الدكتور عبد الهادي الفضلي.
٣. الدكتور عبد الهادي الفضلي عالم اللغة والنحوي السعودي، الأستاذ عبد الإله صالح آل علي
٤. الفقيه المثقف، فؤاد الفضلي.
٥. فهرست مؤلفات العلامة الدكتور عبد الهادي الفضلي، الأستاذ حسين الشيخ.
٦. قالوا في جدنا، غسان الفضلي، نائل السلطان.
٧. موجز علوم القرآن، الدكتور داود العطار.

الموسم الرابع

التجديد والتعددية: فضل الله والفضلي نموذجًا

الدكتور أحمد اللويمي

رمضان ١٤٣١هـ

- افتتاحية الندوة
- التجديد والتعددية فضل الله والشيخ الفضلي نموذجًا
- المداخلات

افتتاحية الندوة

■ الأستاذ جابر بن عبد الله الخلف ■

تأتي الندوة في دورتها الرابعة وهي تدور حول شخصيتين مهمتين في منجزهما المعرفي والفقهي، وهما السيد محمد حسين فضل الله ﷺ، الذي انتقل إلى عفو ربه في ٤ يوليو ٢٠١٠م، والدكتور عبد الهادي الفضلي ـ حفظه الله.

في ١١ رمضان ١٤٢٨هـ قدم الشيخ محمد العباد محاضرة بعنوان: «الشيخ الفضلي الشخصية الاستيعابية»، وفي ١٨ رمضان ١٤٢٩ قدم الأستاذ باقر الرستم محاضرة بعنوان: «الشيخ الفضلي الإنجاز الكبير لمدرسة الشهيد الصدر»، وفي ١٣ رمضان ١٤٣٠ قدّم الشيخ إبراهيم آل رضي محاضرة بعنوان: «الإحياء الإسلامي في كتابات الشيخ الدكتور عبد الهادي الفضلي». وهذه الليلة يقدم لنا الدكتور أحمد اللويمي محاضرة بعنوان: «التجديد والتعددية .. فضل الله والفضلي أنموذجًا».

إن الحديث حول المنجز المعرفي الذي قدمه الدكتور عبد الهادي الفضلي ممارسةً معرفيةً جديرة بالاستمرار؛ لأن الدكتور الفضلي قدم ما يستحق القراءة والتأمل والمراجعة والتواصل، وهو بذلك يذكرنا بالسيد فضل الله الذي قدم مشروعًا فقهيًا وفكريًا واجتماعيًا وأدبيًا مماثلًا

جديرًا بالقراءة والتأمل والتواصل.

كلا الشخصيتين طرحا قراءة معاصرة للفقه والفكر، واجتهدا في تحرير الأفكار والرؤى الإسلامية من عوالق التقاليد والأعراف الدينية والاجتماعية والثقافية بجهد متواصل.

بين (فضل الله) و(الفضلي) مشابهة لفظية من حيثُ الاسم، ومشابهة منهجية وعلمية من حيث الطرح. وكلاهما كان يؤمن بأن (التجديد هو الحل)، وبأن (التجديد سمة من سمات الشريعة الإسلامية)، وكلاهما أيضًا شخصية علمية بارزة ومستقلة، وذات رؤى تنويرية أصيلة ومعاصرة.

التعددية ـ حسب موسوعة ويكيبيديا الإلكترونية من منظور علم الاجتماع ـ: «عبارة عن إطار للتفاعل تَظهرُ فيه المجموعاتُ التي تحترم التعايش المثمر، والتفاعل بدون صراع وبدون انصهار». وتعد التعددية من أهم ملامح المجتمعات الحديثة والمجموعات الاجتماعية، وربما تعد مفتاحًا لتقدم العلم والمجتمع والتنمية الاقتصادية. إن المشاركةَ الواسعةَ والشعورَ القويَ بالالتزام عند أعضاء المجتمع تؤدي إلى نتائج أفضل.

من أجل هذا نجتمع الليلة؛ وكلنا آذان واعية، سنمكث مستمعين منصتين مصغين للدكتور أحمد اللويمي؛ فليتفضل مشكورًا لينثر علينا حضوره البهي.

التجديد والتعددية: فضل الله والفضلي أنموذجًا

■ الدكتور أحمد اللويمي ■

الحياة في مظهرها العام لا ترتبط بحركة الزمن في دوران الليل والنهار، بل إنَّ ما يشكل مظهر الحياة ويحدد طبيعتها وجوهرها هو القدر الذي يمتلكه الإنسان من عمق وإدراك مفاهيم الحياة. فالحداثة والقدم لا يكون بعدها الحقيقي ما تنقله أحداث التاريخ بقدر ما يرسمه الإنسان من طبيعة الفهم والقيم والإدراك لتفاصيلها. ويبرز التجديد مرتبطًا بالزمن بالقدر الذي يدركه الإنسان من الحاجة لإعمال أدوات جديدة وقراءات مستحدثة لوجوده في الحياة وعلاقته مع كافة مناحيها. ويظهر جليًّا أن التجديد إفراز لإدراك الحاجة في حركة الزمن للتحوُّل والتبدُّل والتغيُّر للتوافق مع متطلبات المرحلة. فالزمن المجرد دون الإدراك لإفرازاته لإعمال الأدوات الفاعلة المتمثلة في الحاجة لا يفرز تجديدًا ولا يخلق حاجة للتبدُّل والتحوُّل.

ولعل من أهم الجوانب التي تعكسها نظرية داروين في التطور والارتقاء ذات الصلة بمفهوم التجديد ما تشير إليه النظرية حول مفهوم الانتقاء الطبيعي (Natural Selection)، والتي تؤكد الحاجة للتحول والتأقلم مع المتغيرات الطبيعية، وذلك لاكتساب قابليات

وملكات جديدة قادرة على الاستمرار في البيئة الجديدة للاستفادة القصوى من قدراتها وطاقاتها.

وأما ما يتعلق بمفهوم التجديد وحدوده وأقاليمه وأدواته، فذلك أمر شاسع لا تستوعبه أسطر هذه الدراسة، وإنما الحدّ الذي تطمح إليه هو قراءة في بعض ملامح التجديد للقراءة الدينية لمفهوم الإنسان في النص الديني من خلال ما تمظهر في كتابات عالِمَين جليلين لهما تجربة ثرية وطويلة الباع في هذا المضمار، وهما العلامة الفقيد الراحل السيد محمد حسين فضل الله ـ رضوان الله عليه، والعالم الكبير الدكتور عبد الهادي الفضلي. حيث انشغل الأول في تقديم قراءة علمية نفسية للإنسان المسلم الراهن وما تختلجه من إشكالات وعوائق تمنعه من بلوغ ما أراده النص من صناعة وتشكل له.

وانشغل الدكتور الفضلي ردحًا طويلًا في إعادة كتابة المناهج العلمية التي تساهم في صناعة قراءة النصّ الديني، وذلك لما شكله وعيه التجديدي من حاجة ماسة للتغلُّب على ما تخلقه الأدوات التعليمية المتمثلة في المناهج للمدارس الدينية من عوائق جسيمة في إدراكٍ أعمق وبُعْدٍ أوسع لمراد النص الديني من مفاهيم.

إن أي محاولة تجديدية لتقديم أدوات قراءة مستحدثة، أو ما يستنطق من هذه القراءات لا بدَّ أن ينتهي إلى تنوع في الرؤى وتعدد في المدارس، وهكذا تبقى الحياة متنوعة تفرز مما ينجبه التجديد المتعدد ليخلق تلك الصور الجميلة من التنوع ليتجلى في أبهى صورة في ذلك التعدد الفكري الواسع المنحدر من قراءة النص الديني.

وما تقدمه هذه الدراسة إنما هي لمحة عن مفهوم التجديد وأشكاله، ومن ثم بعض الجوانب عن مفهوم التعددية، ويليها قراءة للمنهج التجديدي لكل من العلامة فضل الله ـ رضوان الله عليه، والعلامة الفضلي.

☐ مصطلح التجديد

التجديد في اللغة: «الجِدَّةُ: نَقِيض البِلى؛ يقال: شيءٌ جديد، جدَّ الثوبُ والشيءُ يجِدُّ، بالكسر، صار جديدًا، وهو نقيض الخَلَق. وتجدَّد الشيءُ: صار جديدًا. وأَجدَّه وجَدَّده واسْتَجَدَّه أَي صيَّرَهُ جديدًا».

وما يؤصل مفهوم التجديد ما جاء عن الرسول ﷺ في حديثه: «إن الله يبعث إلى هذه الأمة على رأس كل مئة سنة من يجدد لها دينها»[1].

وأحد مفاهيم التجديد الواردة في كتب العصور الأولى يعني: الإحياء، كما أشار إلى ذلك عبد الرحمن الحاج إبراهيم في بحثه (مفهوم التجديد في الفكر الإسلامي): «الإحياء: يظهر أن تفسير التجديد هنا بمعنى إحياء ما اندرس من السنة أو (إحياء الدين) عندما تكون تحديات العصر الكبرى التي وجد المفسر فيها من النوع الذي يهدد الكيان الإسلامي في مستوى عقائده ومجتمعاته وأخلاقياته وقيمه على نحو كلي. ولعل هذا التفسير هو أول ما وردنا عن التعريف بمفهوم هذا المصطلح في كل شروح السنة الشريفة، وهو قول الزهري ؓ (التابعي

(١) تهذيب الكمال، أبي الحجاج يوسف المزّي، ج١٢/ ٤١٣.

الجليل الذي يفهم من وصفه للخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز بمجدد القرن الأول»[1].

ونجد هذا أيضًا عند ابن الأثير، إذ يقول: «فالأجدر أن يكون ذلك إلى حدوث جماعة من الأكابر المشهورين على رأس مئة سنة يجددون للناس دينهم ويحفظون مذاهبهم التي قلدوا فيها بمهتديهم وأئمتهم»[2].

وأما مفهوم مصطلح التجديد في واقع ما تمارسه القراءات المعاصرة، فيعرّفه حب الله في بحثه (مشروعية تجديد الفكر الديني) إلى أن التجديد هو: «محاولة جادة لإضفاء عناصر لم تكن موجودة من قبل على كيانٍ كان وما يزال له وجوده. بهذه الطريقة يكون هذا الكيان قد جُدِّد، سواء حصل التجديد في حذف بعض عناصر الكيان السابق أم في إضافة عناصر أخرى جديدة، أم في إعادة ترتيب العناصر أنفسها. وسواء كان ذلك في الشكل أم المضمون أم في المنهج الذي يحكم محل العناصر أو الوصول إليها. لكن لا يحصل التجديد بإحداث كيان جديد محل الكيان القائم القديم، فتجديد الفقه الإسلامي ـ مثلًا ـ شيء والإتيان بفقه جديد شيء آخر».

ويتضح من خلال ما جاء في مفهوم التجديد في بعده الكلاسيكي في كتب المصدر الأولى وما يزاوله المجددون المعاصرون أن التجديد لا يعني استئصال الأصل واستبداله بجديد، بل هو محاوله لاستبدال

(١) انظر: ابن حجر العسقلاني، توالي التأسيس لمعالي محمد بن إدريس، تحقيق: عبد الله القاضي، بيروت ـ دار لكتب العلمية، ط ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦، ص٤٨.

(٢) جامع الأصول، تحقيق: الأرناؤوط، ج١١/ ٣٢١.

أدوات وتحديث أخرى تعين على الكشف عن أبعادٍ غير مطروقة في النص، والعمل على الرفع بالفهم له لمستوى يلتقي وتلبية الاحتياجات المعاصرة له. فالتجديد ـ بشكل أبسط ـ هو تحديث لفهم النص وتقريب لتطبيقاته الموافقة لاحتياجات العصر.

□ أبعاد التجديد وحدوده

إن من ضرورات التجديد سعة الدراية والاطلاع على الأدوات المتاحة لقراءة النص. فالدعوة للتجديد لا يمكن أن تتخذ مسارها إلا من خلال تفحُّص قيمة وفاعلية وتأثير المتاح من التراث. فالتجديد في بعده الترميمي لأدوات القراءة أو الاستبدال يتحرك بحجم ما تستطيع هذه الأدوات من استيعاب متطلبات التحول ومقدار الضغط الذي يمارسه الواقع في استنطاق النص. والتجديد في استبدال أو تأسيس أدوات القراءة يعتمد أيضًا على حجم ما تمتلكه الحركة التجديدية من رؤية وأفق للواقع؛ لأن الرؤية التجديدية تستبطن في ذاتها حراكًا إصلاحيًّا لا نشاطًا أكاديميًّا مجردًا. والإصلاح إنما يستلزم طرفين مهمين؛ هما: (النظرة) و(الرؤية)، كما يؤكد على ذلك العارف الكبير مولانا جلال الدين الرومي.

فالنظرة تحدِّد أفق الاطلاع وحجم ما يمتلكه المجدد من شمولية في الواقع ومتطلباته. والرؤية يراد بها قدرة وصلابة ما تحمله الحركة التجديدية من كفاءات تنويرية في إماطة اللثام عن جوانب النص الكفيلة بتلبية الاحتياجات الملحة التي استلزمت التجديد بادئ ذي بدء.

إنّ نجاح منهجية التجديد تستمد ما تملكه من هذين الجانبين، وهما: الاطلاع على التراث الديني من حيث قدرته وكفاءته في تلبية احتياجات التطور والنمو الحضاري، ومن جهة أخرى ما تمتلكه الحركة التجديدية من وضوح ورسوخ في منهجها التجديدي. حيث الأول يحدّ من توغل التجديد في الدين نفسه ويحصره في فهم نصه، والآخر يحصن من الضياع والتيه في حركه تجديدية فاقدة للوجهة والأبعاد. كما يشخصه حب الله في بيان حدود وأدوات المنهج التجديدي: «أما الاستبدال الراديكالي التام للمنظومة القديمة بمنظومة جديدة، وهذا هو التجديد بالحد الأعلى، فهو تجديد في الواقع، وليس تجديدًا في المستبدل. لهذا كان من حق دعاة التجديد في الدين أن يطالبوا بتجديد لا يكون على حساب الدين وإنما له، وذلك بتجديد لا يحدث قطيعة مع الدين والتراث، وإنما تواصل واتصال بتجديد لا يعني ـ كما يقول العلامة فضل الله وآخرون ـ إسقاط القديم كله واستبداله بفكر جديد لا علاقة له به ليكون ذلك خروجًا من الإسلام ومصادر الشريعة: إلى غيره بتجديد لا يسوق إلى الاستلاب وإنما إلى الوجود والتحقيق».

□ مشروعية التجديد

إن مبررات التجديد هي التي تؤسس لمشروعيته، وقوة الحجة ووضوح الحاجة تعين على تأسيس مشروعية دون أن تواجه صدود القوى السلفية المتمسكة بالأدوات التقليدية. ولعل أهم العوامل المساعدة في بناء مشروعية التجديد هو وضوح أبعاد المشروع وتفاصيله وأدواته. فلا مشروعية في حركة تجديدية غامضة تتخبط في أهدافها

وتعاني الفقر من أدواتها. فالضرورة قد تكون دافعًا للتجربة، إلا أن المشروعية لا تتولد تلقائيًّا بهذا الشعور ومقدار الحاجة. ومن جانب آخر طول الوقوف عند هاجس المشروعية دون الإقدام عليه يفوت الفرصة على التجديد من تقديم نماذج قادرة على بناء أسس المشروعية «بقدر ما أطالب بالجواب عن سؤال المشروعية الذي طرحه عليَّ نقاد التنوير يلح الواقع بسؤال الضرورة».

ولعل من أهم معوقات التجديد هو الفضاء الذي فيه يتولد ويتحرك، فالحرية في انفتاح التجديد في مبانيه العلمية ورموزه الفاعلة على كافة التيارات المشتغلة بالشأن الديني أساس مهم في إثبات مشروعية المشروع التجديدي. وتعد حرية التعبير في فضاء يمارس التعتيم والتدليس من أهم المشاهد الحافلة في تاريخنا الإسلامي بشكل عام والشيعي بشكل خاص، كما نقل الشيخ حسن الصفار في مقاله الضافي الكثير من المشاهد المعبرة على ما عاناه المجددون من المحققين، كابن إدريس الحلي خلال رحلة تأسيس وتطور الاجتهاد الإمامي.

□ مشروعية التجديد وهاجس الهوية

من أهم الأدوات التي توظف في معركة مشروعية التجديد هو ما تشهده الساحة العلمية الثقافية الراهنة من تراشقات يدور مدارها حول «الهوية». إن عقلية المؤامرة تطغى في خطاب المعارضة للحركات التجديدية ورموزها من خلال التأكيد على خطورة هذه المشاريع على أصالة الهوية الإسلامية للأمة، واعتبار هذه المشاريع الأبواب التي من خلالها تنفذ المشاريع الاستعمارية. وبالرغم من الردح الطويل الذي

قطعه الخطاب التجديدي من التقدم والتطور على المستوى التنظيري والأكاديمي، كما يشير إلى ذلك الميلاد في بحثه (لماذا تأخرت مهمة تجديد الخطاب الإسلامي؟)، إلا أن إحالة التجديد من التنظير إلى التطبيق ما يزال يواجه العوائق والصدود، خصوصًا ما تشهده الساحة الإسلامية الراهنة من الحضور الطاغي للخط السلفي الأصولي الإحيائي الذي يؤسس وجوده على أساس مكافحة كافة المشاريع التجديدية باعتبارها خطرًا على الهوية الإسلامية في بعدها الإحيائي السلفي؛ إذ اعتبر هذا المسلك السلفي كافة المشاريع التجديدية على مستوى واحد ودمجها مع المخططات الاستعمارية للعنف في مكافحة الرموز التجديدية التي لا تنفك عن مشروع جهاد المستعمر الأجنبي.

يبقى هاجس الهوية من أهم المعوقات التي تواجه مشاريع إحالة المشروع التجديدي التنظيري لمشروع حياة. إن هاجس الخوف من الآخر القوي المتمثل في الحضارة الغربية أهم المبررات التي تشحذ الدفاع المستميت لدعاة صيانة الهوية في مواجهة البرامج التجديدية التطبيقية التي تجتهد في تقديم النصوص المتوافقة واحتياجات الإنسان المسلم الذي أضحى واقعه امتدادًا معبرًا وصارخًا للتلبس بمعطيات الحضارة الغربية. إن وهم محق الهوية الإسلامية الذي يغذي مشروع مكافحة التجديد سيبقى فاعلًا نشطًا حتى تستطيع المشاريع التجديدية تقديم نجاح يمثل اختراقًا للواقع الراهن الذي أبسط ما يعبر عنه ازدواجية هوية المسلم بين الانتماء للإسلام والممارسة لمعطيات الحضارة الراهنة.

◻ التجديد وموقعيته في بناء الإنسان المسلم الحضاري

أهم الإشكالات التي تلقي بظلالها على أي مشروع تجديدي هو أولوية التجديد لفهم النص أم تجديد عقلية الإنسان المتلقي لمنتجات التجديد؟ وبعبارة أخرى: هل إصلاح الإنسان كقاعدة أساسية في تلقي معطيات التجديد أساس يسبق أي مشروع تجديدي، أم أن الاشتغال بتحديث أدوات الفهم للنصوص هو مقدم وأساس في المشروع التجديدي، فهو التساؤل الهاجس الذي ما فتئ يطرح على أي مشروع تجديدي منذ المؤسسين الأوائل كالسيد جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده؟

إن معطيات أي حركة تجديدية تترجم في بناء الإنسان الذي يعبر عن البعد الحقيقي الذي يريده الإسلام. كما أن ترجمة الفهم الديني في مشروع إنساني حضاري يعد الغاية القصوى لكافة المشاريع التجديدية. ولا يعتبر أي إدراك مجرد للنص أو كشف أعمق لأبعاده ذا قيمة إذا لم يستطع أن يؤسس أو يوطد لنهضة إنسانية تعيد تشكيل العقلية الراكدة، وتوحد الهمم المبددة وتركز الغايات المبعثرة. وقد تأسس هذا الهاجس على سؤال شغل عقودًا من ردود الفعل المختلفة، وهو: «هل تخلف المسلمون منذ أن أساؤوا فهم الدين؟ أم أن فهمهم للدين ساء منذ أن تخلفوا؟

إن الشق الثاني من السؤال كما يبدو أكثر قربًا لأهداف هذا البحث، وأكثر ملاءمة لطبيعة الواقع الإسلامي من الشق الأول، على رغم أن الباحثين ـ على مدى العقود الماضية ـ انشغلوا بالإجابة عن الشق الأول

أكثر من الثاني. إن التلازم بين التخلف وفهم الدين يدعو إلى التساؤل حول أهمية هذه الصلة. إن أهمية هذه الصلة تتجلى عند قراءة التاريخ الإسلامي في عصره الذهبي عندما برزت الأمة الإسلامية كحضارة جديدة أنتجت بمزجها لما قبلها من الحضارات بفكرها وإنتاجها المعرفي حضارة جديدة. ما هو العامل الفاعل الذي جعل المسلم البدوي البسيط ينفتح وبكل جرأة وشجاعة وإقدام على ثقافات غاية في التعقيد والتنوع فيهضمها ويعيد إنتاجها ممزوجة بفكره الإسلامي الجديد».

إن استهداف الإنسان كأولوية قصوى في أي مشروع تجديدي يفرض شكلًا من الفعل والعمل الذي يستلزم توفير قاعدة الحد الأدنى من العقلية القادرة على التعاطي مع معطيات المشروع. وقد ذهب الكثير من المجددين الأوائل في التركيز على الحس الديني الذي يثير روح العزة والكرامة عند المسلمين لخلق حركة جماهيرية متعاطفة مع المشروع التجديدي. وبالرغم من ذلك، تبقى هذه الأدوات في حشد القوى المتعاطفة قاصرة عن المساندة حال دخول المشروع أبعاده التصحيحية المتعلقة بالمأنوسات والمألوفات عند الطبقة العريضة من الجماهير. ذلك ما أشار إليه بشكل واضح الدكتور عبد الكريم سروش في معرض تحليله للحركة الإصلاحية للسيد جمال الدين الأفغاني، إذ يقول في ذلك: «لقد أصبح أكثر قناعة وأكثر إصرارًا ـ لدى المصلحين الدينيين ـ أن الإدراك الصحيح للدين وتبليغه السليم للجماهير هو المسار الذي يعزز من حركتهم. لقد خط هذا المنهج الفكري كلٌّ من محمد عبده، وشريعتي، وإقبال الذي واجه ـ شيئًا فشيئًا ـ الصعاب والعقبات. إن الحركة السياسية وما قد يترتب عليها من نصر سياسي أكثر وضوحًا

للعيان ووقعًا على النفوس. إلا أن الحركة الفكرية لا تتمتع بذات الواقع ولا ذلك الوضوح. إن أصعب الصعاب في المجتمعات الدينية هو البيان المستند للتحقيق العلمي والدراية الدينية. ويواجه المفكرون الكثير من القيود المعيقة لحركتهم؛ لأن الإيمان القائم على التحقيق واليقين في هذه المجتمعات غاية في الصعوبة، على عكس ما يناله التدين التقليدي من اليسر والسهولة؛ لأن التحقيق بين المقلدين عقبة كؤود».

وهكذا، فإن المسار للحركة التجديدية تميل في مقاربتها للواقع من خلال ما تؤسسه من طبقة واعية مؤمنة لمعطياتها وما تحققه من نصر في هذا الجانب يمهد بمشروعيتها ويؤسس لتجذرها.

☐ التعددية، أصنافها ودورها في إذكاء التجديد

إن المشروع التجديدي لا بدَّ أن يفضي للتنوع في القراءة والفهم للدين. وقد ينتهي إلى أن يصل إلى تجربة دينية جديدة على مستوى الفرد أو الجماعة.

إن أهم المنتجات التي تصنعها الحركات التجديدية هو توسع دائرة الرأي ومدارس القراءة التي تخلق ـ بشكل طبيعي ـ فضاءً واسع الحرية في التنوع الفكري. إن أحادية الفكر ضِيقٌ في الأفق، وتَنَوُّعَه رحابةٌ تجعل من البشرية قادرة على إنتاج تلك اللوحة الفنية الفكرية الرائعة الجمال. والتنوع أو تعدد القراءة الدينية، وهي ما تعرف ـ أيضا ـ بالبلورالية الدينية (Polarism) ينتج من جانبين مهمين، كما يشير إلى ذلك الدكتور عبد الكريم سروش: «تعتمد أطروحة التعددية الدينية في الأصل على دعامتين: إحداهما التنوع في الأفهام بالنسبة للمتون الدينية.

والأخرى: التنوع في تفسيرنا للتجارب الدينية».

والتعددية الدينية قد تكون في دائرة الدين الواحد، وهذا هو الأقرب للبحث وقد يتكون في دائرة الأديان المتعدّدة. ويعتبر تنوع الفهم والإدراك للنص أحد أهم مصادر هذا التنوع. ومع تنوع أدوات القراءة واختلاف مناهجها، لا بدَّ أن تكون النتائج متباينة متنوعة. ويوضح سروش هذا الأساس الذي منه تتفرع الأفهام والإدراك للنص الديني مبرّرًا ذلك من خلال «أن النص صامت ونحن نسعى باستمرار لفهم النصوص الدينية وتفسيرها سواء في الفقه أو الحديث أو القرآن الكريم من خلال الاستعانة بمسبوقاتنا الفكرية وتوقعاتنا من النص والأسئلة التي تدور في أذهاننا في مرحلة سابقة وبما أنه لا يوجد تفسير من دون الاعتماد على التوقعات والأسئلة والفروضات المسبقة. وبما أن الفضاء المعرفي خارج الدين متغير وسيال، كما أن العلوم البشرية والفلسفة ومعطيات الحضارة الإنسانية، تزداد وتتراكم وتتغير باستمرار، فلهذا كله كانت التفاسير المترتبة على هذه الأسئلة والتوقعات والفروضات المسبقة متنوعة ومتغيرة».

وتعد مادتا هذه الدراسة سماحة الشيخ الفضلي وسماحة السيد فضل الله ﯦﯧ من أهم النماذج المعبرة عن هذين الجانبين (التجديد والتعددية). وهما يمثّلان رحلة طويلة من التجديد وما خلق هذا حولهما من مدارس متنوعة من التعدد بين الرفض والقبول. الدراسة تحاول أن تسلط الضوء على أهم الجوانب التجديدية التي اشتغلا بها وتشير إلى ما أدت إليه تجربتهما من أشكال التنوع الإيجابي.

☐ الشيخ الفضلى ومشروع تجديد مناهج الحوزة

تعد الحوزات العلمية من المعاهد العلمية الدينية عند الإمامية في تربية وإعداد العلماء الذين يضطلعون بمهمة الاجتهاد في المذهب الإمامي. وتختزن ـ بالإضافة إلى دورها التربوي ـ وبالذات الأم منها (النجف الأشرف وقم المقدسة) تجربة طويلة وثرية في تدريس العلوم العلمية الدينية ذات الصلة بالدرجة الأساس في تنمية وإعداد العلماء المجتهدين في حقل الفقه الجعفري. وإذا ما نُظِر إلى الزمن الذي قطعته الحوزة العلمية قياسًا بالتطور الذي اعترى المناهج العلمية يتجلى واضحًا للعيان حجم الجمود والرتابة التي تعاني منها هذه المناهج، وبالذات تلك المتصلة بتنمية المعارف والمهارات العلمية شديدة الصلة بفن الاجتهاد كعلم الأصول وعلوم اللغة.

☐ أهم المبررات الداعية لتجديد مناهج الحوزة العلمية

(١) **المنهج الحوزوي وأفق قراءة النص**: إن الأفق الذي على أساسه ترسو أركان المنهج التدريسي للحوزة العلمية يتأثر بشكل لا ينفك بما يحمله المجدد للمنهج الحوزوي من رؤى وأفكار وسعة في الطموح للطبيعة التي يجب أن تكون عليها مخرجات المنهج. كما أن الخطوط العريضة للمنهج العلمي التدريسي الذي تعده المراكز العلمية المتخصصة يخضع في الوقت الحاضر إلى المعايير العلمية التالية:

- المحتوى العلمي للمقرر، ومدى توافقه مع آخر المستجدات والمفاهيم العلمية للعصر.
- المهارات العلمية التي يفترض أن يتقنها الدارس بعد إنهائه للمقرر

الدراسي.

- التمارين والأساليب التدريسية التي يفترض أن يتقنها الدارس لتنمية مهاراته.
- الأساليب التدريسية (محاضرات، مناقشات، جهود ذاتية، بحث وتحليل، دراسات ميدانية) التي يستلزمها المنهج لتدريب وتعليم الطالب لبلوغ أقصى المهارات والكفاءة العلمية في الحقل المدروس.

أهداف المنهج وقدرته على استيعاب المقاصد

بالإضافة إلى الشروط السالفة في بناء أركان المنهج التدريسي، تعد أهداف المنهج وقدرته على استيعاب المقاصد التي يريد تحقيقها أمرًا حيويًّا، سواء على مستوى المرحلة العلمية أو الأهداف الغائية القصوى. إن التجديد الذي يطال المنهج الحوزوي يشترط فيه جانبين مهمين على ضوء الأهداف والمقاصد وهما:

أ. تركيب المنهج المجدد من خلال تحديد الحجم المؤثر من المحتوى القديم التراثي من المنهج الحوزوي في العمق والكم بجانب المستجد من الدراسات والبحوث العلمية ذات الصلة.

ب. توسيع الرؤية العامة للمنظرين والمربين في الدراسات الحوزوية للخروج من طموح الماضي إلى آفاق الحاضر.

إن العوامل والمؤثرات الزمنية والتاريخية التي دفعت المؤسسين للحوزة العلمية للحركة بمفهوم الاجتهاد من أفقه الواسع الذي يشمل كافة الحقول والمفاهيم التي عالجها النص السماوي إلى أفق محدود في

مجال الفقه يجب أن ينظر إليها على أنها كانت لأسباب قاهرة ولقناعات أفرزت هذا الواقع. والواقع الراهن بكل معطياته الزمكانية قادر على مغادرة هذا الضيق في المفهوم الاجتهادي إلى مفهومه الرحب. وإن بناء المنهج الحوزوي الحديث بحاجة لاعتبار هذا الهدف الذي يعيد الاجتهاد الحقيقي إلى نصابه لأنه الأداة الحضارية الفاعلة والمؤثرة في تمكين المسلمين للنهوض من كبوتهم الحضارية؛ لأن الجمود على الماضي انتحار، وشطب الماضي موت محتم، والمركب من هذا وذاك هو التجديد بعينه.

(٢) المهارات الفنية والرؤية الثقافية مركب يصنعه المنهج الدراسي:
إن التعليم الحوزوي يستهدف بناء كوادر علمية تتمتع بقدرة فنية عالية وعميقة في تحليل النص واستنباط المفاهيم والغايات التي يستبطنها. إلا أن المهارات الفنية في قراءة النص قد تصل حد الجمود والرتابة والاجترار إذا غابت الرؤى الفكرية الثقافية التي تعمل على إعطاء المجهود الاستنباطي بعده الواقعي، وحقيقته الزمكانية. إن المنهج الحوزوي المجدد يأخذ بنظر الاعتبار في بنيانه الأكاديمي البعد الثقافي للمعلومات التعليمية والفنون التدريبية، وإن الانغمار حد الغفلة عن بنيان الرؤية الثقافية المدمجة بالمهارة الفنية في المنهج الحوزوي يعد خطرًا قاتلًا.

□ تجربة الشيخ الفضلي في تجديد بعض المناهج التعليمية للحوزة

تصدى العلامة الشيخ الفضلي لمشروع تجديد المنهج الحوزوي العلمي انطلاقًا من الأسس والمعطيات التي تمت الإشارة إليها حول

المعايير والأبعاد التي يتطلع إليها المجدد في إعادة بناء وإصلاح المنهج الحوزوي كجزء من مشروع شامل لتجديد هذه المؤسسة العلمية الدينية المهمة للقيام بمهامها الحضارية على أحسن وجه. ويمكن تسليط الضوء على تجربة الشيخ الفضلي في هذا الحقل التجديدي عبر المفاهيم التالية:

١) الملامح العامة للتجربة التجديدية للشيخ الفضلي:

أفردت مجلة الكلمة في عددها ٥٥، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م ملفًّا كاملًا حول الشيخ الفضلي. ويمكن الإشارة بشكل عابر إلى جملة من الملامح التجديدية المهمة التي تناولها مقال الشيخ محمد عمير في العدد نفسه بعنوان: «قراءة في محاولات التجديد في المناهج الحوزوية: تجربتي الصدر والفضلي أنموذجًا». حيث أشار الكاتب إلى شمولية مشروع الفضلي في تجديد المنهج الحوزوي ليشمل كافة المراحل التعليمية بالإضافة إلى إدخال العلوم المستجدة في منهج الدراسات الحوزوية، كعلم الاجتماع والنفس والبحث العلمي. وتميز التجديد المنهجي للشيخ الفضلي للمقرر الدراسي الحوزوي بطبيعة التدرج في المحتوى العلمي من المقدمات وحتى المراحل المتقدمة، حيث يشير سماحته إلى استراتيجيته في بنيان المنهج الدراسي قائلًا: «أن يحتوي المنهج على عنصري: الجانب العلمي والجانب التربوي. والتربويون يذكرون أن المناهج يجب أن يتوزع فيها هذان الجانبان: العلمي والتربوي»، بما يتلاءم والمرحلة العمرية، «وذلك على النحو التالي:

- في مقررات المرحلة الابتدائية يركز المؤلف فيها على العنصر التربوي أكثر بنسبة ٧٥٪ لصالح الناحية التربوية بينما يترك ٢٥٪ لصالح الجانب العلمي.
- المرحلة المتوسطة يتوزع هذان الجانبان بينهما بحيث يكون لكل منهما ٥٠٪ من المقرر.
- وفي الثانوية يكون الجانب العلمي ٧٥٪ والجانب التربوي ٢٥٪.
- بينما المقررات الجامعية يتركز المنهج التعليمي فيها بحيث يكون الجانب العلمي فيه ١٠٠٪»[1].

«فالمطلوب من كل الدراسات في المرحلة المتوسطة والثانوية قبل الجامعة وكذلك الأمر في الحوزة في مرحلتي المقدمات والسطوح قبل البحث الخارج ـ أن تكون الغاية من المقرر الدراسي فيها تكوين الذهنية العلمية بما يتناسب والمرحلة العمرية للطالب، وما يكون الذهنية العلمية المناسبة لسنّ الطالب ليس العلم والمادة العلمية فيه، وإنما التربية والممارسة. فالمدرس يستطيع أن يعلم الطالب فقهًا وأصولًا وعلمَ رجال وعلمَ حديث، ولكن هذه العلوم ـ منفردة ـ لا تكون ـ داخل الحوزة ـ مثلًا ـ المجتهد أو الفقيه دون أن يمارس هذه العلوم أثناء الدراسة من خلال كتابة البحث ـ مثلًا، أو من خلال الأسئلة التطبيقية في كل مادة منها». وللاطلاع على الأسباب والعوامل التي دفعت الفضلي لخوض هذه التجربة التجديدية يرجع لحواره المنشور في العدد نفسه من مجلة الكلمة.

(١) حوار مع العلاّمة الفضلي حول تنظيم الدراسة الدينية، مجلة الكلمة، العدد ٥٥، السنة ١٤، ١٤٢٨هـ ـ ٢٠٠٧م.

كما تميزت هذه التجربة بجانب مهم وحيوي، وهو التأكيد المستفيض على أهمية التنمية الذاتية للدارس من خلال تحصيله العلمي في جانبين مهمين تم التأكيد عليهما عند البيان عمّا يجب أن يكون عليه تجديد المقرر الدراسي، وهما البناء الثقافي للدارس، وتنمية مهاراته الذاتية العلمية من خلال دفعه للتوسع في التحصيل والبحث خارج دائرة المقرر الدراسي. إن أهم عناصر هذه التجربة التجديدية هو الإصرار على دمج الدقة الأكاديمية وما يشترطه المنهج الأكاديمي العلمي من بنيان منهجي بالأصالة الحوزوية فيما يشترطه هذا الشكل من التحصيل العلمي من سعة في الحرية في الاطلاع على المصادر العلمية المتنوعة، ومحاوله لتشجيع الدارس في السعي للتنوع في التحصيل دون الوقوف على ما تحتويه دفتي المقرر الدراسي.

٢) العناصر الإصلاحية للتجربة التجديدية للشيخ الفضلي:

اعتمدت هذه التجربة التجديدية الرائدة في منهجها الإصلاحي العناصر الإصلاحية التالية:

أ. التجديد القادر على إبراز روح الأصالة في المنهج الدراسي، دون فقدان قدرته على التعاطي مع معطيات العصر.

ب. المازجة بين محتوى المقرر الدراسي والأهداف الإصلاحية العامة في تجديد البنية الفكرية والثقافية للدارسين.

ج. الدمج السلس والمرن بين الأدوات التعليمية الحديثة في المؤسسات الأكاديمية وبعض الجوانب التعليمية الحرة التي تعتمدها الدراسة في الحوزة العلمية.

٣) الآثار العلمية لتجربة الفضلي على المهارات العلمية والفنية للدارسين:

لم نتمكن من العثور على دراسات علمية موثقة أو بحوث ترصد الآثار العلمية والانعكاسات الأكاديمية لتجربة الفضلي التجديدية على الدارسين من الذين خاضوا التجربة التعليمية بالاستفادة من هذه المناهج العلمية مما يؤكد على أهمية تتبع هذه التجربة من خلال رصد آثارها العلمية وانعكاساتها الأكاديمية على مخرجاتها. ولكن من العلامات المؤكدة لنجاح هذه التجربة هو ما تلاقيه مؤلفات الشيخ الفضلي من الإقبال الواسع من قبل المؤسسات العلمية الأهلية ودور النشر والمراكز التعليمية الدينية. إن هذا الإقبال يؤكد على إجماع التربويين والمربين على قيمتها التعليمية وتحقيقها لأهداف المؤسسات العلمية التي تتبنى البرامج المجددة.

☐ السيد فضل الله والمشروع التجديدي للشخصية الإسلامية

منذ الحملة الفرنسية على مصر ١٧٩٨م، التي أدت إلى إطلاق الشرارة الأولى للنهضة العربية المعاصرة، والمشاريع التجديدية تتوالى في رسم ملامح المجتمع العربي الإسلامي الجديد الذي ينهض من ركام تخلفه، ويغادر عثرته من خلال تشخيص وتحليل أسباب التخلف، انطلاقًا للنهوض ومبادرة للاستشفاء من هذا الداء العضال الذي أركع الأمة بعد شموخها. إلا أن المشاريع التجديدية لم تفضِ لنتائج ثورية، بل إن مشروع النهضة وجد نفسه أمام مسيرة أطول وصعاب أعقد مما قطع به الماضي، حيث ركام تخلف الماضي وآثار الحاضر التي خلفها

الاستعمار الجديد في عالمنا. فبين مشاريع التغريب التي ارتأى المفكرون الجدد فيها الخلاص من ربقة التخلف وبصيص الأمل في أحضان المنتج الغربي (فكرة وتقنية)، ومشاريع التأصيل التي وجدت الخلاص في مشروع إحيائي، يعيد الأمة بسلفها الصالح وثقافتها الإسلامية الأصيلة النقية، تقاسمت القيادة على دفة النهضة الحديثة. ومع ذلك مازال الضياع أكثر شهودًا من الخلاص، لاسيما في ظل هذا النشوز الذي يخدش صورة الإسلام وروح المسلم، ومعه التعصب المرتسم في هذه الأصولية السلفية الجهادية القاسية الخشنة التي تُشَرْعِنُ القتل وتؤسس للدمار والتخلف.

ويعتبر السيد فضل الله من الخطوط المتقدمة خلال العقود الأربعة الأخيرة من هذا العصر، حيث حمل مسؤولية المثقف الفقيه لنقل الفكر من بيت الفتوى إلى ساحة الإصلاح والتجديد، مساهمًا في هذه المسيرة من النهضة، ومشاركًا في تلمُّس مكامن الخطأ، وتحديد دروب الخروج لشفاء الأمة من تخلفها. وقد انتهج السيد فضل الله مشروعًا مبتكرًا وزاوية قد تجعل الاقتراب من تشخيص مشكلة التخلف للمسلم اليوم إضافة نوعية للمشروع الفكري التجديدي الذي يخوضه المفكر المسلم اليوم. وقد اختط السيد فضل الله في قراءة الشخصية الإسلامية منهجًا أبستمولوجيًّا يستند إلى أدوات التحليل النفسي في تشخيص الانفعالات النفسية التي تفرز مظاهر التخلف. وقد تم توظيف المنهج الأبستمولوجي لتشخيص البنية التحتية التي يتأسس عليها التخلف في كثير من المناهج التجديدية للمفكرين العرب. حيث استند المفكر البحريني محمد جابر الأنصاري على قراءة العقل العربي في مشروعه

التجديدي، وذهب المفكر المغربي محمد عابد الجابري لتأصيل التجديد من خلال قراءة التراث الديني الإسلامي وأبعاده المؤثرة في البنية الفكرية الإسلامية.

ويمكن توصيف ملامح المشروع النفسي للسيد فضل الله من خلال المفاهيم التالية:

١. المنهج النفسي التحليلي لقراءة مكامن الخلل في الشخصية الإسلامية.
٢. الاستشفاء من التخلف عبر إعادة التأهيل النفسي.

١) المنهج النفسي التحليلي لقراءة مكامن الخلل في الشخصية الإسلامية:

عبر رحلة طويلة من التأليف والمشاركات الفاعلة في المشاريع الثقافية، ترك السيد فضل الله تجربة ثرية وزاخرة بمشروعه التجديدي المستند إلى القراءة التحليلية لنفسية الشخصية الإسلامية الراهنة. جاءت إما متفرقة على هيئة مقالات وحوارات مجتمعة في كتب مهمة، منها: موسوعته التفسيرية من وحي القران. مع الحكمة في خط الإسلام. قضايانا على ضوء الإسلام. خطوات على طريق الإسلام. المدنس والمقدس. للإنسان والحياة. الإسلام ومنطق القوة. أو من خلال محاضراته المهمة في هذا الجانب، ومنها: بين حرية الفكر وهيمنة التعصب. حرية التفكير تبني ثقافة فاعلة في مواجهة التحديات. الشخصية الإسلامية. وقد استندت قراءة السيد فضل الله إلى تحديد أهم سلوكيات الشخصية الإسلامية المعبرة عن حالة الإحباط والمفرزة

لثقافة التخلف والتراجع.

ثلاثة أنماط من السلوك المتضخم في الشخصية الإسلامية:

ففي بحثه المهم (الشخصية الإسلامية)، الذي شارك به في المؤتمر الثاني عشر لرابطة الشباب المسلم في لندن في ٢/ ٤/ ١٩٧٨، سلط الضوء على ثلاثة أنماط من السلوك المتضخم في الشخصية الإسلامية: (أ) الروح الباكية (ب) الروح الانفعالية (ت) الروح الخائفة المنبهرة بالواقع المنحرف.

أ- الروح الباكية: يقدم السيد فضل الله قراءة نفسية متأنية معللة بالأسباب التي تؤدي إلى استشراء هذه المظاهر السلبية في الشخصية الإسلامية. وفي معرض وصفه للروح الباكية يقول: «إننا نلاحظ ونشعر بأن الروح الباكية هي التي تسيطر على مشاعرنا وتهيمن على أساليبنا وكلماتنا. فنحن نبكي حين نتطلع إلى المستقبل بعينين مغرورقتين بالدموع. ونبكي أمام قوة عوامل الانحراف المتدفقة في الطريق، ونبكي من خلال السلبيات التي تواجه العاملين في جهادهم، ونبكي في محاولتنا للمقارنة بين الماضي والحاضر.

وهكذا رأينا في أدبنا، أدب الشعر والنثر. وقد نلاحظ في بعض مجتمعاتنا الدينية أن الصورة المأساوية هي التي تتجسد في وعيهم ووجدانهم عندما تثار قضايا التضحيات التي يقدمها الأنبياء والأئمة والأولياء في سبيل رسالتهم».

ويحدد ـ في تحليله النفسي ـ أن الآلة التي تواجه بها الحياة وتتصارع مع تحدياتها هي العاطفة الجياشة المنفعلة التي توظف أداة الحزن والكآبة

في مواجهة الواقع. فيما الحزن يغلب العقل والإرادة والحكمة والتوكل ويلف الإنسان بستار من الضبابية التي تمنعه من قراءة الواقع ومراجعة التجربة للتعرف على أدوات النجاح والفشل فيها، حيث يشير بوضوح إلى أن الخلل في طغيان هذا السلوك العاطفي السلبي، وأن «ما نريده هو التأكيد على أن البكاء ليس شأن العاملين الذين يفهمون الحياة ويواجهونها من موقع الواقع، فيندفعون إلى قضاياهم بهدوء وجدية وتخطيط، فإذا انتهت أعمالهم بالنتائج الطيبة المنتظرة على أساس الخطة الموضوعة، واجهوا النجاح بروح واقعية تتلمس أسباب النجاح، فيستفيدون منها في تحركهم نحو المستقبل، وإذا انتهت أعمالهم بالفشل، لم يهزمهم الفشل ولم تصرعهم صدمة الواقع، بل وقفوا يتقبلونها بهدوء باعتباره شيئًا طبيعيًا اقتضته سنة الحياة عندما يفقد العمل بعض عناصره أو تبرز للساحة بعض الأوضاع غير المنتظرة ،ثم يبدؤون في دراسة الأسباب الطبيعية للفشل ليتفادوها في المستقبل».

ب- الروح الانفعالية: يصف السيد فضل الله الانفعالية الطاغية في الشخصية الإسلامية، ويشير إلى أن المسلم «يملك رصيدًا كبيرًا من الإيمان والمعرفة بعقيدة الإسلام وشريعته، ولكنه يخضع للأجواء الانفعالية الضاغطة التي تغرقه في الحماسة المجنونة في أغلب الحالات».

ويضيف بأن على المسلم «أن يرفض أن يكون الانفعال كل رصيده في مواجهة الواقع. إذ عليه ألا ينطلق في الحياة كأساس وحيد للتحرك دون روح عقلانية تدرس الواقع في ظروفه الموضوعية المحيطة به».

ت- الروح الخائفة المنبهرة بالواقع المنحرف: وهي الروح التي يريد

بها: «الشعور بالتضاؤل أمام الحضارة الأوروبية أو القوى الغاشمة التي تقف ضد الإسلام، وقد تحول هذا الانبهار إلى شعور بالخوف». ويؤسس السيد فضل الله هذا التحليل على ظاهرة الجهل التي تفرز هذا الخوف، حيث الجهل بالعناصر والأسباب التي أفرزت هذه القوة وخلقت هذه السطوة. فالجهل يفرز الانبهار، وعلى أساس هذا وذاك يتأسس الخوف من هذه القوة الطاغية الغاشمة.

٢) الاستشفاء من التخلف عبر إعادة التأهيل النفسي:

ما هي البنية التي تأسست عليها الشخصية الإسلامية التي تزاول الحزن والبكاء أو الخوف والانبهار أو الانفعال، وما هي العناصر النفسية التي تغذي هذا الشكل من السلوك؟، يشخص فضل الله المسببات المرضية النفسية من خلال بيان ما يفترض أن تكون عليه الشخصية الإسلامية:

- **أولًا**: الإيمان بالله وصلته بتكوين الشخصية الإسلامية.
- **ثانيًا**: دور الحكمة في تحديد مكونات الوعي بالواقع والذات.

أولا: الإيمان بالله وصلته بتكوين الشخصية الإسلامية:

تعد التربية الإيمانية أحد أهم المكونات الإسلامية التي تساهم في صناعة الشخصية الإسلامية الواعدة. إن ما حدده السيد فضل الله من المعوقات السلوكية التي تمنع الشخصية الإسلامية للتعبير عن وجودها الفاعل في الحياة هو طبيعة الثقافة الفكرية والسلوك التربوي الذي ألفته الشخصية الإسلامية الراهنة والتي يمكن تلخيص أهم ملامحها السلبية

في التالي:

أ. المنهج التعليمي الديني القائم على أساس التلقين المقدس الذي يحظر العقل من التحليل والنقد.

ب. استفحال ظاهرة التعليم الفقهي الذي يسيج الحركة الإيمانية للشخصية الإسلامية بإطار شرعي فقهي جاف يمنع أو يعرقل تحضير الشخصية للولوج لعالم التجربة الدينية من خلال أدوات العرفان والسلوك.

ج. التربية الدينية المفتقرة لبنية إيمانية قادرة على مواجهة الواقع بكل تداعياته وأبعاده وتفاصيله.

ويؤسس السيد فضل الله على أساس ما تمت الإشارة إليه فيما يفترض أن تكون عليه طبيعة الشخصية الإسلامية المتفاعلة مع محيطها، بحيث «لا يعود الإيمان مجرد خلجات في المشاعر وخطرات في الأفكار، بل ينطلق ليكون موقفًا متحركًا في اتجاهين: اتجاه بين النفس على الأسس الروحية الأخلاقية الصحية، لتكون مثالًا للشخصية الإسلامية الصابرة على تحديات نوازعها الذاتية الغريزية في أوضاعها المنحرفة، واتجاه يطلق الشخصية في مواجهة الشخصيات غير الإسلامية في أجواء الصراع الفكري الذي يثير الشبهات ويخلق الانحرافات».

ويرسم فضل الله بعدًا آخر من أبعاد صناعة الشخصية الإسلامية من خلال توسيع مفهوم البر والإحسان ودورهما في تعميق هذه الشخصية، ذلك «أن في الفكر خيرًا وشرًا، تمامًا كما هو العمل خير وشر. بل ربما كان الأساس في البر العملي هو البر الفكري والعقيدي؛

لأنه هو الذي يعطي العمل دافعه ونوازعه وهو الذي يحدد مضمونه وطبيعته، ولهذا انطلق القرآن ليحدِّد للإنسان شخصيته من خلال تجديد ملامحه الفكرية والعلمية، فلم يكتف بالعمل وحده في مجال التقييم بعيدًا عن الإيمان، كما لم يكتف بالإيمان بعيدًا عن العمل. فبالإيمان والعمل تتكامل الشخصية وتنطلق».

وتتلخص هذه التجربة التجديدية في معالجة المعوقات النفسية للشخصية الإسلامية في أحد جوانبها، وهو العودة إلى مكونات الإيمان اللازم للشخصية الإسلامية. والأدوات التي تؤسس ذلك وحجر الزاوية هو البناء السليم للشخصية الإسلامية الذي لا يتأتى بمعزل عن دفعها لمعترك الحياة، فهي البوتقة التي يصهر فيها الإيمان ويتشكل.

ثانيًا: دور الحكمة في تحديد مكونات الوعي بالواقع والذات:

إن الحكمة والوعي هما المعتمد الأساس في بناء الشخصية الإسلامية لإخراجها مما تعاني من التخلف والتراجع. الحكمة هي انعكاس لتبلور ركام التجربة لتتولد إرادة مجسدة تقود وتحرك الشخصية الواثقة. ولذلك يتحرك السيد فضل الله في تجديد هذا المفهوم في بعد يتعدى الوصف العام والتصوير الفلسفي له. إن حجر الزاوية في مشروعه التجديدي هو رسم ملامح الحكمة في بعدها التطبيقي بعد استيفاء معانيها وتفاصيلها العلمية. ويستلهم مشروعه هذا من خلال قراءته المتأنية لخطاب الوحي ولسان المصطفى وتجربة الرسالة في بعدها التطبيقي والقراءة المتفحصة لبيئة الأزمة والتخلف التي تفرز الراهن من أحوال الأمة. ولذلك نراه يخرج التفاصيل في وصف جامع بين

المعنى الثقافي الفلسفي للحكمة والمعنى الحركي التطبيقي لها. ففي معرض بحثه الذي يؤسس من خلاله طرفي معادلة الحكمة النظرية والحركية بعنوان (دور الحكمة في القرآن الكريم)، يلقي الضوء على عدة أساسيات مهمة، منها:

أ. معنى الحكمة في اللغة والخطاب القرآني.

ب. المقاربة بين دعوة الوحي للحكمة وتطبيقاتها المرجوّة.

ج. دواعي المشروع القرآني في الحث المستفيض على الحكمة.

يبدأ بحثه في اللغة، فيشير إلى أنه «في تاج العروس: العلم بحقائق الأشياء والعمل بمقتضاها، ولهذا انقسمت إلى علمية وعملية، ويقال: هي هيئة القوة العقلية العلمية، وهذه هي الحكمة الإلهية». وفي مقاربته بين الحكمة النظرية وتأثيرها على السلوك، يقول: «وقد يظهر من بعض الآيات أن الحكمة هي تعبير عن حالة الوعي الذاتية الكامنة داخل الإنسان التي تتيح له الرؤية الواضحة للأشياء، فتدفعه إلى التصرف السليم والرأي السديد وهذا ما نتمثله في قصة لقمان الذي لم يكن من الأنبياء في أغلب الظن، بل كان إنسانًا سديد الرأي، ثاقب النظرة، صالح العمل فيما ينقله لنا القصص الديني، يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾[1]. وقد يلوح لنا أن ذلك هو معنى الحكمة، بل المراد بها هو نفس المعنى الذي استوحيناه من الآيات السابقة، وهو

(١) سورة لقمان، الآية: ١٢.

المضمون الفكري الذي يتحرك في العقل، فيحقق النظرة الصائبة إلى الأمور، ويتحرك في الواقع، فيحقق الموقف العلمي الصحيح. ومن الطبيعي أن مثل هذا المضمون يحقق للشخص الأفق الواسع والجو الهادئ الذي يوحي له بالمواجهة الواقعية للأشياء».

وقد لا يكون ما أشار إليه في أهمية التلاحم بين الحكمة النظرية وبُعدها الحركي من طرح جديد، ولكن تكمن القيمة فيما يؤكده السيد فضل الله من خلال استحضار مفهوم الحكمة في مصطلح العقل في الكثير من قراءاته وهو يقدم النماذج تلو النماذج من الأزمات التي لم تكن إلا نتيجة استفحال الغيبوبة التامة عن العقل أو سلطة العقل الأجوف المعزول عن مصادر الإيمان التي تغذيه بتفاصيل الثبات ورؤية تشق ظلم الجهل والنقص. إن المعيار الذي يستند إليه هو أن العقل الحكيم لا يتأتى إلا من خلال الإيمان الواعي الذي تمت الإشارة إليه في الفقرة السابقة. فالعقلنة لحركة الإنسان حركة متبادلة بين الإيمان والحراك في الحياة، فكلٌّ يغذي الآخر، كما أشار إلى ذلك في بحثه (عقلنة الحياة)، إذ يقول هناك: «إن علينا أن نعقلن وعينا للدين وتصورنا له من خلال الفهم العقلاني الثقافي المتوازن الذي يجعلنا نفهم الدين بجذوره العقلية والفكرية. نحن لا نعتبر الإيمان فوق العقل كما يعتبره بعض أتباع الديانات، بل إن العقل هو الذي ينتج الإيمان. ولا عمق لإيمان لا يرتكز على العقل».

ويقرأ فضل الله أسباب الأزمة التي تعيشها الأمة التي تفرزها النماذج السلوكية التي تمت الإشارة إليها سابقًا، فهي جذور هذا العنف والأصولية العمياء وهذا التعصب والفوضى في التراشق بين فئات الأمة

في النيل من دينها. وللاستشفاء من هذا، لا بدّ من إعادة بناء الإيمان في بعده العقلي وتعزيز الحكمة الحركية التي تتغذى من الإيمان وتغذيه. وقد نظّر وأسس في محاولة تجديدية مضنية فيما لا يحصر من المقالات والأنشطة، وقد كان هو ﷺ ضحية التعصب والتزمت الأعمى الذي كافح ونافح من أجل علاجه بالحكمة والموعظة الحسنة دون أن يتنازل عن مشروع دعوة الأمة للاستشفاء بالحكمة النظرية والحركية. ولمزيد من القراءة حول هذا الجانب يرجع لقراءة: (بين هيمنة التعصب وحرية الفكر)، وكذلك: (الموضوعية في خط الشخصية الإسلامية).

☐ مشروع الفضلي وفضل الله التجديدي أفاق للتعدد والتنوع

إن الأزمة الحضارية التي تعيشها الأمة في حاضرها ليست وليدة هيمنة وسيطرة الأجنبي على الأمة فحسب، بل لعل ما تفرزه عقلية وسلوك الشخصية الإسلامية من أزمات ومظاهر تخلف تمثل الجزء الأكبر من مكونات هذه الأزمة. والحركة التجديدية التي خاضها كل من العلامة الفضلي والعلامة السيد فضل الله ﷺ تنظر في توفير العلاج من خلال خلق عناصر المكافحة للمعوقات الفاعلة في طرفي معادلة التجديد الشخصية الإسلامية التي تتحمل أعباء التجديد الحضاري للأمة. إن أحد طرفي هذه المعادلة يكمن في المُصلِح التربويّ الذي يؤسس لمعايير وقيم التجربة الإيمانية الأشمل من معايير التفكير الجامد، بل المنفتح على الدين في آفاقه الأخلاقية والفلسفية والعرفانية. والطرف الآخر منها هو الفضاء الذي يؤهل للشخصية الإسلامية الراهنة القلقة، وذلك للإقبال على هذا التربوي المجدد الباني لها. لقد تمثلت تجربة

الشيخ الفضلي في تجديد المنهج العلمي الذي يضطلع في تأهيل وبناء التربوي في المؤسسات العلمية الدينية. ذلك أن العبور من الجامد الراكد في التعليم الديني إلى التعليم الديني التنويري إنما يكون من خلال تأسيس رؤى ومعايير تربوية تحقق جانبين مهمين في مخرجات المدرسة المجدِّدة، وهما: العلمية المتخصصة العميقة المتجذرة في التراث والنص، والنظرة المسلحة بالدراية والإدارة للواقع الحضاري الراهن. وقد تأسست تجربة الفضلي على هذين المنظورين في إعادة النظر في المناهج التعليمية للمؤسسة العلمية الدينية. وقد تحمل السيد فضل الله أعباء وبناء الشخصية الإسلامية المؤهلة للتعاطي مع خطاب التربوي المجدد. فالحركة التجديدية بين الفضلي وفضل الله قد تأخذ شكل الدائرة الحميدة من تربوي يؤسس الشخصية المطلوبة، والأخيرة تغذي الشخصية وتربيها على ما تطلعت إليه تجربة فضل الله التجديدية وتساهم الأطراف الأخيرة بردف المؤسسة من جهة والمجتمع في حركة انسيابية من الحراك والتفاعل والتجديد. إن بناء الشخصية الإسلامية المستندة إلى الإيمان المعقلن وسيادة روح الحكمة والتجربة الحكيمة من حراك الأمة الحضاري لا شك سيفضي إلى اتساع الآفاق وتسلح الرؤى بمعايير تمكنها من تقديم قراءات ومفاهيم متنوعة عن نظرتها لدور الدين في الحياة وسيساهم أيضا في تغذية تجربتها الدينية.

إن التنوع الديني في الفهم والممارسة طبيعي في مجتمع الحكمة والإيمان المعقلن وظاهرة صحية تفضي إلى سقوط احتكار الفهم وممارسة التجربة للدين. إن التنوع المنشود في هذه الصور لا يعني الفوضى الدينية، بل الجانب المشرق من هذا التعدد هو ارتقاء القدرة

والقابلية للشخصية الإسلامية في التعاطي مع قضاياها ومفاهيمها الدينية على أساس الحكمة التي تحصنها من الوقوع فريسة التزمت وطعمًا سهلًا للمرتزقين بالدين والمعتاشين عليه. «إن التجارب الدينية متنوعة ومتعددة بعدد أفراد البشر، وكل إنسان يملك فيها بعدًا خاصًّا عن الله تعالى. وبعبارة عرفانية: إن الله تعالى يتجلى لكل إنسان بنحو من الأنحاء، وكل هذه التجليات محترمة ومقدسة، والدين الإلهي يقرر صحة كل هذه التجليات بأجمعها».

☐ المراجع

١. ابن منظور، لسان العرب.

٢. الحاج إبراهيم: عبد الرحمن، مفهوم التجديد في الفكر الإسلامي (www.islamweb.net).

٣. حب الله: حيدر، مشروعية تجديد الفكر الديني، مدارك، إسلام أون لاين.

٤. سروش: عبد الكريم، سيد جمال وإحياء إسلام في مدارا ومديريت، ط٢، مؤسسة فرهنكي صراط، ١٣٨٥هـ. ش.

٥. ـــــــــ، الصراطات المستقيمة، ترجمة: أحمد القبانجي، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت، ٢٠٠٩م.

٦. الشيخ: حسين منصور، حوار مع العلامة الدكتور عبد الهادي الفضلي، مجلة الكلمة، العدد ٥٥، ١٤٢٨هـ-٢٠٠٧م.

٧. الصفار: حسن موسى، الاجتهاد والتجديد في الفقه الإسلامي، مجلة الاجتهاد والتجديد، العدد ١، ١٤٢٦هـ-٢٠٠٦م.
٨. عمير: محمد، قراءة في محاولات التجديد في المناهج الحوزوية: تجربتي الصدر والفضلي أنموذجًا، مجلة الكلمة، العدد ٥٥، ١٤٢٨هـ-٢٠٠٧م.
٩. فضل الله: السيد محمد حسين، الشخصية الإسلامية، موقع بيّنات (www.bayynat.org.lb).
١٠. فضل الله، السيد محمد حسين: من وحي القرآن، موقع بيّنات (www.bayynat.org.lb).
١١. ــــــــــ دور الحكمة في القرآن الكريم، موقع بيّنات الإلكتروني.
١٢. ــــــــــ، عقلنة الحياة، موقع بيّنات الإلكتروني.
١٣. اللويمي: أحمد محمد، التحوّلات الفكرية والاجتماعية في الأحساء، جواثا للنشر، ٢٠٠٩م.
١٤. محفوظ، محمد: العلامة الفضلي وأفق الإصلاح، مجلة الكلمة، العدد ٥٥، ١٤٢٨هـ-٢٠٠٧م.
١٥. الميلاد: زكي، لماذا تأخرت مهمّة تجديد الخطاب الإسلامي، موقع العلم والدين.

المداخلات

□ **مداخلة الأستاذ حسن بن مبارك الربيح**

بدايةً، لا بدَّ من الإشادة بالمحتوى العلمي للمحاضرة القائم على التحليل والنظرة العميقة في تقصي الشواهد وربطها بالعناوين العامة للمحاضرة، ولا بدَّ أيضًا من تقدير ذلك الجهد الكبير الذي بذله الكاتب في تسليط الضوء على تجربة شخصيتين لهما باع طويل في مسألة التجديد. وإذا كان محاضرنا ممن يواصل طريقه الأكاديمي بشكل عملي، فهو في غنى عن أن نطيل في مديحه، فهو إذن ينتظر منا حوارًا ونقدًا. وسأضع تعقيباتي على المحاضرة في ثلاث نقاط:

الأولى: التركيز على مفردة دون أخرى:

جاء التركيز على مفردة التجديد أكثر من مفردة التعددية، فلم تأخذ مفردة التعددية حقها من التعريف، وإن جاء ذلك ضمنًا، إلاَّ أن تحديد المصطلح ضروري ليكون الضابط الذي يحدد انطلاقة البحث. وهنا أطرح تساؤلًا: لماذا قرن الكاتب التجديد بمفردة التعددية، هل ثمة علاقة مشتركة بينهما؟

الثانية: ملاحظات على تعريف التجديد

حاول المحاضر أن يوضح تعريف التجديد حسبما عرفه حيدر حب الله، فقال: «هو محاولة لاستبدال أدوات وتحديث أخرى تعين على الكشف عن أبعاد غير مطروقة في النص، والعمل على الرفع بالفهم له لمستوى يلتقي وتلبية الاحتياجات المعاصرة له. فالتجديد بشكل أبسط هو تحديث لفهم النص وتقريب لتطبيقاته الموافقة لاحتياجات العصر».

وهو تعريف لم يشر إلى تغيير أدوات للكشف، وإنما أشار إلى كيان معيّن وعناصره. بمعنى أن التجديد يتوقف على تبديل عناصر هذا الشيء، إما بالحذف أو بإضافة عناصر جديدة لم تكن موجودة، أو بإعادة ترتيبها، ولم يكن الفهم مشارًا إليه في التعريف.

والإشكال المطروح حول تعريف حب الله هو في بدايته حينما قال: «إضفاء عناصر لم تكن موجودة من قبل على كيان كان وما يزال له وجوده»، ونحن نعرف أن العنصر مكون أساس للكيان، فكيف يسمَّى التغيير في أحد عناصر الشيء تجديدًا، وهو في نظري تغيير لأجزاء الشيء وليس إعادة الشيء إلى حالته الأولى كما نقل المحاضر في المعنى اللغوي للتجديد.

من جهة أخرى، يرى الشيخ محمد مهدي شمس الدين بأن الإسلام لا يحتاج إلى تجديد، فالإسلام هو الإسلام كما أَبْلغَنَا إياه الرسول ﷺ ومن بلغوه من بعده، والمراد بالتجديد عند شمس الدين هو: التجديد الذي له صيغة التهذيب أو التنظيف أو إخراج الدخيل، فهو صيغة قابلة للتوسع والتكيف وليس التغيير. (انظر: التجديد في

الفكر الإسلامي، الشيخ محمد مهدي شمس الدين، ص ٨، ٩).

ومن التعريفات التي تناسب المعنى اللغوي وتتماشى مع أن الدين كامل لا يحتاج إلى زيادة أو نقيصة وإنما يحتاج إلى من يعيدنا إلى نبعه الصافي تعريف العلقمي (ت ٩٦٩هـ) الذي آتي به هنا من باب التدارك على تعريف حيدر حب الله للتجديد، يقول العلقمي، هو: «إحياء ما اندرس من العمل من الكتاب والسنة والأمر بمقتضاهما». (انظر: التجديد في الفكر الإسلامي، عدنان محمد أمامة، ص ١٦).

الثالثة: التوفيق بين الجمود والتجديد:

أشار المحاضر إلى أن «الجمود على الماضي انتحار، وشطب الماضي موت محتم، والمركب من هذا وذاك التجديد بعينه». كيف يتم التوفيق بين الجمود على الماضي وشطبه بأخذ بعض الصفات منهما واعتبار ذلك تجديدًا، والتجديد ليس جمودًا وليس شطبًا للأصل؟

تساؤلات من وحي المحاضرة:

وأخيرًا، لقد تحرك في ذهني هذه الليلة من خلال عناوين المحاضرة جملة من الأسئلة سأكتفي بالتركيز على فكرة معينة لتأخذ حقها من الإشباع والتفصيل:

(١) يلاحظ فيمن يسلك طريق التجديد على مر العصور بأنهم أفراد، ألم يحن الوقت لأن ينطلق التجديد من خلال مؤسسات علمية يقوم على إدارتها علماء وفقهاء كل مختص في مجاله؟، ترى ما هي المعوقات لأن يكون التجديد مؤسساتيًا، وكيف يمكن تجاوز هذه

المعوقات؟، وهل الاستئثار بالمرجعية لفقيه ما هنا وهناك هو أحد المعوقات؟، وشكرًا للمحاضر مجددًا.

☐ مداخلة الأستاذ عبد الله رستم: التجديد عند كل من الدكتور الفضلي والسيد فضل الله

يتجلّى التجديد عند الدكتور الفضلي في عوامل كثيرة، ومنها:

(١) **اللغة**: عامل اللغة من العوامل المهمة في صياغة المفهوم الذي بدوره يوضح الأطروحات بطريقة سهلة، والدكتور الفضلي في كثير من مصنّفاته يركّز على هذا الجانب، نظرًا لتخصصه في هذا الجانب.

(٢) **التأصيل اللغوي**: كثير من المؤلفين لا يركزون على التأصيل اللغوي حينما يطرحون بعض الدراسات، والدكتور تميّز في تأصيل الكثير من المسائل ليساعده على الانطلاق نحو الأمام، ولتتضح الصورة للقارئ أكثر.

(٣) **الاحتكاك بالساحة الشعبية**: وهذه المسألة ضرورية؛ لأنها تساعد المتحدث والكاتب أن يطرح ما يريد بدون صعوبة، وتعطيه نوعًا من الشمولية في الجانب الذي يريد تسليط الضوء عليه.

(٤) **الموسوعية والشمولية**: ليس من اليسير أن يكون الإنسان موسوعيًّا؛ لأن الموسوعية تتطلب من الإنسان أن يطرح رأيه في بعض المعارف التي يطلع عليها، وإلا لا يطلق عليه موسوعي، والدكتور من الذين استثمروا أوقاتهم في قراءة القديم والجديد وطرح الرأي في نهاية المطاف، وقد يكون الإنسان شموليًّا في أطروحاته، إلا أنه يفتقد المزج

بين القديم والحديث واستخلاص الفائدة التي تناسب العصر الذي يعيشه، والدكتور من الذين مزجوا وأثمروا، سواءً في الدراسات اللغوية أو الفقهية.

(٥) استثمار المنصب: نادرًا من يستثمر منصبه في الصالح العام، فإنشاء قسم للغة العربية، وإنشاء مركز للمخطوطات وغيرها، يعتبر عملًا في غاية الإجلال، يضاف إلى ذلك أنه كتب فيما أنشأه ليكون رافدًا في هذا الجانب.

(٦) المواصلة: لا شك أن كل إنسان تقف أمامه عقبات تعيقُ مشروعه، ولكن الإصرار عليه والتماس الحاجة بعين ثاقبة مسألة ليست باليسيرة، فالدكتور واصل مشروعه الإصلاحي (إصلاح المناهج) عن طريق التأليف والتدريس، ولذا فإن تجربته في الجانب النظري والعملي تعتبر مسألةً رائدة في هذا الجانب.

(٧) مع الصحافة: كثير من ينأى بنفسه عن الكتابة الصحفية بحجج قد تكون في محلّها، إلا أن أكثر تلك الحجج لا محل لها من الإعراب، والدكتور مارس كتابة المقالات في الصحف المحلية والخارجية، وذلك ضمن مشروعه الآخر (إصلاح الفكر).

(٨) المسؤولية: يتناول الدكتور مواضيع كتبه من واقع المسؤولية، ولذا تبرز الشمولية وإيقاع الكلمة في تلك الكتابات، على خلافه ممن يكتبون من أجل أغراض أخرى.

أما التجديد عند السيد فضل الله، فإنه يتجلى في التالي:

(١) اللغة: المطّلع على تراث السيد فضل الله الثقافي والديني يجب أن يلتفت إلى اللغة المستعملة، فإنها لغة أدبية راقية، يأنس بها الإنسان، خصوصًا وأن السيد كتب الشعر في بداية سنيّ حياته، وهذا يعتبر رافدًا مهمًّا في هذا الجانب، وحتى حديثه مع الآخر، تراه يمتاز بلغة راقية محببة إلى النفوس.

(٢) محور الأطروحات: تتمركز أطروحة السيد فضل الله في تأصيل ومعالجة الإسلام الحركي وما يتبعه من دعوة وتبليغ وحوار. وهذا ما أعطاه أريحية في أطروحاته وأسلوبًا تجديديًا باعثًا في النفس والاعتزاز بالانتماء، وكذا ساعد الآخر في قراءة كتبه. وبإطلالة سريعة على كلماته وكتبه وحتى شعره، نرى ذلك جليًّا في تلك المصنّفات.

(٣) الجرأة: يتميز السيد بجرأة في تصحيح المفاهيم الإسلامية، ولعل كتابيه: (قضايانا على ضوء الإسلام) و(خطوات على طريق الإسلام) يعتبران نموذجًا في معالجة تلك القضايا بجرأة المتحدث، وإنصاف الباحث، يصحبهما في ذلك لغة المعاصرة.

هذا ما أحببتُ المشاركة به، ذلك أن الحديث يطول في هذا الجانب. علمًا أنه حتى الآن لم يتطرق إلى دراسة الدكتور الفضلي دراسة منهجية، سوى أطروحة (حسين بن منصور الشيخ) الذي تطرق إلى مسألة واحدة ولم يشبعها وهي مسألة (التجديد في المناهج الدينية)، فيشكر على ذلك. وتقبلوا تحياتي.

□ مداخلة الأستاذ حسين بن علي البوصالح

هذه نظرة عجلى حول محاضرة الدكتور اللويمي تحت عنوان: «التجديد والتعددية»، وهي ذات شقين:

الأول: المزايا ـ إن صح التعبير، وتتمثل في الآتي:

١) اختيار هذا الموضوع كان اختيارًا يساير الحراك الثقافي المعاصر، وقد كان موفقًا إلى حد مّا.

٢) اختيار هذين العلمين الفاضلين، وهما العلامة الفضلي ـ مد الله في عمره الشريف، وألبسه ثوب الصحة ـ والمرجع الديني فضل الله ـ تغمده الله بواسع رحمته ـ اللذين يمثلان حراكًا ثقافيًا في الوسط الخاص والعام، وهو اختيارٌ موفقٌ.

٣) توزيع المحاضرة على بعض المستفيدين قبل موعدها نقطة تسترعي الانتباه، ويشكر المحاضر عليها.

٤) الأسلوب الشيّق في الطرح زاد من قيمة المحاضرة.

الثاني: ملحوظات عامة أود إتحافكم بها، وهي:

١) اختيار هذا الموضوع، وإن كان موفقًا كما أشرت إليه، إلا أنه سابق لأوانه؛ بمعنى: إننا بحاجة إلى معرفة هذين العلمين أكثر فأكثر، ثم الوقوف على مثل هذه الدراسة التي أفرزتها المحاضرة؛ لأنها تشكل نهاية ما انتهيا إليه.

٢) كثرة الأخطاء الإملائية والنحوية أمر يجب تلافيه، وخلو المحاضرة منه، وألا ينشر إلا بعد التصحيح والتنقيح.

٣) التعريف ببعض المصطلحات الحديثة، مثل: الراديكالي،

أبستمولوجي.

٤) الاستفادة من وسائل العرض الحديثة التي تسهل إيصال المعلومة للمتلقي.

٥) ذكر بعض الأعلام من المهتمين بالجانب المعرفي، إذ ينبغي أن ينطلق عالم الدين من حيث انتهى إليه الآخرون إكمالًا للمسيرة، لا أن يبدأ خطًّا ينفرد به؛ لأن ذلك يحتاج إلى وقت قد لا يسمح به عمر الإنسان الاعتيادي.

وبعدُ، أتوجه من الأعماق إلى الدكتور اللويمي بالثناء العاطر، والشكر الجزيل على محاضرته الرائعة والهادفة، كما أقدر له خلقه الكريم، وتواضعه الجمّ. وأسأل الله له التوفيق والمزيد من التألق.

☐ مداخلة الأستاذ جابر بن عبدالله الخلف

في البداية، نشكر الدكتور أحمد اللويمي على تلبيته الدعوة، كما نجدد الشكر له على خطوته الإيجابية بإرسال نسخة المحاضرة لقراءتها قراءة نقدية من قبل المشاركين دون تحرّجٍ أو تأثم، وهذه خطوة إيجابية هي خير تعبير عن الثقة والاحترام.

وتعقيبي على المحاضرة هو، في إيجاز، كالآتي:

١) عرّف المحاضر التجديد لغة واصطلاحًا، ولم يعرف بالتعددية، وهذا خلل منهجي في بناء المحاضرة من الناحية الفنية. وكان تعريفه للتجديد موجزًا إيجازًا مخلًّا، ولم يوفِ المفهومين حقّهما من حيث التعريف بهما لغة واصطلاحًا، ولا من خلال نظرة السيد

فضل الله ﷺ والشيخ الفضلي ـ حفظه الله لهما.

٢) احتشاد المحاضرة والمحاضر بسبب تناول عنوانين كبيرين هما مفهوما (التجديد والتعددية) وعرّض جهود عَلَمين كبيرين فيهما، هما (السيد فضل الله والشيخ الفضلي)، فكان على المحاضر أن يطرح مفهوم التجديد وجهود السيد فضل الله والشيخ الفضلي حوله، ثم تناول مفهوم التعددية ونظرة السيد فضل الله والشيخ الفضلي لهذا المفهوم وجهودهما العلمية والفكرية، ولكن هذا لم يحصل لضيق الوقت، وترامي أطراف المحاضرة. أو ربما كما قال أحد الصوفيين: «إذا اتسعت الرؤية، ضاقت العبارة».

٣) تناول المحاضر عناوين عدة، منها أثر الفهم المذهبي في تفسير النصوص، وربما تكون هذه مشكلة فكرية في تفسير النص الديني خصوصًا.

٤) كما يحسب للمحاضر مشاركته في نقد بعض الركام الفكري من خلال نقولاته وتنقلاته في المحاضرة، ولا شك بأنه ساهم في زيادة التجربة الفكرية والتراكم المعرفي حول مفهومي التجديد والتعددية.

٥) أكد المحاضر أكثر مرة، وأكد في دعوته على أهمية النقاش والحوار فيما يطرح، وليس الاستماع فقط، وهذا يلتقي مع مشاركته الإيجابية في إرسال (نص المحاضرة) للقراءة النقدية، قبل إلقائها.

٦) أوضح الدكتور اللويمي موقفه النقدي لمفهوم (السلفية) بالمعنى المنهجي، وليس بالمعنى المذهبي، وهذا يعني بأن (السلفية) طريقة في تناول الأفكار والأديان والنصوص، وليست علامة مذهبية على

أحد. وهو بهذا المعنى ينقد المنهج، وليس المفردات.

شكرًا للمحاضر الدكتور أحمد اللويمي على جهوده، وقد أشاد مشكورًا بالمستوى النقدي الذي لاحظه من قبل المشاركين والمداخلين ممن قرأوا المحاضرة، أو ممن لم يقرأها.

☐ مداخلة الأستاذ باقر بن عبد الوهاب الرستم

مشاركتي هذه تختلف عن سابقاتها، كونها ليست توليدًا لرؤية أو لمفهومٍ، وإنما هي قراءة في رؤية، أو قل هي قراءةٌ في قراءة.

مقدمة في وظيفة المداخلة:

طبيعة المداخلة التي هي صيغة «مفاعلة» للمطاوعة والمشاركة، أي تعدد أطرافها. وهي كصيغة مباحثة أو مناقشة. ما يعني طرح الرأي وتبادل الرأي بشأنه.

ولغويًا: «داخلت الأشياء مداخلة ودِخالًا: دخل بعضها في بعض، وداخل المكانَ: دخل فيه، وداخلَ فلانًا: دخل معه، وداخل فلانًا في أموره: شاركه فيها. و(تداخلتِ الأشياء): داخلت، وتداخلتِ الأمورُ: التبست وتشابهت. ويقال: تداخل فلانًا منه شيء: خامره»[1].

ما يعني أنها تدخل على الرأي لتغير فيه أو تمتزج به. فيما عرفها اصطلاحًا بأنها: قول الرأي فيما يقال؛ وذلك لأن طبيعتها الدخول على الرأي والتأثير فيه، أو إضاءته أو معالجتها برأيٍ آخر.

---

(١) المعجم الوسيط، مادة: دخل.

وهكذا طلب الأستاذ جابر الخلف مداخلتنا لتكون مداخلةً على محاضرة الدكتور أحمد بن محمد اللويمي، أي: قراءة نقدية لرؤى وأفكار الدكتور في محاضرته، ما يفرض أن أقدم تصورًا لمسألة النقد قبل الشروع في المداخلة..

مقدمة في النقد:

هل إن وظيفة النقد أن يكون مقدمة للوصول إلى الحقيقة، أم هو غاية في ذاته؟

إذا ما قلنا أنه غايةً في ذاته، فهذا يعني أنه سيكون مشروعًا للانتقاص وتتبع العثرات، بغض النظر عن الفكرة والمشروع والعطاء.

إن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾[1].

فإذن مشروع النقد هو تنقيته مما يُعتقد بأنه غير صالح؛ لإصلاحه وانتقاء أحسنه، لتبنيه والتزامه. وهذا ببساطة ما يمكن أن يعدَّ نقدًا.

طول المداخلة: قِيمة أم مبالغة:

يؤسفني أن جاءت مداخلتي بهذا الطول، إلا أن ما تحتضنه المحاضرة من أفكارٍ ورؤًى تدفع بالمرء إلى أن يقرأها بتمعنٍ، ويتحدث عنها كثيرًا، خاصة وأنها تناولت أكثر الملفات سخونة والتهابًا داخل البيت الشيعي بأقل كثيرًا مما تستحق.

(١) سورة الزمر، الآيتان: ١٧ – ١٨.

ولو سنحت فرصةٌ لتقديمها قراءةً، فسأختزلها نقاطًا، حتى لا أثقل على القارئ ولا على سعادة الدكتور. ولكن عندما أقدمها كملف، فإنني سأقدمها كاملة.. لتُعرف ملاحظتي فيها، ومعها منشأ تلك الملاحظة وطبيعتها.

وإن كانت العادة أن تكون المداخلة موجزة للحفاظ على حق الكاتب والمحاضر في الرأي وتوليده، إلا أن تصور الطرف المداخل حاجته كثيرًا للتفصيل قد يأخذها إلى هذا الطول، وستظل هذه المداخلة معزولة عن الرأي الأصل، ولا ضير إن قرأها سعادته، لعله يجد ما يفيد فيها، فبالنتيجة هي لن تكون ذلك الهامش الممل للمحاضرة.

عبق الشكر.. إلى الداعي والمجيب:

المقدمة الأخرى هنا هي تقديم الشكر الجزيل إلى سعادة الدكتور العزيز أحمد اللويمي، والذي هو أحد الكتاب المرموقين والعاملين في الحقل الثقافي الأحسائي، ليقهر تخصصه الذي لا يبدو أنه ذا صلة بممارسته الفكرية في الوسط الثقافي في مساهمته لإثراء قراءة العطاءات المتميزة للعلامة الفضلي، والذي هو مشروع منتدى السهلة الأدبي الدوري السنوي.

وأيضًا أوجه الشكر الخالص والجزيل إلى الأخ العزيز الأستاذ جابر الخلف الذي دعاني لمداخلة في هذه المحاضرة ذات القيمة العلمية والفكرية المتميزة.

وفي الواقع، إن الأستاذ جابر قام بعملية جمعٍ غير مقصودة منه، ساهمت في أن ألتقي بالصديق العزيز الدكتور اللويمي في محفل علمي

وعلى مستوى عالٍ من العرض والمداخلة.

أجدد التحية للجميع، وأخص بها الصديقين العزيزين، الدكتور أحمد اللويمي والأستاذ جابر.

محاضرة تعاود الذكرى:

هذه الندوة أو المحاضرة تعيد بي الذكرى إلى ما قبل سنتين أو ثلاث تقريبًا عندما وجه الأستاذ جابر الدعوة لي لمحاضرة عن الدكتور الفضلي ـ حفظه الله وعافاه، والذي بلغتني أخيرًا أخباره بأنه في تحسنٍ مطرد ولله الحمد.. وكانت بعنوان: «الشيخ الفضلي الإنجاز الكبير لمدرسة الشهيد الصدر» لتنتهي إلى كتاب بعنوان: «العلامة الدكتور الفضلي في حاضرة البناء الصدري الحضاري، من الأبجديات إلى الأدبيات» لأعيد القراءة هنا وبلونٍ آخر في مسيرة رجلٍ تتجلى من خلالها القيمة والمبدأ والعطاء.

القراءة عن قرب:

تسليط الضوء على الشخصيات المؤثرة عن قربٍ، وفي زمن العطاء والحضور يعطي لتلك العملية مصداقية ودقة وعمقًا وتعبيرًا منسجمًا وطبيعة تلك الشخصية في تأثيرها ومديات حضورها.

سعادة الدكتور تناول عنوانين مهمين لمسهما في حضور وفاعلية شخصيتين من أكثر الشخصيات حراكًا وفاعلية في موقع حضورهما على مستوى القُطر والفكرة، وهما آية الله الدكتور عبد الهادي الفضلي وآية الله العلامة السيد محمد حسين فضل الله ﷺ.

فأعطى للعلامة الفضلي عنوان: «التجديد» متناولًا فيه تجاربه

ومهارته في صناعة المنهج الدراسي وتجديده مع عرضٍ لملامح عامة لتلك التجربة معززة بأهم العناصر والآثار.

وأعطى العلامة فضل الله عنوان التجديد بنحوٍ آخر لم يحدد ملامحه، إضافة إلى «التعددية» التي لا نعرف إن كان يريدها تجديدًا أم نتيجةً؟، لينصرف عن ذلك إلى تناول مفهوم الحراك على مستوى «المنهج النفسي التحليلي لقراءة مكامن الخلل في الشخصية الإسلامية، والاستشفاء من التخلف عبر إعادة التأهيل النفسي».

وبالرغم من أن حضور الشخصيتين في الميدان كان منطلقًا من انتمائهما إلى حزب الدعوة، إلا أن السيد فضل الله انتقل ميدانه إلى لبنان، والشيخ الفضلي إلى السعودية، حيث تركا العراق وهو موقع الحركة الأم، وموقع أهداف ذلك الحراك ومشروع التغيير.

وكان لحضورهما وحركتهما في حراك الشهيد الصدر ذا قيمة عالية على مستوى الحوزة والحركة الإسلامية، كما هو تعبير الشهيد الصدر نفسه عنهما، لحضورهما في صناعة الحركة الإسلامية وصياغة خطابها ومبادئها وقيمها بخطابٍ حوزويٍّ واعٍ.

فقال في السيد فضل الله: «كل من ترك النجف خسر النجف، إلا السيد فضل الله فإنه عندما ترك النجف خسرته النجف».

وقال في الشيخ الفضلي: «أمثالكم ممن يرفع الرأس عاليًا، ويشكل رقمًا من الأرقام الحية على عظمة الحوزة التي تتيح رغم كل تبعثرها أن ينمو الطالب في داخلها بجهده الخاص إلى أن يصل إلى هذا المستوى المرموق فضلًا وأدبًا وثقافةً. وعلى أية حال سواء ابتعدت عن الحوزة

مكانًا أو قربت، فأنت من آمال النجف ومفاخرها».

رأي الشهود:

إلا أن كلام الشهيد هذا في حقهما لا يمنع من دراسة حضورهما وأدائهما، خاصة وأننا نعيش ذلك الحضور، ومتأثرين بنحو ما بهما، ولا غنًى عن إبداء الملاحظات والانطباعات الشخصية والفكرية وطرحها لذلك الحضور، فذلك انعكاس دقيق له ولمدياته.

ومن جانبٍ آخر، فأمامنا نصوص وواقع تتحدث عنه وتتحرك فيه وبه، ولا يمكننا غض النظر عن ذلك بسبب تلك الشهادة.

مقدمة الدراسة:

الدراسة من حيث مقدمتها تميزت بعملية ربط سلِسة، في قراءة التجديد، وهواجس غير مبررة، ليتطرق فيما بعد إلى رفضه للتجديد الذي يعني البديل وإلغاء الأصيل، إلا أنني لم أفهم ربط التجديد بالتعددية في حراك شخصيتين مختلفتين في المنهج والرؤية وحتى الخطاب، وإن انتميا في بداية حراكهما إلى حزبٍ ديني سياسيٍ واحد. نعم، لو كان ذلك في أداء شخصية واحدةٍ، لقلنا ذلك مشروعها، أما أن يكون في شخصيتين، فهذا ما هو بحاجة إلى مقدمة أخرى تفلسف ذلك الربط، وتموقعه بالشكل الصحيح.

الدكتور اللويمي ومرجعية الدكتور سروش:

مع أن التعددية قد تكون وليدة التجديد أو نتيجة مباشرة عنه، إلا أن الوجه الذي قُدِم كمعرف بها ومدافع عنها هنا ليس السيد فضل الله،

ولا قدم فهمه ورؤيته لها ولمفروضاتها وتداعياتها ولا موقعه فيها، وإنما ترك ذلك للدكتور عبد الكريم سروش، والذي يراها برؤية تختلف تماماً عما ما يراها السيد فضل الله، ليخرجنا به عن أجواء البحث بدخول سروش على الخط.

فأقصى ما قاله السيد فضل الله في التعددية هو: «إنّ على المؤمنين في العالم أن يكتشفوا الطريقة المثلى التي يستطيعون من خلالها التخطيط للحركة الدِّينية المنفتحة على قضايا الحريّة والعدالة للإنسان، والمتحركة في دائرة الحوار الفكري على مستوى النظرية والواقع، بحيث لا يفقد المثال معناه في الواقع، ولا يبتعد الواقع عن مضمون القيمة وروحيّته، مع احترام التعدّدية الدِّينية في نطاق المحاولات الجادة للوصول إلى الكلمة السواء في مواقع اللقاء، أو إلى الفكرة الواحدة في ساحة الوحدة لتكون المحبّة في خط الرحمة، ولتتحرَّك الإنسانية في امتداد العدالة ولتكون حركة الحريّة في حدودها الإنسانية التي لا تحوّل الحياة إلى فوضى ولا تُسقط الإنسان في وحول الخطيئة»[1].

حيث يتحدث عن التعددية الدينية كواقعٍ يجب الاعتراف به، واحترامه في نطاق المحاولات الجادة للوصول إلى الكلمة السواء في مواقع اللقاء، لا أنها تشكل صراطات مستقيمة، تنتهي في خاتمة المطاف إلى الحق، وإنما يرى تلك التعددية في الاجتهاد المتنوع الذي يمكن أن يتيح للأمة مساحة كبيرة مشتركةً، يمكن يلتقي فيها المختلفون.. وهذا بخلاف ما يقوله سروش.

(١) الوعي المطلوب: http://www.safsaf.org/rozne/4p.htm.

فسروش يقدمها من خلال نصه الذي يقول فيه: «لا يمكن أن يطلب من الناس أن يصبحوا كبعضهم البعض، وأن يتساووا في الفضائل ويتصفوا بها بشكلٍ واحد ليكون لهم - بالتالي - صراطٌ مستقيم واحد، فالتعددية هنا تعدّديةٌ أصيلة وواقعية ومبنية على تباين جوهري أيضًا»[1].

وبمقدمة تعريفية لتعدديته يمكنني اختصار طولها بأنها: «إيضاح هذا المعنى نفسه بالاعتماد على الاسم الإلهي (الهادي)، يمكننا أن نسأل: هل الأقليّة الشيعية الاثنا عشرية ـ ومن بين هذه الطوائف المتدينة (غير المتدينين نضعهم هنا جانبًا) جميعها والتي يبلغ تعداد المؤمنين بها المليارات ـ هي وحدها التي حازت على الهداية، فيما البقيّة ضالون أو كافرون، كما هو اعتقاد الشيعة؟، وهل أن الأقلية اليهودية التي تبلغ اثنا عشر مليونًا في العالم هي وحدها المهتدية، فيما البقية مطرودون ومردودون، حسب الاعتقاد اليهودي؟

إننا نسأل: في هذه الحالة، أين هي هداية الرحمن تعالى؟، وأين تحققت؟، ومن هم الذين شملتهم النعمة العامة لهدايته؟، وإلى من وصل وهدى وأرشد اللطف الإلهي الذي يعدّ الأساس الكلامي لإثبات النبوة؟، وأين تجلّى اسم الهادي الحق؟

كيف يمكننا التصديق بأن عدّةً من العصاة والغاصبين نجحوا - وبمجرّد أن أسلم النبي الأكرم روحه للموت - في الإطاحة بدينه،

(١) موقع نصوص معاصرة، نظرية (الطرق المستقيمة) في نهاية الأصل التاسع لنظريته.

وحرموا عامّة المسلمين من فيض الهداية، ومن ثم بدّدوا في الهواء كلّ جهوده؟

لنفرض أن بعض الأشخاص المعدودين قد حاربوا الحق وطلبوا الجاه، لكن ماذا حصل مع ملايين الملايين من المسلمين - إلى آخر التاريخ - حتى لا تقبل طاعاتهم وتذهب جهودهم بلا ثواب، لا بل وينتظرهم سوء العاقبة؟، أليس هذا اعترافًا بهزيمة المشروع الإلهي وفشل النبي؟، هل أنّ مجيء عيسى روح الله ورسول الله وكلمة الله - كما في التعبير القرآني - كان فقط لأجل تحوّل جمعٍ عظيم من الناس إلى مشركين واختيار ديانة التثليث والابتعاد بذلك عن الهداية الحقّة؟! ومن ثم ليخضع كتابه وكلامه ورسالته للتحريف فوراً؟! أفهل كان هاديًا أو مضلاً؟! هل كان رسول الشيطان أو رسول الله الرحمن الرحيم؟!

وفق هذا المنطق، ستكون هناك مساحةٌ كبيرة وهائلة من العالم تحت سيطرة إبليس وسلطنته، فيما جزءٌ حقير منه في كفالةٍ غير ثابتةٍ لله تعالى. وعليه، فإن أكثر الناس اليوم إما متبعون لدينٍ محرّف، أو فاقدون لمطلق الهداية والإرشاد، وفي نهاية المطاف سوف يحرمون من نصيب الرحمة الإلهية.

إنّ هذه الملاحظات البديهية تدفع الإنسان لتوسعة مجال السعادة والهداية؛ كي يرى كيد الشيطان ضعيفًا كما هو التعليم القرآني، وليعترف للآخرين بحظٍّ من السعادة والنجاة والحقانية، وهذه هي روح التعددية.

فإذا نظرنا إلى التعددية من هذه الزاوية فلن يكون هناك سوى الإذعان بالرحمة الإلهية الواسعة، والاعتراف بنجاح الرسل، وضعف

كيد الشيطان، وبسط يد الرحمة الإلهية على رؤوس العالمين والبشر أجمعين»[1].

نعم، لو كان ذلك كمقدمة تعريفية لمفهوم التعددية، ورأي سروش أحدها، فلا وجه لذلك الرفض، على أن ينسجم ذلك مع مفهوم السيد فضل الله لها.. أي لا غنى عن قراءته لها، وهذا ما لم يقم الدكتور به.

من هنا، فأنا لا أؤمن بمن ينظر للمثاليات، وهو لا يملك أن يقدم واقعًا تعيش فيه تلك القراءة، أو يستطيع أن يقدم صورة منطقية للواقع الذي تتمثل فيه، فيما هو لا يقوى على أن يأتي بها، وأرى بأنه كلما كان قاسيًا في نقده، كلما كان عاجزًا بذات الدرجة أو أشد في أن يأتي بها.

ولذلك لا أفهم كيف يولد هذه النظرية التي ترى أن كل الاتجاهات «إلى ذاك الجمال تشير»، وفي نفس الوقت ينسى أن السيد الخامنئي يمكن أن يمثل صراطًا من تلك الصراطات التي نظَر لها، فيوجه له رسالة ينسف فيها أساس وقوام نظريته!!.

ذلك ما يثير الفضول.. إذ كيف يمثل صراطًا مستقيمًا، وفي ذات الوقت سيصير إلى الجحيم؟!..

وذلك عندما قدم مناحته في تأسيس نظريته التي يقول فيها: «وبهذا المقدار ليس من الممكن تقبّل مفاهيم من قبيل: إننا على حق وهداية، وإننا أهل الجنة وأصحابها، فيما سوء حظّ الآخرين جعلهم على باطل وصيّرهم أهل ضلالة وزيغ، حيث لم يفهموا الدين بشكلٍ سليم ومن

(١) ملخص لجزء من قراءاته في بناء نظريته، مجلة نصوص معاصر.

ثم انحرفوا، ولم يكن عملهم مقبولاً، وعاقبتهم بالتالي ليست سوى جهنم».

وقد تحدثتُ إلى سعادة الدكتور بعد المحاضرة في هذا، فبرر ذلك بالموقف السياسي، إلا أن ذلك غير وجيهٍ؛ لأن الحراك السياسي والاجتماعي هما أبرز الميادين التي تتحرك فيهما التعددية بمعناها الواقعي، ولهما الدور الأبرز في بروز ذلك التعدد وبروز المذاهب الدينية، فيما سروش أدخل خطابًا دينيًّا في رسالته للسيد الخامنئي كتعبيرٍ عن موقفه وغضبه.

توليد النظرية ليس عصيًّا بحد ذاته على أي أحدٍ، ولا هو حكر على جماعةٍ خاصة، وإنما هو متاح لكل قادرٍ تبصر الحاجة وتفهم العلاج، إلا أن الإشكالية هو تجاوز الكثيرين من ليبراليي الثقافة مرجَعَة اللا مرجع، ومساواة النص السماوي بالنص البشري، وأحيانًا جعله حاكمًا وحكمًا على السماوي!!. وهذا ما جعل قراء النصوص السماوية من المعاصرين يمرجعون بعضهم البعض، ليتمكنوا من إطلاق العنان لأنفسهم، وتجاوز السقوف والمديات التي يضعها النص الشرعي لقراءته وفهمه.

وهذا ما جعلنا نُتْخَمُ بالنظريات الكثيرة والمتناقضة، ولا من نتائج تذكر في أغلب حالاتها، فيما لبعضها نتائج كارثيةٍ ومدوية في السلبية.

دراسة الدكتور والثغرة المنهجية:

دراسة سعادة الدكتور ـ كما ظهرت ـ هي استعراض لقراءة السيد فضل الله للظواهر التي أسماها مرة بالروح الباكية، ومرة بالروح الخائفة، ومرة بالروح المنبهرة.

وما يعنيني أن أبحث في دراسة سعادة الدكتور عن مفهوم التجديد لدى السيد فضل الله وآلياته وموارده أو أقلًّا بعض نماذجه كما هي فكرة القسم المتعلق به، وعن خطواته هو في هذا الشأن، وعن الثمار التي تولدت عن ذلك التجديد!.

إلا أنه لم يقدم صورًا وعناوين وملفات اعتنى بها السيد فضل الله للتجديد، بالرغم من أنه لن يفقد ذلك، لغزارة إنتاج سماحته وتنوعه. بينما العناوين التي استعان بها سعادة الدكتور تدخل ضمن الخطاب الجماهيري التعبوي، وتظهره أنه عاش واقعًا وتعاطى معه دون أن يُنضِج مواقفه وقراراته فيها وتجاهها، بالرغم من تحذيره منها بنحوٍ من الأنحاء.

ولتجاهل (سعادة الدكتور) هذه الحالة في دراسته، فقد أظهر سماحة السيد فضل الله وكأنه لا يعدو أن يكون كاتبًا، ومحللًا لظواهر واقعه، وناقدًا ومقترحًا وليس صانعًا ومجددًا فيه، فيما إطلاق مفردة التجديد في حضوره يفرض أن يكون بتلك العناوين التي فرضه حضوره، والمديات التي بلغته، والسقوف التي تقف عندها وفقًا لصناعته وتجديده، لنتعرف عليها، بدلاً من أن تكون مجرد عبارات تفتقر للحالات والإحالات والنماذج.

لقد قام سعادة الدكتور بعرضٍ خالٍ من أي مظهرٍ أو مشهدٍ أو إحالة، واكتفى بعرض قراءة السيد فضل الله لتلك الظواهر الاجتماعية، التي أعطاها تلك العناوين «الباكية والخائفة والمنبهرة».

فمثلاً: قال عن الروح الانفعالية: «إننا نملك رصيدًا كبيرًا من

الإيمان والمعرفة بعقيدة الإسلام وشريعته، ولكننا نخضع للأجواء الانفعالية الضاغطة التي تغرقنا في الحماسة المجنونة في أغلب الحالات».

«إننا نرفض أن يكون الانفعال كل رصيدنا في مواجهة الواقع، فينطلق في حياتنا كأساسٍ وحيدٍ للتحرك من دون أي انطلاقة عقلانية تدرس الواقع في ظروفه الموضوعية المحيطة به».

وهذا العرض هو قراءة للواقع، وليس تجديدًا فيه أو صناعة للتعددية فيه، في حين أن عنوان المحاضرة يتناول التعددية والتجديد .. وكل ما تعلق بالعرض يدخل نفس الدائرة.

عبارة: «إننا نرفض» ليست علاجًا، وإنما احتجاج، وهو عادة ما يدخل في السجال الكلامي، وتسجيل المواقف التي لا يمكن إطلاق «التجديد» عليها.

وهكذا كان أيضًا لقراءته للروح الباكية التي في الواقع لم أفهمها.. ولم يسعفني على فهمها شرح سعادة الدكتور داخل المحاضرة للمسألة.

التقليدية تحتوي التجديد، وتصوغ التعددية:

في هذه المسألة رأيت السيد فضل الله في عددٍ من التصريحات يشتكي ألمًا لما تعرض له، بالرغم من أن ردة فعله تجاه استهدافه لم تكن مشروع احتضانٍ لهم، أو إخماد للهيب النار المستعرة التي يؤجج أوارها ضده، لعدم عنايته كثيرًا بالمادة التي يطرحها للجدل، ولحساسية تلك المادة عند خصومه، ليعود بعد انفراط العقد بينه وبينهم إلى إظهار شيءٍ من التقليدية ترويضًا أو تهدئة أو تخفيفًا لحدة التوتر، بدون أن يدلل أن

ذلك وفقًا لمفهومه للتجديد أو التعددية بناءً على التصور الذي قدمه فيهم وعنهم، ليعيش ذات الانفعالية التي تحدث عنها في قضايا مصيرية نظَّر لها، ووقف في ذات الموقع الذي كان ينتقدهم بسبب مراوحتهم فيه. وقد قرأت كتابًا لأحد مريديه، وهو لسماحة السيد الفاضل الأستاذ/ جعفر الشاخوري، الذي تكلم فيه طويلاً عن التجديد، إلا أنه كان يرجع ما تفرد به السيد فضل الله - كفقيه معاصرٍ - إلى أحد الفقهاء القدامى أو المعاصرين، أو إلى مبنى أحدهم، على أن ذلك ليس بدعًا منه، ليظهره مسبوقًا بفتوًى أو مبنًى، ليدفعني ذلك إلى التساؤل: كيف يكون تجديدًا، وهو ليس من ابتكاراته؟

فالإمام الخميني لم يكن مجددًا في طرحه لنظرية ولاية الفقيه، وإنما التجديد في نظرته لها، والتعامل معها بشكل عملي ومباشر.

وأما مسألة التعددية، فإنها تحتاج إلى تقديم أفضل وأدق كما هو التجديد، وأن يأخذ بعين الاعتبار مفهومه ومادته، وحضور السيد فضل الله فيه.. وهل يقصد بالتعددية قبول أي لونٍ يُنسب إليها، حتى التعددية المصطنعة؟ أو المبالغة في الصدام؟!، كالذي حصل بينه وبين خصومه؟! أم أن سعادة الدكتور يريد معالجة هذه الإشكالية من خلال السيد فضل الله، على أية حال.

المحاضرة: هكذا أريد لها أم هي وليدة تداعيات؟:

أما ما يتعلق بسماحة الشيخ الفضلي، فإنه تناول التجديد في أدائه على المنهج الدراسي فأطال في المقدمة كثيرًا، والتي يمكن أن أحسبها أنها قراءته لمفهوم تجديد المنهج الدراسي، وإن كان وفقًا لرؤية الشيخ

الفضلي، إلا أن غياب نصوصه في تلك الوريقات يعني أنه بخس حق الشيخ الفضلي في الخانة المعقودة لأجله، فيما هو أطال في موضوع السيد فضل الله، ما جعل نصيب الشيخ الفضلي في وريقات الدراسة البالغة (١٨) صفحة بحجم الـ (A4) ثلاث صفحات فقط، في حين أن المناسبة كانت باسمه.

ما يشي أن المحاضرة لم تكن وليدة الدعوة ولا وليدة هذه المناسبة. إلا إذا كانت تداعيات رحيل السيد فضل الله ﷺ على سعادة الدكتور فرضت عليه أن يقحم السيد فضل الله في المناسبة، إذ لا أرى أنه قدم السيد فضل الله مجددًا، ولا مؤدلجًا للتعددية، وإنما قارئًا فحسب. وأعجب لعدم التفات سعادته إلى ذلك، خاصة وأن ملف السيد فضل الله مليء بالقضايا الساخنة، وهو بحاجة إلى محاضرة أو أكثر خاصة به، ليواجه به السؤال والإشكال، وليس بتمرير العبارات العاطفية التي هي صورة من صور الروح الباكية والروح المنبهرة.

أرى نفسي أمام عنوانين من التجديد والقراءة الواضحة والصورة المفهومة للتجديد في المنهج الدراسي بالنسبة للشيخ الفضلي، ولكن ما التجديد الذي يقصده للسيد فضل الله؟، فهذا ما لم نفهمه.

وهذا ما جعلني أتلفت يمينًا وشمالًا لمقاربة عنواني التعددية والتجديد «فضل الله والفضلي نموذجًا» ببعضهما، كما أنني أمهلت نفسي لأستمع إليه محاضرًا ليوضح ذلك، إلا أنه لم يوفَّق عندما تقدم الأخ النابه «ياسر الخلف» بإثارة هذه المسألة. ناهيك عن بعض العناوين الأخرى التي تفضل بطرحها في المحاضرة، فإن بعضها كان مثار

السؤال، إلا أنني أغضيت عنها، بعد أن توصلت إلى نتيجة مهمة، وهي:

إن سعادة الدكتور يعيش أجواء رحيل السيد فضل الله، وبعض العناوين التي أراد توصيلها، ولم يلتفت كثيرًا إلى أن المناسبة تخص الشيخ الفضلي. وهذا ما لفت نظري قصاصات الشواهد التي كانت للسيد فضل الله، والتي كما قلنا عنها لم تتجاوز قراءات للسيد فضل الله، فيما قام هو بنقل نصٍ أو نصين عن الشيخ الفضلي في بعض الموارد حين إلقائه المحاضرة لتصحيح مسار عرضه في المحاضرة.

طبعًا تجاهلتُ كثيرًا الأخطاء المطبعية أو اللغوية، باعتبار ما رأيته في مركب المحاضرة على التالي:

١. في المقدمة والتي على ما يبدو هي صناعة سعادة الدكتور، وهي عادة ما ينشغل الكاتب بصياغة مفهومها والانشغال عن قالبها اللفظي، لأهميتها البالغة في توجيه ذهن القارئ أو المستمع لقراءة قضية المحاضرة، خاصة وأنه قال بأن ذلك في مدة قصيرة وفضَّل أن يلتزم بالوقت.

٢. بعد أن تجاوز المقدمة قلت الأخطاء كثيرًا، إلا أنه أخفق في الالتزام بمقررات ومقتضى المقدمة، وعلى ما يبدو هذا أيضًا فرض الوقت نفسه عليه لتلافيه.

ولذلك نأمل أن نقرأ هذه الدراسة بعد أن تصدر في كتاب قد أخذت في عين الاعتبار ملاحظات الأخوة المداخلين، نظرًا لأهميتها، مع حق سعادة الدكتور في قبول ما يشاء منها ورفض ما يشاء. إلا أن تجاهلها جميعًا يعني القطيعة مع هذه الشريحة التي استمعت إليه، وما

تمثله من نماذج، وعلى ما يبدو أنها تمثل النموذج الأكثر حضورًا في الساحة..

تمنياتي للدكتور بالتوفيق دائمًا، وللأستاذ جابر بالتوفيق في مثل هذه المبادرات الطيبة، وللحضور أيضًا باكتساب الخبرات في توليد الرؤى وقراءتها بالمستوى العلمي المتقدم.. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الموسم الخامس

قراءات متعددة في فكر العلاّمة الفضلي وجهوده العلمية

- افتتاحية الندوة
- الآراء النحوية عند الفضلي: «دراسات في الإعراب» نموذجًا
- ملخّص وتعليق على الدراسة الفقهية السياسية للشيخ الفضلي
- قراءة وعرض لكتاب «القراءات القرآنية: تاريخ وتعريف»
- أدب التقديم.. الدكتور الفضلي نموذجًا
- جهود الشيخ الدكتور الفضلي في دراسة العربية وتدريسها
- اللاسجالية في كتابات الدكتور الفضلي ومحاضراته
- جذور التجربة المنهجية عند العلامة الفضلي

افتتاحية الندوة

■ الأستاذ حسن بن مبارك الربيح ■

١١ رمضان ١٤٣٢هـ

تأتي هذه الندوة الخامسة لهذا العام مختلفةً عن الندوات الأربع المنصرمة، من حيث الطريقة والعدد. فعلى مدى أربع سنوات كان المنتدى يدعو شخصًا واحدًا لتسليط الضوء على جهود الدكتور الشيخ الفضلي ونشاطاته المتعددة، ففي ١١/ رمضان/ ١٤٢٨هـ كان اللقاء الأول مع الشيخ محمد العباد في محاضرة بعنوان: «الشيخ الفضلي الشخصية الاستيعابية»، وفي ١٨/ رمضان/ ١٤٢٩هـ كان لقاؤنا الثاني مع الأخ باقر الرستم في محاضرة بعنوان: «الشيخ الفضلي الإنجاز الكبير لمدرسة الشهيد الصدر»، وفي ١٣/ رمضان/ ١٤٣٠هـ كان اللقاء الثالث مع الشيخ إبراهيم الرضي في محاضرة بعنوان: «الإحياء الإسلامي في كتابات الشيخ الدكتور الفضلي»، وفي ٩/ رمضان/ ١٤٣١هـ كان اللقاء الرابع مع الدكتور أحمد اللويمي في محاضرة بعنوان: «التجديد والتعددية: فضل الله والفضلي نموذجًا». أما في هذا اللقاء الخامس والذي نجتمع فيه في هذه الليلة ١١ رمضان ١٤٣٢هـ، فهو لقاء من نوع آخر، حيث ستوزَّع الندوة على أكثر من قلم وباحث، يقومون برحلة في

أكثر من مدينة من مدن الشيخ الفضلي المهجورة منها والعامرة، فالكتاب أشبه بالمدينة يشوِّقُك لاكتشاف معالمه ويدعوك إلى الاشتراك معه في عملية البناء أو الهدم أو الإزالة والترميم.

وقد يسأل سائل: «لماذا هذا الاهتمام المتواصل بالشيخ الفضلي؟».

وللإجابة عن هذا التساؤل، نقول: إن الاهتمام لم يكن منطلقًا من أن الشيخ ولد في ١٠/ رمضان/ ١٣٥٤هـ وحسب، وإنما انطلق مما خلفه الشيخ من المدن الفاضلة التي يربو على (٧٥) كتابًا. فهو احتفاء بهذه الولادات والإنجازات العلمية والأدبية. وهو دعوة إلى ضرورة قراءة هذه المؤلفات والتفاعل معها حوارًا ومساءلةً ونقدًا، وانطلق الاهتمام أيضًا لأن الشيخ يعد من القلائل الذين سعوا في العلاج الديني والاجتماعي والفكري بشكل عملي ومنظَّم. وطريقته في التأليف تشهد على ذلك، خاصة في انشغاله بتطوير مناهج الحوزة، فهو احتفاءٌ بالعمل الدؤوب، وإشاعة النقد العملي، وينطلق الاهتمام أيضًا لأن الشيخ ابن الأحساء البارُّ لكل بقعةٍ يحِلُّ فيها، فلا تخلو بقعة من هذه البقاع من مشروع كتابي منفَّذ، أو عطاء علمي عملي له. والأحساء حريَّةٌ بأن تقدِّم جزءًا من الوفاء لهذا النبع الذي تفجَّر منها، ليصل إلى أماكن أخرى، ويبقى في مجرى الزَّمن إلى ما شاء الله.

نجتمع هذه الليلة وبعد أربع ندوات لنؤكِّد على التواصل والتفاعل مع الأفكار بالطريقة التي تجعلها حيَّة تتنفس وتنمو وتتزاوج، وقد تتعارك في نزال أبيض لا قتال فيه، إلى أن تكون متنوِّعة في ثمراتها ونتائجها.

الآراء النحوية عند الفضلي: «دراسات في الإعراب» نموذجًا

■ الأستاذ حسن بن علي الرستم ■

إنه لمرتقى صعب، وعقبة كؤود، والدابة شموس، والسبيل وعرة، والقائد بعد لم يزل يستشرف الطريق، ولما يبلغ أن يكون دليلًا خرِّيتًا. لكن الغاية تحمل على المسير، والمقصود يجذب جذب الجميل عين الناظر. ذلك هو العلامة الشيخ الدكتور عبد الهادي الفضلي.

وأنا ـ هنا ـ لم أنوِ أن أخوض عباب هذا البحر كله، وأنى لي ذلك، لكن سأطعم منه، أو سأغترف منه غرفة، وفيها ارتواء الغلة، وذهاب العلة، والعلامة كما قال المتنبي:

كالبدر من حيث التفت رأيته ... يهدي إلى عينيك نورًا ثاقبا

كالشمس في كبد السماء وضوؤها ... يغشى البلاد مشارقًا ومغاربا

كالبحر يقذف للقريب جواهرًا ... جودًا، ويبعث للبعيد سحائبا

والمعروف عند أكثر العامة أن العلامة الفضلي فقيه، ويخفى على كثير منهم ـ وهذا غير غريب ـ أنه فقيه نحوي، قد شق في النحو الغبار،

وحاز فيه قصب السَّبق، وبلغ فيه غاية بعيدة. ولا غرو، فقد كان فرع شجرة العلم المورقة المثمرة، وكان قد جمع في كنانته سهمًا بل سهامًا لكل رمية، فهو ابن الحوزة العلمية النجفية التي كان من أعمدتها العلامة الكبير محمد رضا المظفر، وهو فردٌ من جموع، وهو العالم المعروف بجلالة قدره، وسموٍّ منزلته العلمية، حتى ليعرف بأنه المجدد.

ولم تدعه نفسه الكبيرة أن يكتفي بها في الحوزة العلمية من علم، بل حملته همته على جناح لا يهيض، فاغترف من أنهارِ الجامعات حتى بلغ ما بلغ فيها وحاز شهادة العالمية، وهو ابن بجدتها. فجمع إلى عمق العلوم الحوزوية وأصالتها، دِقّة العلوم الجامعية ومنهجيتها. فكان بحق عالم الحوزة والجامعة. فلا غرو أن يكون بعد ذلك مجددًا مبتكرًا. فهو كما قال المتنبي أيضًا:

وإذا كانت النفوس كبارا   تعبت في مرادها الأجسامُ

وفي مقالتي هذه سأتعرض لبعض آرائه النحوية، وأعوّلُ في ذلك على كتابه: دراسات في الإعراب، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ، دار تهامة.

☐ أولاً: تعريف الإعراب

تناول العلامة الفضلي في كتابه: دراسات في الإعراب: تعريف الإعراب بالدراسة والتحليل، ونقل تعاريف العلماء من الماضين والمعاصرين، من لدن سيبويه حتى الدكتور مهدي المخزومي والأستاذ عباس حسن، وخلص من دراسته إلى ثلاثة تعريفات للإعراب، وهي:

- الإعراب هو: الرفع والنصب والجر والجزم.

- الإعراب هو: تغير أو اختلاف أواخر الكلم المعربة.
- الإعراب هو: الأثر الظاهر أو المقدَّر في آخر الكلمة المعربة.

ثم قال: «وقد نخلص أيضًا إلى أن التعريفين الأخيرين يُعطيان معنى التعريف الأول، فيصبح تعريف الإعراب هو: الرفع والنصب والجر والجزم»[1]. ثم أخذ في بيان علّة ذلك وسببه.

وكان همُّ العلامة في هذا التعريف هو أن يخلِّصه من الاصطلاحات المنطقية والفلسفية، كالعامل والاقتضاء. وكذلك أراد أن يخلّصه مما يرد على سائر التعريفات من أنها لا تشمل الإعراب بجميع أقسامه.

وفي دراساته للفعل، انتهى إلى أن «الأمر» ليس من أقسام الفعل، وأن الماضي والمضارع بجميع أقسامهما مبنيّان[2]، فيقتصر التعريف عنده على هذا على: الرفع والنصب والجر[3].

□ **ثانيًا: رأيه في الشواهد النحوية**

لو رحت تقلب المؤلفات النحوية من لدن كتاب سيبويه حتى مؤلفات العلماء المعاصرين، فإنك تجد أن الشاهد الشعري يحتل مكانة

(١) لمزيد من التفصيل، انظر الكتاب ص٢٥-٢٦.
(٢) وهذا، لعلّه، يرجع إلى تأثّر أن الدكتور الفضلي بالدراسات الأصولية؛ لوجود آراء في المباحث الأصولية غير الرأي النحوي. وكما قال بعض العلماء: «أفادت العربية من الأصوليين أكثر مما أفادته من اللغويين»، خاصة في مباحث الوضع والاشتراك والترادف، والأفعال والجملة الخبرية والإنشائية.
(٣) انظر: دراسات في الفعل، دار القلم – بيروت، ١٤٠٢هـ.

كبيرة في النحو، وأنّ النص القرآني أقل في الاستشهاد به من الشعر. وسبب ذلك ينبغي أن يُدرس في غير هذه المقالة المختصرة، والعلامة الفضلي له في هذا المورد رأي، إذ قال ـ عافاه الله: «ينبغي علينا في الدرس النحوي أن نسلك المنهج التالي:

اعتماد القراءات التي جاءت وفق اللغة الاجتماعية المشتركة، أو اللهجات الشائعة شيوعًا واسعًا، سواء كانت متواترة أو شاذة، أساسًا في التقعيد النحوي[1].

اعتماد القراءات التي جاءت وفق لهجة غير شائعة، سواء كانت متواترة أو شاذة، دليل شواذ القواعد. ثم قال: «وأقول هذا لأن القرآن الكريم هو الوثيقة العربية الوحيدة التي تعكس لنا واقع اللغة العربية الاجتماعي في ثنايا القراءات القرآنية متواترة وشاذة.

ومن هنا كان ينبغي ـ منهجيًا ـ الاعتماد على القرآن أكثر بكثير من الاعتماد على الشعر أو النثر من كلام العرب»[2].

---

(١) وقد رأيت هذا الرأي عند الدكتور أحمد مختار عمر، وهو من العلماء المصريين، يرى نفس الرأي، ويحتج لبعض القضايا النحوية أو القضايا اللغوية التي شاع عند الناس خطؤها، ويحتج على أنها صحيحة بالقراءات، مثل: المتوفى أو المتوفي، إذ يعبّر بـ: «من المتوفي؟» ويحتج به من القراءات القرآنية أنها صحيحة. وكذلك: الدّخان، إذ يقول اللغويون أنه من الخطأ أن تقول الدخّان بالتشديد، هو يستشهد بالقراءات القرآنية على أنها صحيحة، وغيرها من الشواهد الكثيرة التي استشهد بها الدكتور أحمد مختار عمر.

(٢) دراسات في الإعراب، ص٧٧-٧٨ بتصرف يسير.

☐ ثالثًا: نظرية العامل

هذه نظرية قديمة جدًّا، ونعني بها نظرية عامل الإعراب، وهي أهم نظرية في النحو[1] وهي بنحو مختصر تعني: أن الترابط القائم بين الكلم في الجملة ترابط عمل يبتني على أساس أن بعض الكلم عامل، وبعضه معمول، والعامل بدوره يؤثر الإعراب في المعمول[2].

ورأي العلامة الفضلي في هذه النظرية يتلخص في أنه ينبغي تنقية فكرة العامل من الزوائد الصناعية سواء كانت في التقدير أو الإعراب[3]، وأنه ينبغي أن تبقى فكرة العامل نظرية من نظريات النحو، وأن يعتمد في تحديد إعراب الكلمة في بيان وظيفتها النحوية في الكلام على الدلائل أو القرائن النحوية، وأن إلغاء فكرة العامل إلغاء تاما يبعد ما بيننا وبين تراثنا العربي الذي شغلته فكرة العامل قرونا طويلة.

(١) المصدر السابق، ص٢٧.
(٢) المصدر السابق، ص ٣٠.
(٣) مما يعني أن النحوي إذا رأى اسمًا منصوبًا لا بدَّ وأن يقدِّر فعلًا أو أي ناصب له؛ لأن نظرية العامل مرتكزة عنده، فلا يكون هنا عمل بلا عامل، وهذا تأثُّر بالفلسفة، فالدكتور يرى: أن اللغة كائن اجتماعي، فلا تتعامل معها بالمنطقية الفلسفية الحادة، كما هي موجودة في سائر الأشياء.

ملخص وتعليق على الدراسة الفقهية السياسية للشيخ الفضلي عن: «الصلح مع إسرائيل»

■ الأستاذ يوسف خليفة الشريدة ■

□ أولاً: استعراض لملخص الدراسة الفقهية التي قدمها الشيخ

استعرض الشيخ الأفكار التالية:

١. أهمية معرفة نوعية ملكية أرض فلسطين وفقًا لأحكام التشريع الإسلامي، حتى نستوضح واقع الحكم منها.

٢. أهمية مراجعة الجانب التاريخي، وأن أرض فلسطين كانت تحت حكم الروم قبل الفتح الإسلامي، وتم الاستيلاء عليها «عنوة» بحربٍ في عهد عمر بن الخطاب.

٣. عادة ما تبحث هذه الحالة فقهيًا في موضوعين: (ملكية الأرض + ضريبة الخراج).

٤. يختلف الموقف الفقهي من (ملكية الأرض + ضريبة الخراج) باختلاف طبيعتها، وهي التي تعرف بعد الإجابة عن السؤالين التاليين:

- هل فتحت الأرض صلحًا؟

- هل فتحت عنوة؟

فالمفتوحة صلحًا، يُقِر الإسلام أصحابها على ملكيتها، ويحق لهم التصرف فيها تصرف المالك في ملكه، فلهم بيعها وإجارتها وهبتها وما إلى ذلك من تصرفات مشروعة.

أما المفتوحة عنوةً، فملخص رأي المذهب السني: أن للإمام الخيار في أن يُقسمها بين الغانمين أو أن يوقفها على المسلمين عامة.

وإذا لم يقسمها الإمام بين الغانمين، تعيّن الحكم الثاني، وهو وقفيّتها للمسلمين. وهناك مد وجزر في مسألة تقسيم الأرض وملكيتها بين الغانمين أو وقفها.

وقد استعرض الشيخ الفضلي أشهر الآراء لأبي حنيفة ومالك وابن حنبل والشافعي والثوري، وقد اقتصر على مصدرين، هما: «الموسوعة الفقهية» الكويتية، وكتاب «المغني» لابن قدامة المقدسي؛ لأن فيهما عرضًا وافيًا للمسألة.

وملخص رأي المذهب الشيعي الإمامي، وهو من غير خلاف بين فقهاء المذهب، لا يجوز تقسيمها بين الغانمين، ويجب أن توقف لصالح المسلمين. وذلك استنادًا لما روي عن أهل البيت ﷺمن روايات، حيث استشهد الشيخ بثلاث روايات للطوسي ورواية للكليني، وسبق تلك الروايات قول الشيخ المنتظري ﵀ في كتابه «دراسات في ولاية الفقيه وفقه الدولة الإسلامية».

أما على مستوى التطبيق بالنسبة لأرض فلسطين، وهي قضية

تاريخية تم حسم الأمر فيها في حينه، فالعمل يكون فيها بناءً على ما طبقه الإمام في حقها ويُسار عليه.

وبالتالي، يكون السؤال المطروح: هل قسمها عمر بن الخطاب أم أنه أبقاها وقفًا للمسلمين؟

وبعد استعراض الشيخ لبعض الروايات التي وثقت الموقف الرسمي الذي تلا فتح أرض فلسطين، يُعلَم منها أن عمر بن الخطاب أوقفها للمسلمين، ولذا يمكن القول بأن كلمة فقهاء المسلمين متفقة على أن أرض فلسطين وقف للمسلمين عامة، مَن كان موجودًا منهم عند الفتح الإسلامي لها، ومن سيوجد حتى تقوم الساعة.

ثم يتساءل الشيخ: ما الموقف الشرعي للمسلمين منها بعد أن اغتصبها اليهود؟

استعرض الشيخ أساس الوجود الصهيوني وأنه مشروع استعماري استحسانًا منه للنتائج التي توصل لها الأستاذ رفيق شاكر النتشة في دراسته الموثقة، والتي وصفها الشيخ بأنها موضوعية: «الاستعمار وفلسطين: إسرائيل مشروع استعماري»، حيث يؤكّد فيها المؤلف بأنه لم يأتِ الصهاينة اليهود إلا متأخرين بدورهم كعملاء وأُجراء للدول الاستعمارية صاحبة هذا المشروع، وهي بحسب رأيه: (فرنسا وألمانيا وإيطاليا وبريطانيا وأمريكا)، وأنها بذلك تهدف للسيطرة على العالم العربي والإسلامي من خلال اتباع سياسة التفرقة في المنطقة باستغلال القوميات والطوائف والعصبيات لكسرة وحدة العالم العربي تمهيدًا للسيطرة عليه وعلى العالم الإسلامي بعد ذلك.

ثم يُجيب الشيخ على السؤال بالقول: «يجب على المسلمين العمل على استرجاع أرض فلسطين بكاملها؛ كما لا يجوز التعامل مع هذه الدولة التي تمثل القاعدة الاستعمارية للدول الغربية».

ويُشيد الشيخ بالموقف الإيراني بالقول: «وموقف إيران من رفض السلام نابع من هذه الشرعية، فذلك أن (إسرائيل) مغتصبة لأرض إسلامية هي للمسلمين عامة وبإجماع فقهاء المسلمين كافة».

وبعدها استعرض الشيخ شبهة استدلال بعضهم بآية السلام: ﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[1]، لتبرير قبولهم بمشروع السلام مع (إسرائيل). وقد رد على الشبهة بأمرين:

الأول: أن الموضوع يختلف عن مصاديق الآية الكريمة؛ ذلك أن قضية فلسطين أرض إسلامية استلبت، فالحكم الشرعي يفرض استردادها وإعادتها إلى أصحابها الشرعيين، وهم المسلمون. فيما تتحدث الآية عن الكفار المحاربين الذين هم في ديارهم وأوطانهم وليسوا في دارٍ للمسلمين اغتصبوها منهم، وسياقها واضح كقرينة على ذلك.

الثاني: أن الحكم في آية السلم مرحلي، انتهى بنزول سورة براءة، واستحسن في ذلك تعليق سيد قطب في كتابه (في ظلال القرآن). وملخصه أن الآية نزلت في ظرف ما قبل سورة براءة، إذ يقول: «إنّما أمر الله رسوله أن يقبل مسالمة وموادعة ذلك

(١) سورة الأنفال، الآية: ٦١.

الفريق الذي اعتزله فلم يقاتله، سواءً كانوا قد تعاهدوا أو لم يتعاهدوا معه حتّى ذلك الحين. وأنه ظل يقبل السلم من الكفار وأهل الكتاب حتّى نزلت أحكام سورة براءة، فلم يعد يقبل إلاّ الإسلام أو الجزية، وهذه هي حالة المسالمة التي تُقبل ما استقام أصحابها على عهدهم، أو هو القتال ما استطاع المسلمون هذا، ليكون الدين كله لله».

يختم الشيخ بحثه بتبني طرح سيد قطب الأُمي، ويظهر ذلك جليًّا حين استحسن مقطعًا متقدمًا من أقواله، وملخصه: أنه يستقبح قول الداعين لجهاد الدفاع فقط، بل يرى جهاد الطلب أيضًا، ليكون الدين كله لله.

ويُعلّق الشيخ بالقول: «إنهم وعاظ السلاطين، ومن غير شك سيتعرون ثم ينهزمون أمام وعي الشعوب المسلمة المتنامي، ﴿... وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾[1]».

□ ثانيًا: الملاحظات الشخصية

(١) شيخنا الدكتور الفضلي ـ أطال الله عمره ـ لم يكن فقيهًا تقليديًّا، بل عاش عصره بكل تحدياته، فلم ينكفئ على العلوم التنظيرية، بل امتاز بأنه على تماس مع حاجات محيطه الواقعية جنبًا إلى جنب مع حاجاته العلمية. ويعرفه مَن خالطوه بأنه ذو أريحية للسؤال عن كل الجوانب، ويشعر المرء معه بأنه نموذج حي للفقيه المعاصر.

---

(١) سورة الحج، الآية: ٤٠.

(٢) قضية فلسطين اقتحمت كل واقعنا، فصارت شئنا أم أبينا، مؤثرة في ماضينا وحاضرنا ومستقبلنا، وبالتالي من المستقبح أن يغيب المثقفون؛ فضلًا عن العلماء عن إبداء رأيهم وتوثيق موقفهم لتوعية الجماهير بتكليفها الشرعي من جهة، وتوعيتها بالنتائج التي يمكن أن تترتب على أدائها في التصدي لهذا المشروع الاستعماري من جهة أخرى.

وتجدر الإشارة هنا أني لاحظت أن نشره لبحثه تم ربما في التسعينات من القرن الماضي، وذلك حين قرأت إشارته لاسم الرئيس الأمريكي بيل كلينتون، واستعماله بعض كلمات تلك الحقبة، من قبيل ما كان يُسمى عملية السلام والنقاش حولها في عهده الممتدّ من عام ١٩٩٣م إلى ٢٠٠٠م، وهو ما يُفهم منه أنه كان مبادرًا للتعليق على أحداث عصره وتوثيق الموقف الفقهي السياسي منها دون تأخير.

(٣) انفتاح الشيخ على المجتمع الإسلامي العام، ونلمس ذلك بموضوعيته التي تحتضن المدارس الفقهية المختلفة، وخاصة المعنية واقعًا بالمسألة التي يتناولها. فكان منه أن استعرض الآراء المتنوعة جنبًا إلى جنب بكل احترام لها، وانشغاله بالحاضنة الإسلامية العامة التي تؤمن بوحدة تاريخ الأمة ووحدة مصيرها. فكان يبتعد عن أي لفظ يستفز به أيَّ مكوّن، بل وجدناه في البحث يضع عبارة (رض) بجانب اسم الخليفة الثاني. ويمكن قراءة ذلك بأن موضوع فلسطين من المواضيع الجامعة للأمة الإسلامية، وعدالتها وحجم المظلومية فيها، وحجم المؤامرة من تبعاتها، يجب ألا تشغلنا عنها أية نقاشات عقائدية ليس هذا موقعها.

(٤) إشارته للموقف الإيراني في المنطقة من المشروع الصهيوني لا يمكن تجاهله، فواضح للمتابع لهذه الشخصية العلمية المعاصرة أنها متناغمة مع الأدبيات التي جاءت بها الثورة الإسلامية، وربما كانت الإشارة من موقع أن الموقف الإيراني هو الأشهر في المنطقة أو الأكثر مصداقية أو الأكثر انسجامًا مع القاعدة الشرعية التي يتبناها الشيخ أو لبعضها أو كلها؛ إذ من المعروف عن الشيخ أنه ممن يتبنّون ولاية الفقيه، وأنه قَبِلَ أن يكون وكيلًا للولي الفقيه الذي عاصره، وأنها كانت أوّل وكالة يقبل بتسلم مسؤوليتها.

(٥) واضح لي كقارئ للبحث أن الشيخ مؤمن بقوة الأمة، ودورها العالمي المتقدم، ويظهر ذلك جليًّا في استحسانه لطرح سيد قطب الذي استقبح المنغلقين على أدبيات جهاد الدفاع فقط، وأشار لأهمية عزة المسلمين وقوتهم ودورهم في إعلاء كلمة الله في الأرض بجهاد الطلب وغيره من وسائل متاحة. وأن الانهزام الحالي الناتج من ظروف معينة لا يجب أن يُنسي الأمة ريادتها وحقها في إلزام الآخرين باعتناق منهج الله ما أمكنهم ذلك.

وأخيرًا، بحث الشيخ نموذج لشمولية نتاجه، ونموذج لانفتاحه على هموم أمته واحتضانه لمكوّناتها، وعنايته بوحدتها، وإيمانه بوحدة مصيرها، وقناعته بتكليفها ورسالتها العالمية في إعلاء كلمة الله.

قراءة وعرض لكتاب «القراءات القرآنية: تاريخ وتعريف»

■ الشيخ صالح محمد الغانم ■

١٠ رمضان ١٤٣٢هـ

من المؤكد أن القارئ والمتتبع لمسيرة الشيخ الفضلي التأليفية سيقرأ أسبابًا ودوافع أخرى غير تلكم الدوافع المعتادة لدى الباحثين والكتَّاب، فقد جرت العادة أن يكتب أحدهم كتابًا لسدِّ فراغٍ في المكتبة العربية والإسلامية، وهو أهم الأسباب التي تشغل الكتَّاب لتقديم المعارف والبحوث العلمية إذا قطعنا النظر عن البحوث الجامعية التي يقدمها الطلاب والأساتذة لنيل درجة مقررة في مدارج الجامعة، كل ذلك يسير ضمن المناخ التقليدي للتأليف.

فيما نلاحظ على منهج الشيخ الفضلي في التأليف والكتابة كيانًا علميًّا غير خاضع لإفرازات مرحلة دون أخرى أو متطلبات جيل بعينه. وذلك لإدراك الشيخ الفضلي أهمية الكتاب والحاجة الفكرية الملحة في صفوف الجامعة وفي حلقات الحوزة العلمية لتغذية الأمة بالمعارف الهادفة وتطوير هذه المعرفة لتشكل سياجًا يحمي الأمة ويحافظ

على إرثها وتراثها بكل ما يشتمل عليه الفكر الإسلامي، سواءً في أجواء الجامعة أو في المناخ الحوزوي؛ ولو من باب التجديد في مناهج الدراسة الحوزوية بمادة علمية ممنهجة تُعينُ الطالب على طرق التفكير العلمية في تخصصات تتبنى تعليمها الحوزة.

لذلك نستعرض هنا كتاب «القراءات القرآنية» للدكتور الفضلي ـ حفظه الله، إذ يقول في مقدمة كتابه: «فقد لا يُخْتَلفُ في أن القراءات القرآنية من أغنى تراثنا الثقافي بالفكر العربي والإسلامي، ولاسيما في علوم اللغة العربية، كالأصوات و التصريف والنحو والمعجميات».

وهي المقدمة التي استعرض فيها كتبًا تناولت القراءات من ناحية نحوية أو لغوية، ثم نبه إلى مجال مهم مفقود في القراءات القرآنية، وهو تاريخ هذه القراءات والتعريف به، حيث يقول: «لم يُقَدَّر له أن يُوفَّى حقه من الدراسة والبحث وهو تاريخ القراءات القرآنية والتعريف بها... وقد انتهجتُ في كتابة ما أشرتُ إليه طريقة عرض نصوص أقوال العلماء والمعنيين في كل مسألة، مُقارنًا ومستدلًّا ومنتهيًا بعد ذلك إلى نتيجة هي رأيي في المسألة».

وقد جاء الكتاب مصنفًا في فصول ستة، وهي كالآتي:

- الفصل الأول: نشأة القراءات وتطورها.
- الفصل الثاني: التعريف بالقراءات.
- الفصل الثالث: مصادر القراءات.
- الفصل الرابع: الاختلاف في القراءات وأسبابه.
- الفصل الخامس: الاختيار في القراءات.

- الفصل السادس: المقياس القرائي.
- وفي الطبعة الثانية، زاد الدكتور الفضلي فصلًا سابعًا، بعنوان: القراءات والتجويد.

لكأنَّ الشيخ الفضلي ـ حفظه الله ـ كان يدرك مدى الإهمال الذي ينتاب علم التجويد؛ حيث لم يعطِه الكثير من الناس حقه من الأهمية والاهتمام، وخاصة بين طلاب الحوزة العلمية والذين بدورهم سيكونون أئمة الجماعة في المساجد والجوامع، وهم بلا شك قدوة الناس في ضبط القراءة القرآنية وتعليمها للصغار والكبار.

ولذا نجد الشيخ الفضلي حقق رسالة في التجويد بعنوان: «بداية الهداية في علم التجويد» للشيخ عبدالمحسن اللويمي الأحسائي، كما حقق كتابًا آخر، وهو: «شرح الواضحة في تجويد سورة الفاتحة»، لابن أم قاسم المرادي النحوي، والجدير بالذكر أن الشيخ الفضلي ـ رعاه الله ـ كتب كتابًا تدريسيًا في التجويد، أسماه: «الموجز في علم التجويد»، وأتمنى على الشيخ الفضلي أن يتاح له المجال في أن يكتب كتابًا شاملًا جامعًا لعلم التجويد وتاريخه وأهم رجاله، لأن الفصل السابع من كتاب القراءات القرآنية جاء موجزًا، لا يعرض لنا العلاقة التامة بين علم القراءات وعلم التجويد، مع أن الشيخ الفضلي أشار إلى هذا المعنى في آخر الفصل، حين قال: «والذي أُقِرُّ به أنَّ علم التجويد انبثق من علم القراءات في فترة مبكرة مقتصرًا على دراسة أحكام الأصوات ... والتي تتمثل بشكل واضح في مخارج الحروف وصفاتها».

والآن سنقف مع كل فصل من فصول الكتاب للتعريف به

واستعراضه بإجمال.

☐ ولنبدا بالفصل الأول: نشأة القراءات وتطورها

يقرّ الدكتور الفضلي بأدوار مختلفة قطعتها القراءات ضمن مراحل متداخلة بعضها في بعض، حتى استقرت علمًا من علوم القرآن الكريم، وتمثلت تلكم الأدوار التاريخية في نشوء تعليم التلاوة ثم حفظ القرآن كله أو بعضه، ومن بعد إلى رواية تُسند القراءة إلى الرسول الأعظم ﷺ، فمجال تخصص تجرد له أساتذة و تلامذة، ومنه إلى علم ذي قواعد وأصول و مؤلفات وأبحاث.

وقد وضع الدكتور هذا الفصل في مراحل وهي:

الأولى: تتمثل في إقراء جبريلُ النبيَّ ﷺ وتعليمه له.

الثانية: تمثلت في تطور القراءة حين كان النبي ﷺ يُعلِّمُ أصحابه ومن يدعوهم للإسلام القرآن.

الثالثة: تتمثل في أمر النبي ﷺ بتعليم بعض المسلمين بعضهم بعضًا بل وقيامه بهذا الأمر بنفسه.

الرابعة: عُرِفَ جماعة بتعاهدهم القرآن تلاوة وتدارسًا، وسُمُّوا بـ: «القُرَّاء»، وهذا يعني تحول قراءة القرآن لظاهرة دينية تُعنى بالتلاوة وليس التعليم فقط.

الخامسة: تصدى بعض الصحابة لحفظ القرآن كاملًا عن ظهر قلب.

السادسة: تحولت القراءة إلى تلمذة بالرجوع إلى حفظة القرآن للقراءة عليهم والأخذ عنهم.

السابعة: بدأت وجوه القراءة المختلفة تأخذ طرقها في الرواية ومساراتها في النقل.

الثامنة: تم تعيين القرّاء للأمصار في عهد الخليفة عثمان بن عفان حين بعث بمصحف لكل مصر من الأمصار الإسلامية بعد توحيد المصاحف، ومع كل مصحف قارئ يقرئ الناس.

التاسعة: إقبال نفر من كل مصر على المصحف العثماني وقراءته وفق ما قرؤوا على الصحابة.

العاشرة: تكوَّن أئمة للقراءة اعتنوا بالضبط أتم عناية؛ حتى صاروا أئمة يقتدى بهم ويرحل إليهم ويؤخذ عنهم.

الحادية عشرة: بدأ فيها التأليف في القراءات وتدوينها.

الثانية عشرة: كان تسبيع القرّاء والاقتصار على جمع قراءاتهم في مؤلف خاص سُمي بـ: (القراءات السبع)، لابن مجاهد التميمي (ت ٣٢٤هـ).

الثالثة عشرة: مرحلة الاحتجاج للقراءات في جوانبها اللغوية من صوتية وصرفية ونحوية وغيرها.

الرابعة عشرة: ظهر الشرح والتأليف على القراءات السبع.

الخامسة عشرة: تم تعّشير القراءات السبع، فصارت عشر قراءات؛ دفعًا لشبهة الأحرف السبعة الواردة في الحديث.

السادسة عشرة: تطور المقياس الضابط والمصنف للقراءات؛ للتفرقة بين القراءة الصحيحة وغيرها، وملخصه:

- صحة السند واتصاله بالنبي ﷺ.
- موافقة العربية ولو بوجه.
- موافقة الرسم العثماني ولو احتمالًا.

☐ الفصل الثاني: التعريف بالقراءات

وهو: «العلم بكيفية أداء كلمات القرآن واختلافها معزوًّا لناقلها». وقسموا القراءة إلى قسمين:

- **القراءات المتواترة**، وهي القراءات العشر.
- **القراءات الصحيحة**، وهذه تنقسم إلى:

أ. **الأُحادية**، وهي: الجامعة للأركان الثلاثة في المقياس القرائي. وهي على قسمين: المستفيضة وغير المستفيضة.

ب. **القراءات الشاذة** المخالفة للرسم العثماني.

وفي هذا الفصل، أشار الشيخ الفضلي إلى نقطتين مهمتين في هذا الفصل، وهما:

- **قراءة البدو وأمثلتها وحكمها.**
- **الفرق بين القراءة والقرآن**، حيث استعرض فيها أقوال العلماء القائلين بأن القرآن والقراءة حقيقتان متغايرتان، وأبرزهم أستاذه السيد أبو القاسم الخوئي، ثم أخذ في الرد عليه مستندًا على اجتهاده ـ حفظه الله ـ وخبرته بعلوم العربية كأحد أساتذتها. وهو بذلك

يتفق مع شيخ الطائفة الطوسي والطبرسي وصاحب روضات الجنات والشهيد الأول، حيث يقول: «إن القراءات العشر متواترة ومجمع على جواز القراءة بها».

الفصل الثالث: مصادر القراءات:

وخلاصته أن القراءات مصدرها النبي ﷺ، وأن الاختلاف في القراءة كان إمضاء وتقريرًا من النبي ﷺ؛ تيسيرًا وتوسعة على الأمة؛ وإمضاء النبي وتقريره كقوله وفعله كما هو مقرر في علم الأصول.

الفصل الرابع: اختلاف القراءات وأسبابه:

يرجع الدكتور الفضلي ذلك إلى عدة أسباب:

١. الاختلاف في حركات الكلمة، وهو على قسمين:

- اختلاف في حركات الكلمة بلا تغيير في معنى الكلمة وصورتها، نحو: ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِي﴾[1]، برفع القاف ونصبها.
- اختلاف في الحركات مع تغيير المعنى وبقاء الصورة، نحو: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾[2]، بتشديد الفعل وتخفيفه.

٢. الاختلاف في الحروف، وهو على أقسام ثلاثة:

- اختلاف في حروف الكلمة مع تغيّر معنى الكلمة وبقاء صورتها، نحو: ﴿وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا﴾[3]، وقُرِئ:

(١) سورة الشعراء، الآية: ١٣.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٣٧.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٥٩.

﴿نَنْشُرُهَا﴾.

- اختلاف في الحروف مع تغير الصورة وبقاء المعنى، نحو: ﴿كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾[1]، حيث قُرِئت: ﴿كَالصُّوفِ الْمَنْفُوشِ﴾.
- اختلاف في الحروف مع تغير المعنى والصورة، نحو: ﴿وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ﴾[2]، حيث قرئ: ﴿وَطَلْعٍ مَنْضُودٍ﴾.

٣. الاختلاف في التقديم والتأخير، مثل: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ﴾[3]، حيث قرئت: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الحَقِّ بِالْمَوْتِ﴾.

٤. الاختلاف في الزيادة والنقصان، مثل: ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾[4]، حيث قرئ: ﴿وَمَا عَمِلَتْ أَيْدِيهِمْ﴾.

ثم يذكر الدكتور بعض أسباب الاختلاف من مثل اختلاف إقراء النبي من صحابي إلى صحابي، وتقرير النبي لقراءة المسلمين وإمضائها، واختلاف نزول الآيات والرواية عن الصحابي، وكذا اختلاف اللهجات، وعدم نقط المصاحف وشكلها في وقت مبكر من فجر الإسلام، وأيضًا اجتهاد القرّاء في القراءة أحيانًا دون اعتماد رواية أو نقل عن النبي ﷺ.

الفصل الخامس: الاختيار في القراءات:

ويعني به اختيار أئمة القراء مقياسًا معينًا انتهجوه في الموازنة

(١) سورة القارعة، الآية: ٥.
(٢) سورة الواقعة، الآية: ٢٩.
(٣) سورة ق، الآية: ١٩.
(٤) سورة يس، الآية: ٣٥.

والاختيار بين قبول القراءة وردّها. فنافع المدني، مثلًا، قرأ على سبعين من التابعين، واختار مما قرأه ورواه عنهم ما اتفق عليه اثنان وترك ما سواه، وهكذا سائر القراء.

ثم نبه الدكتور إلى أن الاختيار ليس اختراعًا أو رأيًا اجتهاديًّا من لدن القارئ، وإنما هو اختيار مداومة وملازمة عند إمام من أئمة الإقراء، على حد تعبير الإمام ابن الجزري (ت ٨٣٣هـ) في كتابه النشر في القراءات العشر، ١/ ٥.

الفصل السادس: المقياس القرائي:

ويعني به أن القراء وضعوا مقاييس للقراءة المتواترة وغيرها، ليميزوا المتواتر من الشاذ، ومرت هذه المقاييس بمراحل مختلفة تطورت فيها وفق متطلبات علم القراءات وملابساته. حتى استقر العلماء على مقياس إمام المقرئين ابن الجزري حتى يوم الناس هذا.

الفصل السابع: القراءات والتجويد:

عرّف فيه الشيخ الفضلي القراءة والتجويد ووجوه الاتفاق بينهما ووجوه الافتراق، وما يدرسه كل علم على حده؛ حتى يخلص إلى إيجاز الفرق بينهما في كلمتين: «القراءة: لفظ، والتجويد: أداء».

وبعد هذا الفصل، يأتي على ذكر المراجع ثم الفهرس.

وفي نهاية المطاف، نؤكد على أهمية ما أضافه الدكتور الفضلي ـ حفظه الله ـ للدرس الشرعي في علم القراءات والتجويد والذي تم تأصيله بمنهج علمي متميز لينتفع به الطالب والأستاذ.

أدب التقديم.. الدكتور الفضلي نموذجًا

■ الأستاذ عبد الله بن علي الرستم ■

□ تمهيد

يَعتبرُ بعضُ القُرّاء أن التقديم (التقريظ) الذي يكتبه بعض العلماء أو المفكّرين لبعض الكتب نوعًا من أنواع الحصانة التي تُعطى للكتاب المقدَّم له، وحصانةً للمؤلِّف الذي يقدِّمُ أوراقه لأحد العلماء المعروفين على الساحة في تخصصٍ مّا، ذلك أنه ليس بالضرورة أن بعض الكتُب التي لا يوجد بها مقدمة لأحد الأعلام أنه لا يمتلك حصانة، بل يكفي بذلك أن يكون الكتاب والكاتبُ بأفكاره حصانةً لنفسه.

ولذا نرى الكثير من الكُتب التي لا يوجد بها تقديم لأحد الأعلام، يُدبر بعض القراء عن قراءتها، خصوصًا إذا كان الكاتب غير معروف، على خلافه في كتاب وكاتب آخر أثبت جدارته على الساحة التي يصول ويجول فيها بقلمه وفكره.

ثم ليس بالضرورة اللجوء إلى أحد الأعلام لوضع تقديمٍ لكتابٍ مّا، فكم من الكتب التي قدّم لها بعض الأعلام إلا أنها لا ترقى إلى المستوى المطلوب، فلربما كان ذلك التقديم كنوعٍ من التشجيع للكاتب

الذي يريد أن يستفيد من رأي ذلك العالم في الكتاب ليضع النقاطَ على الحروف، وذلكَ ليتسنّى له التنبّه إلى ما وقع فيه في مؤَلَّفٍ آخر إن واصل المسيرة، ولربما كان التقديم كنوع من التعريف بالكتاب والكاتب، خصوصًا إذا كان صاحب الكتاب قد وُسِّدَ الثرى وكتابه ما يزال مخطوطًا بين المخطوطات، أو كانت طبعته متهرِّئة لها أهمية في الميدان العلمي.

وبنظرةٍ خاطفةٍ إلى أرففِ المكتبات، ارتأيتُ أن أنظر إلى تلك التقديمات التي قدّمَ لها أحدُ أعلامِ هذه الأُمّة وأحد مجاهديها بالحركة الدؤوبة في تنشيط حركة الفكر على المستوى الحوزوي والجامعي والثقافي والفكري، والذي يعتبرُ بحقٍ وضعَ بصمةً على جبينِ الزَّمنِ بمؤلّفاته وتحقيقاته ومقدماته الكثيرة، وكذا جهودهِ الكبيرة في حثِّ الجيل الناشئ على الاستفادة من الطاقات التي يمتلكها كل إنسان، ذلك العَلَمُ هو سماحة العلامة الدكتور عبد الهادي بن العلامة الميرزا محسن الفضلي ـ حفظه الله تعالى ـ الذي يعتبر أشهرُ من نارٍ على عَلَم. فلقد قدّم هذا المجاهدُ لأكثر من ستين كتابًا في مجالات مختلفة، كالفقه، والتاريخ، والتراث، والتربية، واللغة، والأدب، والشعر، والمعاجم، والسِيَر، والعقيدة.. وغيرها من المجالات الكثيرة التي صَقلتْ أقلامًا كثيرة كُلّها تُدينُ بالفضلِ للعَلامة الفضلي ـ حفظه الله، ولرُبَّ قائل: إن هذا تطفلٌ على التخصصات التي ليست من شأن صاحب التقديم.

وللإجابة عن هذا التساؤل، أقول:

إنَّ المطّلع على سيرة الدكتور الفضلي المليئة بالعلم والجهاد في سبيل

المعرفة، وعلى تلك المؤلفات التي تجاوزت الستين مصنّفًا في مجالات مختلفة، باستثناء التحقيقات والمقالات المنشورة في الصحف والمجلات، لعرِفَ أن الدكتور الفضلي من الشخصيات النادرة في هذا الزمن بعطائه العلمي الرصين غير المنقطع، ولَعَلِمَ أنّ حياته مرهونةٌ لخدمة العلم والعلماء.

ولذا كان لزامًا على كُتُبِ التراجُمِ التي بلغت أكثر من عشرين كتابًا أن تذكره في مدوّناتها كشخصيةٍ علميّةٍ موسوعية بارزة في الساحة العربية والإسلامية في هذا العصر، ذلك أن كُتبه تُفصح عن نفسها، وهي حصانة لنفسها ولمؤلّفها، لما فيها من التجديد في الطرح، والابتكار في الفكرة، والمنهجية العلمية، وسلاسة الأسلوب، وغير ذلك مما له شأن الكتب ذات المستوى العلمي الكبير.

فهذه التقديمات على كثرتها ارتأينا أن تأخذ نصيبها من الدراسة الموضوعية قدر المستطاع، وهذه السطور المتواضعة أقدّمها وفاءً للعلامة الفضلي ـ حفظه الله ـ لما قدّمه للأمة الإسلامية من عطاء على جميع المستويات.

وعودًا على بدء حول من يتطفل على بعض التخصصات في كتابة التقديمات، يوجد هناك من وضع نفسه في هذا الموضع من كتابة التقديمات لبعض الإصدارات، نرى أن في ذلك جُرأةً على العلمِ والكلمة بتسنّمه منصب كتابة التقديمات. نعم، لو وضع نفسه موضعَ المشجّع والمحفّزِ لإصدارِ بعض الكتابات المنسيّة لكان أصوبَ في الفعل، بدلًا من إقحام نفسه في هذا الميدان الكبير، ولا من بأسٍ في كتابة

التقديمات ذات الاختصاص من إنسانٍ متخصص له وزنه في ميدانه.

☐ غرض التقديم

لعلَّ الغرض من هذهِ التقديمات التي تناولها الدكتور الفضلي كثيرة، فهي بالدرجة الأولى تنمّ عن خُلُقٍ عالٍ وصفاتٍ سامية في التعامل ينهلُ منها، وأبرزها التواضع والتواصل مع شريحةٍ كبيرة من المثقفين من أبناء الجيل الجديد. فهناك من يرفض كتابة تقديم لكتابٍ ما، وذلك بحجة عدم ارتقاء الكتاب إلى المستوى المطلوب، وهناك من يرى أن الكتاب لا يرقى إلى مستواه العلمي والثقافي، وغيرها من الأسباب التي هي بحاجة إلى تعاطٍ هادئ.

في حين نرى أن الدكتور ـ حفظه الله ـ يقدّم لمعظم الكتب التي وردت له، ولعلَّ المتابع لهذه التقديمات يرى أنها مختلفة باختلاف مواضيع الكتب، وكذلك بين أهمية موضوع الكتاب من عدمه. ولذا جاءت بعض التقديمات بعيدة عن مدح الكاتب بما ليسَ أهله، في حين أنه يستخدم أسلوبًا آخر، وهو: التشجيع الذي يمثّل جانبًا مهمًّا عند الدكتور وتأثيره النفسيّ لدى الكاتب. ولذا أتت بعض التقديمات تُشيد بالعمل مع دراسة موجزة حول فكرة الكتاب، كما في التقديمات التي اخترناها، وبعضها الآخر يقدِّمُ لها إضافةً وجيزة بحجم يتناسب مع حجم الكتاب وفكرته.

ولنا أن نضيف مسألة مهمّة هنا، وهي: إن الدكتور لا يقدّم من أجل التقديم، بل إن الغرض هو خدمة الفكر والثقافة، وهذا جليٌّ لمن يقرأ تلك التقديمات خصوصًا المطوّلة منها، فهي تنمُّ عن اهتمامٍ واطّلاع

من قبل الدكتور. وهذا راجع إلى رصيده الثقافي الكبير الذي أسسه بجهده من خلال تواصله مع ما يجول في الساحة الثقافية بجميع أبعادها، وربما كتب فيها بحثًا نشره في مجلة ما أو كتابًا، وهذا الاطلاع ليس اطلاعًا سطحيًّا، بل اطلاع ينم عن قراءة عميقة في ذات الموضوع، حتى أصبحت بعض تقديماته تشكل رؤية عميقة لفكرة الكتاب.

وسأمرُّ في هذه السطور مرورًا سريعًا على أبرز ثلاثة تقديماتٍ لثلاثة كُتب، وهي:

- أعلام هجر في الماضين والمعاصرين، السيد هاشم بن السيد محمد الشخص، الطبعة الثانية، ١٤١٦هـ، مؤسسة أم القرى للتحقيق والنشر - بيروت.
- الغدير في الكتاب والسنة والأدب، العلامة الشيخ عبد الحسين الأميني (١٣٢٠ - ١٣٩٠هـ)، تحقيق: مركز الغدير للدراسات الإسلامية، بإشراف آية الله السيد محمود الهاشمي الشاهرودي، الطبعة الثانية، ١٤٢٤هـ، مؤسسة دائرة معارف الفقه الإسلامي.
- النصب والنواصب، الشيخ محسن المعلّم، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ-١٩٩٧م، دار الهادي - بيروت.

☐ سبب الاختيار

سبب اختيار هذه المقدمات الثلاث هو:

(١) طول التقديم، بحيث تعتبر بحثًا متكاملًا، وما كان ذلك إلا لأهمية الموضوع لدى الشيخ - حفظه الله، إذ بالإمكان أن تكون بحوثًا

مستقلّة لو أراد الشيخ الرجوع إليها مستقبلًا. وليس دائمًا طول التقديم ينمُّ عن اهتمام أو سعة اطلاع، فلربما جاء التقديم في وادٍ والكتاب في وادٍ آخر، كما في بعض تقديمات الكتب الأخرى غير التي قدّم لها الشيخ.

(٢) تنوّع المواضيع، فلكلِّ كتابٍ من هذه الكتب التي قدّم لها الدكتور الفضلي موضوع مستقل عن الآخر. فكتاب (أعلام هجر) يتناول تاريخ منطقة برجالاتها ينتمي إليها الدكتور، وكتاب (الغدير) موسوعة ضخمة تتناول موضوعًا واحدًا أُعطي هذا الموضوع بعدًا شموليًّا من قِبَل المؤلِّف، أما كتاب (النصب والنواصب) فإنه يتناول قضية عقائدية تستحق الالتفاتة وتسليط الضوء.

وربما هناك الكثير من التقديمات الطويلة التي تناولت مواضيع غير التي اخترناها، ولكن لضيق الوقت وشبه جاهزية المادة مُسبقًا أحببنا المشاركة بهذه السطور القليلة.

☐ تقديمه لكتاب «اعلام هجر»

يعتبر كتاب (أعلام هجر) من الكتب الرائدة في مجال التراجم الشيعية لمنطقة الأحساء، ذلك أن هذه المنطقة مرّت بظروف مختلفة من الناحية الاقتصادية والسياسية والاجتماعية، مما جعل المؤلِّف وغيره من أبناء المنطقة أن يكرّسوا اهتماماتهم في استنطاق تاريخ هذه المنطقة بجميع جوانبه.

ونظرًا لأهمية المنطقة من الناحية الاقتصادية والسياسية، فهي ذات

أهمية دينية، حيث كانت إحدى المناطق التي أسلمت طوعًا في صدرِ الإسلام، وكذلك كانت إحدى المناطق التي بُذِرَ فيها التشيّع لأهل البيت ﷺ في النصف الأول من القرن الأول الهِجري، فكان منها رجالاتُ الحربِ الذين شاركوا مع أمير المؤمنين ﵇ في حروبه، وكان منها رجالات الرواية المبثوثة رواياتهم في كتب الحديث، وكان منها الشخصيات المهمّة على مرِّ التاريخ، ولم يكن تاريخ رجالاتها مدوّن إلا ذلك النزر القليل. فكان للدكتور الفضلي بصمةٌ في الكتابة عن تاريخ هذه المنطقة، لتأتي مقدمته قراءةً في كُتُبِ التاريخ والتراجم.

ففي تقديمه لموسوعة (أعلام هَجَر)، يتحدث عن الاستيطان البشري وعن السلالات البشرية التي كانت على امتداد الساحل الشرقي من الجزيرة العربية، ثم يأتي على ذكر شيءٍ من تاريخ المنطقة في صدر الإسلام والرسائل التي بعث بها النبي ﷺ إلى حكّام هذه المنطقة، ليجول بقلمه على الظروف السياسية التي حوّلت الاختلاف الإيجابي بين (مدرسة أهل البيت) و(مدرسة الصحابة) إلى تناحرٍ طائفي بيد الأمويين، مستعرضًا بعض الشواهد على أحقيّة أهل البيت ﷺ الذين كان لهم الفضل الكبير في نشر ثقافة الإسلام، مما ولّد هذا الاختلاف إلى إنشاء مراكز ومدارِس بحثية في المناطق الإسلامية والتي منها الأحساء، ثم يأتي على تشيّع وثقافة أهل الأحساء، الذين لم ينقطعوا عن المركز الإسلامي الأم المتمثل في المدينة المنورة، مما جعل أهل المنطقة ينهلون من كلا المدرستين، فممن أخذ عن مدرسة أهل البيت ﷺ أبناء صوحان العبدي، وحكيم بن جبلة وغيرهم كثير، ويستعرض بعض الأسماء الشيعية البارزة على مرِّ القُرون، موضحًا أن هذه المنطقة برز فيها

ثلةٌ من العلماء في كثير من العلوم والفنون. وهو في هذا التقديم البالغ (٢٣ صفحة) يستعرض أبرز النقاط المهمّة مع قليل من الشواهد، ذلك أن الكتابة في هذا الميدان تستلزم وقتًا، وهو - الفضلي - إذ لم يُوَفَّق لذلك رغم ممارسته الكتابة عن الأحساء، فإنه كان يأملُ من يكتبُ عن هذه المنطقة من أبناء المنطقة كما أوضح ذلك في التقديم. وقد تطرّق إلى أهمية الكتاب، حيث يوضح للقارئ ما إذا أراد التوسع والحصول على معلومات أوفى وأوفر في التعريف بهذه المنطقة ورجالاتها، فما عليه إلا قراءة ما كتبه يراع المؤلّف الذي وصفه في ص٣٣ بأنه: «بذل جهدًا كثيرًا».

ونقرأ في تلك الكلمات الموجزة أشياء كثيرة تنمُّ عن اطلاعٍ واسعٍ في تاريخ هذه المنطقة وعلمائِها، فلو أنه وضع شواهد لكل ما تطرق إليه لأصبح كتابًا داخل كتاب، ولخرج عن إطار التقديم، ذلك أنه أشار ص١١: «أنه شارك في «دائرة المعارف الإسلامية الشيعية» للسيد حسن الأمين ببحث عن الأحساء ركّز فيه على ذكر أعلامها في الفقاهة والخطابة والشعر، مقتصرًا على المهم وموجزًا بذكر العدد الأقل».

ويبدو لي أن الدكتور اقتصر على هذه المعلومات العامة، ذلك أن المؤلف تطرّق إلى شيء ليس باليسير عن تاريخ المنطقة قبل الإبحار في موضوع الكتابِ الأصلي وهو (التراجم)، باعتبار أنَّ موسوعةً كهذهِ تستلزمُ من الكاتب أن يكتب عن تاريخ المنطقة الموغل في القِدَم قبل أن يبدأ في موضوع الكتاب.

□ تقديمه لكتاب «الغدير»

لا يخفى على الباحثين من أبناء الأمة الإسلامية ما تشكله مسألة (الغدير) كحادثة تاريخية ذات مدلولاتٍ عدّة، حصلت في نهاية العقد الأول من صدر الإسلام، ويعتبر كتاب الغدير من أوسع الكتب التي تناولت هذه المسألة على المستوى الأدبي والتاريخي والروائي، وأهمية هذا التقديم يكمنُ في استقراء الحادثة استقراءً مختلفًا عما دأب عليه البعض. لذا يؤكد الدكتور في هذا التقديم بقوله ص١٧-١٨: «فالبحث في بيعة غدير خم ليس بحثًا طائفيًّا كما يظنُّ البعض، وليس إثارة لصراعٍ تاريخي كما يعتقد الآخرون. وإنما الأمر ـ في واقعه ـ مشروعٌ إسلاميٌ يهدفُ إلى تحديد وتعيين الطريق إلى السُنّة، يأمنُ سالكهُ من العثار، ويبرئ السائر على ذمته من عهدة التكليف الشرعي. ونحن إذ نطرحُ هذا لا نهدف منه إلى غلق باب النَّقدِ العلمي الموضوعي، وإنما نريد أن نقول: هذا هو واقع معتقدنا، وهذا ما نملكه من الدليل عليه والدليل إليه، ولأيِّ باحثٍ أن يُقارِنَ، ولكن بشرطِ الالتزام بقواعد النقد العلمي البنّاء والهادف إلى الخير».

ويؤكد مسألة أخرى تُثبت مدى متابعة الشيخ للمؤلِّف والمؤَلَّف، فهو إذ يعرّف بالمؤلف تعريفًا موجزًا في كلماتٍ عظيمة اختزلها في جُمَلٍ صغيرةٍ بقوّةِ بيانهِ وبراعةِ أسلوبه؛ لأنه ممن عرِفَ المؤلِّفَ عن قُرْبٍ ليوضّح مدى الجُهد الذي بذله المؤلِّف في هذه الموسوعة النادرة، ولم يغفل عن التعريف بالموسوعة في قوله ص١٩: «إن كتاب الغدير هذا من الظواهر العلمية والفنية المميزة والمتميزة في عالم التأليف، ذلك أنّ ما أُلِّف في الغدير يربو على ما أُلِّف فيما يماثله، ولم يقدَّر لأيِّ كتاب منها أن

يشتهر اشتهار هذا الكتاب، وأن يحتل المركز الذي احتلّه هذا الكتاب في قائمة المصادر الأصيلة، وأن يخلد مؤلّف من مؤلّفي تلك الكتب بسبب كتابه في الغدير مثلما خلّد الشيخ الأميني بسبب هذا الكتاب».

ويوضح بطريقة فنية معاصرة في تبويب الكتاب بقوله ص١٩-٢٠: «ويرجع هذا إلى ما تميّز به هذا الكتاب في المنهج والمادة، فقد اعتمد الشيخ الأميني طريقة الاستقراء وطريقة التحليل النقدي، وكرّس كل طاقته لاستعراض ما له علاقة بالحديث والحادثة، وبالظروف السياسية والاجتماعية التي أحاطت ورافقت هذه الحادثة».

ويؤكد الدكتور بأن المؤلف استخدم المنهجية، والموضوعية، والصراحة والشجاعة، والدعوة إلى الوحدة الإسلامية، والمثابرة والصبر، والموسوعية في الثقافة، وأسلوب التعبير، وثوابت البحث الإمامي، ولكل محورٍ من هذه المحاور التي استعرضها الدكتور استلزمت منه وقتًا ليس باليسير ليخلص إلى فرز هذه المحاور من الموسوعة، والتي أوجز الحديث عنها وابتعد عن الشواهد.

كذلك أوضح الدكتور إلى طريقة المؤلف وسبب تأليفه والنتائج التي توصل إليها، وحاول إثباتها، وكل شيء من شأنه متعلق بهذا الكتاب الموسوعي الذي هو بحق بحاجة إلى لجنة علمية تتحدث عنه، وقد عشتُ وقتًا ليس باليسير مع هذه الموسوعة المهمّة، فأستطيع القول بأن كل محور من هذه المحاور يستلزم شواهد من الكتاب، ويبدو لي أن الدكتور ـ حفظه الله ـ أوجز إيجازًا كبيرًا في التعريف بالمؤلِّف والمؤلَّف، فقد بلغ عدد صفحات تقديم الدكتور (١٦ صفحة).

□ تقديمه لكتاب «النصب والنواصب»

بلغةٍ راقية يتحدث الدكتور في هذه المقدمة حول أهمية هذا الموضوع الذي يتهيّبه بعض الكُتّاب، فالموضوع فيه التباسٌ عند بعض الباحثين والمفكّرين من حيث انصراف هذا المصطلح إلى فئةٍ من الناس، حيث يؤكدُ في مقدمته ضرورةَ تناول مثل هذه المواضيع لتستبينَ الحقيقة؛ لأن كثيرًا من الباحثين يبتعدون عن بعض المسائل التي يعطونها حساسيّة من خلال عدم توفيقهم في الكتابة عنها، بينما إذا أُعطيت حقّها من الكتابة والبحث العلمي فإنها ستكون مصدرًا مهمًّا، فيقول في ص٥: «ومن هنا كان لا بدَّ من أن تُدرس ليُماز الخبيث من الطيّب، ويعاد للعقيدة نقاؤها، وللتشريع جمالَ صورته، وللأمّةِ سلامتها وعافيتها، وبخاصة أننا نعيشُ الآنَ يقظة الضمير وصحوةَ الفكر، مما يضخم أمامنا المسؤولية الشرعية تجاه حضارتنا وتجاه أمتنا».

ثم يشرع الدكتور في إضافة بعض المعلومات المتعلقة بالمفهوم الأساسي (الإمامة) والتي انطلقت منها مشكلة (النّصب والنواصِب)، لينتقل بهذه المسألة إلى توضيح مفهوم النظرية السياسية للحُكْم وفق مذهب أهل البيت ﷺ، ويوضح الخللَ الذي أصاب شريحةً من الأُمّة من خلال «التقليل من شأن أهل البيت ﷺ، وخلخلة كيان الشيعة من الداخل» [ص٨]، موضحًا أن لهذه المشكلة بواعث سياسية انصبّت في نقاط كثيرة، منها: «المنع من تدوين الحديث؛ لئلا تنتشر أحاديث فضل أهل البيت، ومعاقبة من يروي فضائل علي وآل علي، وإبعاد أتباع أهل البيت عن الوظائف والمناصِب الحكوميّة، ووضع الحديث في مناقب الخلفاء» [ص٩]، مما حدى بأولئك الوصول إلى الغلوّ عن هذه

الممارسات.

وتقديم الدكتور لهذا الكتاب ليس بمعزلٍ عما يجري في الساحة الثقافية وما تصدره دور النشر من كتب قديمة وحديثة حول أدقّ بعض المفاهيم المتعلقة بـ «النصب والنواصب»، فيناقش ما وردَ فيها بصبغةٍ علمية دون تهكمٍ على أصحاب تلك المؤلفات، موضحًا الخلل الذي وقع فيه أولئك المصنّفون، ومستعرضًا الشواهد التاريخية والروائية التي انبثقت منها هذه المصطلحات كالنصب والغلو كنتيجة وصل إليها أولئك الذين أدبروا عن خط أهل البيت ﷺ، وهذا إن دلَّ فإنما يدلّ على تضلّع الدكتور في قراءة المواضيع بشتى الطُرق من خلال اطّلاعه على التُراث الفكري والثقافي لمسيرة وحركة التاريخ والأحداث التي تمر بالمسألة الواحدة.

ولا ينسى في إشارةٍ لطيفةٍ إلى المؤلف بثناءٍ كبير، بقوله في ص٦: «فجمع الشئَ الكثير مما يرتبط بمفهوم «النصب والنواصب»، ونظّمه، وألقى عليه من الضوء العلمي الكاشفِ الشيء الكثير أيضًا»، ويضيف: «وحسبه أنه راد الساحة ليكسر جمود التهيّب من الدخول إليها، وحسبهُ أن كان الجريءَ في إزاحة الستار ليكشف ما كان يدورُ وراءهُ مما كان للأمة أو عليها». حيث وصف هذا الكتاب بالعمل الموسوعي، وأن مؤلفه بذلَ فيه الجُهْدَ المُضني في دراسة المفهوم، ويرى أن مثل هذه الدراسات بلا شك ستفتح البابَ لدراساتٍ أخرى مماثلة، موضحًا النتيجة التي وصل إليها المؤلّف.

وختامًا، أرجو أن أكون قد وفّقتُ لهذه المسألة التي ربما تعتبر تتمّة

لما تطرق له كاتب آخر، وهو: الشيخ عبد الله اليوسف، حيث تزامنت فكرة الموضوع مع تكريم العلامة الفضلي في مهرجان (الفقيه المثقف)، وقد وفق للكتابة والمشاركة، وكان الكسل والتأخير من نصيبي الذي أرجو تجاوزه في كتابات قادمة.

جهود الشيخ الدكتور الفضلي في دراسة العربية وتدريسها: العرض، التعريف، الملامح

■ الأستاذ جابر بن عبد الله الخلف ■

١١ رمضان ١٤٣٢هـ

الهدف من الكتابة في هذا العنوان هو الرغبة في قراءة الأبحاث والدراسات اللغوية التي أنجزها الشيخ الدكتور عبد الهادي الفضلي على مدى أكثر من ثلاثة عقود من الخبرة في دراسة العربية وتدريسها، وهذه القراءة ضرورية ومهمة للاطلاع على قرابة الثلاثين كتابًا في مختلف لغات العربية وآدابها.

□ عبد الهادي الفضلي ودراسة العربية

حين عزمتُ على إعداد هذه المشاركة كان أمامي عدة خيارات، فاخترتُ منها أن أتحدث حول عنوان: «جهود الشيخ الدكتور عبد الهادي الفضلي في دراسة العربية وتدريسها»، فقمتُ بقراءة ما تيسر لي من كتبه حول عنوان الموضوع، مثل: «دراسات في الفعل»، و«التذكرة

في اللغة العربية وآدابها»، و«البحث اللغوي في النجف الأشرف»[1].

والاطلاع على بعضها ولو لمامًا، مثل: «فِهرَسْت الكتب النحوية المطبوعة». ومنها ما كنتُ قد قرأتُه سابقًا، مثل: «مختصر النحو»، و«مراكز الدراسات النحوية»، و«تهذيب البلاغة»، و«الشيخ محمد أمين زين الدين ودوره في إنماء الحركة الأدبية في النجف الأشرف وتطويرها»، وغير ذلك من مقالات أو دراسات من هنا وهناك.

كما قمتُ بقراءة فهرست مؤلفات الشيخ الدكتور عبد الهادي الفضلي، المنشور بمجلة الكلمة، العدد (٥٥)، خصوصًا ما يتعلق بحقل علوم العربية وآدابها.

ولكن يبدو أنه من الصعب جدًّا الحديث في مقالة مختصرة في جلسة محددة الوقت والزمان عن تلكم الجهود التي قدمها الدكتور الفضلي في دراسة العربية وتدريسها لغة ونحوًا وصرفًا وأدبًا وعروضًا ونقدًا

(١) قرأتُ كتاب «الدرس اللغوي في النجف الأشرف» الصادر عن شركة المصطفى، ط١، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م، وهو «دراسة جديدة ورائدة» كما ورد في التقديم، وكنتُ أحسبُ الكتاب دراسةً في مناهج الدرس اللغوي في النجف ومستوياته، وأثره في فهم النص الشرعي باعتبار النجف مركزًا من مراكز الدراسات الشرعية واللغوية، ولكن بعد قراءته تبين أن الكتابَ عبارة عن (فهْرَسْت) بأسماء المؤلفين في الدرس اللغوي وعناوين كتبهم، والتعريف بها، وهو جهد قيّمٌ، وقد أولى المؤلفُ - شافاه اللهُ وعافاه - الشيخَ أبا جعفر محمد بن الحسن الطوسي (ت ٤٦٠هـ)، والمحققَ رضيَّ الدين محمد بن الحسن الاستراَبادي (ت ٦٨٨هـ) بالغَ عنايته وبليغَها حيث درسَ جهودهما النحوية واللغوية وآراءهما دراسة وافية، خصوصًا (رضي الدين الاستراَبادي). وقد عرّفَ الكتابُ وترجمَ لـ (٢٠٨) من الشخصيات النجفية ذات الجهود اللغوية من خلال ما استعرضه من كتبها في الدرس اللغوي.

وتاريخَ أدب. ولكن «ما لا يُدَركُ جلُّه، لا يُتركُ كُلُّه»، وانطلاقًا من ذلك أحببتُ المشاركة في هذا العنوان، ولو بشكل موجز.

منذ نعومة أظفاره كانت العربيةُ ولعَهُ وعشقه قبل أن تكون تخصصه، ولعلَّ لحضور المكان بعبقريته الجغرافية دورًا مؤثرًا في ذلك، فقد كان مسقط رأسه في مدينة (البصرة) في العراق عام ١٣٥٤هـ ـ ١٩٣٥م، ولقد كانت البصرةُ مدينة رائدة في دراسة العربية وتدريسها في مساجدها وجوامعها منذ أيام الخليل بن أحمد الفراهيدي، وما قبله وما بعده.

في مدينة (البصرة)، درس الشيخ الدكتور عبد الهادي الفضلي معظم مقررات مرحلة المقدمات الحوزوية، وعن البصرة يقول الشيخ الفضلي: «حافظتِ البصرةُ على إرثها وتاريخها الحضاري منذ تأسيسها، ومنذ رجالها الأوائل: الفرزدق، والجاحظ، وبشار، والخليل، ففي كل أزمانها التي تعاقبت عليها كان للبصرة حركتها الثقافية ...، وخصوصًا في الجوانب اللغوية والأدبية؛ حتى يمكن تسميتها: (مدينة اللغة العربية وآدابها)»[1].

هذا ما كان من دور المكان، كما هي عبقرية العراق في مدنه وقراه من الموصل شمالًا حتى البصرة جنوبًا، حيث يضجُّ بالعبقريات العربية المتقدة دومًا باللغة؛ حتى كأن اللغة هوية المكان، أليست البابلية والسومرية والعربية من لغات المكان؟!

(١) الفقيه المثقف، ص ١٩.

ولهذا كان للعراق النصيب الأوفى في نشأة علوم العربية ودراستها. فقد تأسست في العراق سبعة مراكز لدراسة العربية وتدريسها منذ بداية عصر التدوين، كما يذكرها الشيخ الدكتور الفضلي في كتابه «مراكز الدراسات النحوية»، هي: (البصرة)، و(الكوفة)، و(بغداد)، و(النجف)، و(الموصل)، و(الحلة)، و(أربيل).

ثم يأتي دور (الأم السيدة عقيلة البطّاط)، وهي من البصرةِ أيضًا. فهي تعرف معنى اللغة بوصفها (أُمًّا)، كما تعرف معنى أن تولد في البصرة، وتلد طفلها فيها، فاحتضنت الطفل اليانع منذ نعومة أفكاره ثلاث حواضن: (الأم) و(البصرة) و(اللغة)، فأين يذهبُ من قدره؟! أخذته والدته مرةً معها، وهو لا يزال صغيرًا، وكانت في زيارة للنجف الأشرف، فابتاعت من دكان صغير لبيع الكتب يقع في أول سوق العمارة كتابًا صغيرًا في النحو يسمى: «الآجُرُّوميَّة»[1]، وبعد عودتها من النجف إلى البصرة أعطته والده الشيخ المولع باللغة ليُدرِّسه الكتاب، وكان لتوّه قد أكمل الصف الرابع الابتدائي في التعليم الحكومي، ثم توالت الدروس من قبل والده في متون النحو وشروحه من (قطره)، ثم (ألفيته)، ثم (مغنيه)، ثم أتبع ذلك متون الصرف وشروحه من (مراحه)، ثم (شافيته)، ثم (مقصوده)، ثم أتبع ذلك متون البلاغة

(١) صاحب الآجُرُّوميَّة: هو أبو عبد الله محمد بن داود الصنهاجي النحوي المشهور بابن آجُرُّوم ـ بفتح الهمزة الممددة وضم الجيم والراء المشددة. ومعناه بلغة البربر: (الفقير الصوفي)، وُلِدَ ﷺ بمدينة فاس بالمغرب العربي سنة ٦٧٢هـ قال ابن العماد في شذرات الذهب، ج٣/ ٦٢ عن ابن آجُرُّوم: «نحوي مقرئ، له معلومات من فرائض وحساب وأدب بارع، وله مصنفات وأراجيز، توفى ﷺ بفاس سنة ٧٢٣هـ».

وشروحها من (مختصرها)، ثم (مطولها)، ثم (جواهرها).. وهكذا، حتى استبدَّ الولعُ الفطريُّ فاستحال تَولُّعًا واشتغالً.

ثم كان الأثر البالغ لأستاذه الشيخ الفقيه الأديب محمد أمين زين الدين، وأخيه الشيخ علي في تغذيته بآداب العربية وأساليبها؛ حتى اشتد عوده، ونضجت سليقته اللغوية والأدبية واكتمل ذلك التولُّع بالدراسة الأكاديمية، فقد درس في مرحلة البكالوريوس النحو والصرف على يد الشيخ عبد المهدي مطر، ودرس تاريخ الأدب العربي على يد الدكتور عبد الرزاق محيي الدين، ثم تبع ذلك دراسته في مرحلة الماجستير النحو لدى الأستاذ كمال إبراهيم، وفقه اللغة لدى الدكتور إبراهيم السامرائي، والبلاغة لدى الدكتور عبد الرزاق محيي الدين، والأمثال العربية لدى الدكتور صفاء خلوصي، وتحقيق المخطوطات لدى الدكتور مصطفى جواد، وكان لأساتذته في هذه المرحلة كما في المرحلة التي قبلها بالغُ التأثير في دراسته وتعميقها، خصوصا الدكتور مصطفى جواد، والدكتور إبراهيم السامرائي.

ثم تلا ذلك تحضيره لرسالة الماجستير بعنوان «أسماء الأفعال والأصوات» ١٣٩٠هـ- ١٩٧٠م، بإشراف الدكتور إبراهيم السامرائي، ومناقشة الشيخ عبد المهدي مطر، والأستاذ كمال إبراهيم، والدكتور مهدي المخزومي. (وقد شملت الدراسة ٨١ اسمَ فعلٍ استوعبها المؤلف دراسة وبحثًا واستقصاءً في مصادرها من أُمَّاتِ الكتب النحوية واللغوية).

بعد ذلك أكمل دراساته الأكاديمية العليا في (كلية العلوم) بجامعة

القاهرة بمصر، وذلك بتحضير رسالة الدكتوراه، وكانت بعنوان «قراءة ابن كثير وأثرها في الدراسات النحوية» عام ١٣٩٥هـ ـ ١٩٧٥م، بإشراف الدكتور أمين علي السيد، ومناقشة كل من: الدكتور الشيخ إبراهيم نجا (وكيل جامعة الأزهر)، والأستاذ علي النجدي ناصف (عضو مجمع اللغة العربية).

□ الشيخ الدكتور عبد الهادي الفضلي وتدريس العربية

لم يعد درسُ العربيةِ ولغاتِها وآدابِها ونحوِها وصرفِها متوقفًا عند حد التحصيل العلمي وحسب، وإنما غدا اهتمامًا خاصًّا، واجتهادًا متواصلًا، ولم يتوقف على درس المتون التراثية الأصيلة، بل أصبح موصول الوشائج بالدرس اللغوي الحديث درسًا وتحصيلًا، قراءةً وكتابةً، توضيحًا وتدريسًا، تهذيبًا وتجديدًا، تعلُّمًا وتعليمًا.

وقد مارس الشيخ الدكتور عبد الهادي الفضلي تدريس العربية ونحوها في الحوزة العلمية بالنجف، فقد درّس «قطر الندى» وشرحه، و«ألفية ابن مالك» وشرحها، و«مغني اللبيب عن كتب الأعاريب» وتفاصيله، كما درّس شرح النظام للنيسابوري في الصرف، ودرّس علوم البلاغة من خلال «مختصر المعاني»، و«المطول» للتفتازاني، و«جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع» للسيد أحمد الهاشمي. وإلى جانب الحوزة، مارس تدريس نحو العربية وصرفها أكاديميًّا بجامعة الملك عبد العزيز في مدينة جدة. فهو، حسب ما صرح به في إحدى محاضراته، قد مارس تدريس العربية لمدة ثلاثين عامًا.

ولا مِرْيَةَ في أنه أصبح خبيرًا في مجال تخصصه، وموسوعيًّا في

دراساته اللغوية والنحوية والأدبية، ومختلف التخصصات الأخرى ذات العلاقة بدراسة العربية وتدريسها.

وقد أشرف على رسائل علمية، مثل:

١. من الظواهر النحوية للحروف المستخدمة في القرآن الكريم (دكتوراه)، صباح بافضل، كلية التربية للبنات بجدة (إشراف بالاشتراك مع د. مصطفى الصاوي الجويني).
٢. الرومانسية عند بعض الشعراء السعوديين (ماجستير)، الشفاء بنت عبد الله زيني عقيل، كلية التربية للبنات بجدة (مناقشة).
٣. الأجوبة المرضية عن الأسئلة النحوية، للغرناطي، (ماجستير)، تحقيق سلامة عبد القادر، كلية الشريعة، جامعة أم القرى (مناقشة).

وقد كتبت بعض المقالات حول حقل اهتمام الشيخ الدكتور عبد الهادي الفضلي بالعربية دراسةً وتدريسًا، ولكنها تحتاج إلى قراءة نقدية ومراجعة، وهي كالآتي:

١. الدكتور عبد الهادي الفضلي علم من أعلام العربية وفخر للنحويين السعوديين المعاصرين، محمد خضر عريف، مجلة الموسم، العددان ٩-١٠، ١٤١١هـ- ١٩٩١م.
٢. أسماء عربية، الدكتور عبد الهادي الفضلي، الأستاذ حسين بافقيه.
٣. الدكتور عبد الهادي الفضلي النحوي الأكاديمي، الأستاذ جعفر العمران.
٤. الدكتور عبد الهادي الفضلي عالم اللغة والنحوي السعودي، عبد

الإله صالح آل علي، بحث جامعي بإشراف الدكتور حمزة المزيني، وهذا الأخير أكبرها حجما، وأشملها.

□ ملامح عامة حول منهج التأليف في حقل العربية وتدريسها

من خلال قراءتي في كتب الشيخ الدكتور عبد الهادي الفضلي، يمكنني تسجيل الملاحظات الآتية حول الملامح العامة التي ينتهجها في كتاباته وتأليفه:

(١) حرصه بشكل دائم على حضور «العربية» في كتاباته ومحاضراته وإشاراته، وذلك من خلال التعريف بالمفاهيم والمصطلحات العلمية تعريفًا لغويًّا، سواء كانت في الفقه، أو الأصول، أو الأدب، أو التاريخ، أو النقد. وهي ـ بلا ريب منهجية علمية لا يكاد يحيد عنها، باعتبار أن (العربية) نحوًا وصرفًا ولغةً تشكل ركيزة أساسية سواءً في عرض الأفكار وتوضيحها، أم في بسط الآراء وشرحها، أم في نقل الأقوال ونقدها.

ومثال ذلك ما نقرؤه في بحثه (المال دراسة فقهية مقارنة)، أو كتابه (الغناء دراسة فقهية الحقيقة والحكم)، أو كتابه (الموجز في علم التجويد)، أو كتابه (التقليد والاجتهاد)، أو بحثه (بيع العربون)، أو بحثه (التبليغ الإسلامي)، وغير ذلك، فهو يهتم اهتمامًا خاصًّا في شرح المعنى اللغوي للمفاهيم محل الدراسة، بل ربما يستفيضُ في بيان وجوه المعاني اللغوية، كما في تعريفه بمصطلح (التبليغ)، وهذه نقطة مهمة من نقاط اهتمامه بمنهجية البحث العلمي، وتأصيل المفاهيم تأصيلًا لغويًّا، ثم اصطلاحيًّا.

وقد يتبنى رأيًا فقهيًّا، أو يجتهد في استخراجه بناء على الاختلاف في تأصيل المفردة لغويًّا، كما في مناقشته لمادة (قَوَمَ)[1] اللغوية أثناء بحوثه الفقهية.

(٢) اهتمامه الخاص بالتنوع الكتابي في حقول العربية المختلفة، سواء في اللغة، أو الأدب، أو النحو، أو الصرف، أو العروض، أو تاريخ الأدب، أو تحقيق التراث اللغوي المخطوط. وهذا جليٌّ وواضح من خلال ثَبْتِ كتبه ومسردِها، وقد تجلّى ذلك بشكل أوضح بتأليف كتابٍ خاصٍ حول ذلك بعنوان (تحقيق التراث)، يحكي تجربته في هذا الجانب، وكان لأستاذه الدكتور مصطفى جواد بالغ الأثر في هذا المجال بالذات.

وربما تناول البحث ـ أحيانًا ـ بأسلوب العرض التاريخي الموجز، كما في كتابه مراكز الدراسات النحوية، وهو لا يقصد (الاستقصاء

(١) يقول السيد محمد الحسيني: «وربما يتفردّ الشيخ الفضلي في هذه المسألة بقراءة أقرب ما تكون إلى السياق القرآني، إذ إنه بعد الإشارة إلى ما يعنيه هذا اللفظ (قوّامون) وأنه ليس حقيقة شرعية ولا مصطلحاً فقهياً، أشار إلى ما ورد في القرآن في مادة (قَوَم)، وانتهى إلى ما أفاده نصًّا: «ونستفيد من هذا أن القوّامية لا تعني القيمومة التي فهم منها المستدلون التسلط والتصرف، وإنما تعني إناطة مسؤولية رعاية مصالح النساء وتدبير شؤونهن بالرجال. ومن أظهر مصاديق تلك الرعاية وذلك التدبير، هو وجوب إنفاق الرجل (الزوج) على زوجته، وهذا يعني أن الإنفاق من القوّامية، وليس من القيمومة، وقد يرجع هذا إلى أن أكثر المجتمعات ـ ومنها المجتمعات العربية التي نحاول معرفة معنى القوّامية لديهم ـ مجتمعات ذكورية، تحمِّل الرجل مسؤولية رعاية مصالح المرأة وتدبير شؤونها، وهم لا يرمون من هذا إلى أن تلك الرعاية وذلك التدبير هما من نوع الولاية السلطوية، وإنما هما شأن من شؤون تركيبة المجتمع ... ونخلص من كل ذلك إلى: أن القوّامية غير القيمومة». انظر: الشيخ الفضلي فقيهاً، بقلم: السيد محمد طاهر الياسري الحسيني.

التام، أو الإحصاء المستوعب) لعنوان البحث، وإنما يفتح الباب لمن أراد أن يكمل هذا الجانب بشكل أكثر استقصاء واستيعابا، وفي كتابه الآخر (التذكرة في علوم اللغة العربية وآدابها) شيء كثير من هذا المعنى.

(٣) اهتمامه بعمل المشجرات والجداول والتصنيف العلمي أثناء التقسيم للأنواع، ويعبر عنه أحيانًا بالخلاصة كما في كتابه (مختصر النحو)، ويرمي من ذلك إلى إعادة التركيز على النقاط الأساسية في الموضوع؛ لاستيعابها وسرعة تذكرها.

(٤) اهتمامه بعمل الإحصائيات ومراعاة التصنيف العلمي أيضًا في دراسة الظواهر، ويمكن أن يكون كتابه (فهرَسْت الكتب النحوية المطبوعة) مثالًا على ذلك، فقد احتوى الكتاب على ١٢٦٥ عنوانًا لكتاب نحوٍ عربي مطبوع حتى عام ١٩٨٦م.

(٥) انعكاس أثر تجربته في التعليم الحوزوي والأكاديمي على منهجه في التأليف اللغوي. فقد استفاد الأصالة والعمق من التعليم الحوزوي، كما أنه استفاد المعاصرة والجدة وحسن التنظيم والاتساق وعمق التخصص من تعليمه الأكاديمي، وهذا يبدو واضحًا في كتبه بشكل عام، وفي كتبه في علوم العربية وآدابها بشكل خاص.

(٦) محاولة الجمع بين رأي النحويين ورأي الأصوليين ورأي المدرسة اللغوية الحديثة في مناقشة المسائل اللغوية أو النحوية. ويتضح هذا المعنى من خلال هذين المثالين من كتابه (دراسات في الفعل):

الأول: في تناوله لموضوع اشتقاق الفعل، وعرضه الاختلاف بين النحويين البصريين والكوفيين في مسألة أصل الاشتقاق، هل هو الفعل

أم المصدر، واستعراضه لاشتقاق العرب من أسماء المعاني وأسماء الأعيان (أذهب من الذهب، فضض من الفضة، أبحر من البحر، أثلج من الثلج)، واشتقوا أيضًا من أسماء الأعيان المعربة (هندس، درهم، فهرس)، كما أشار أيضًا إلى ميل الباحثين المحدثين، مثل: د .مصطفى جواد، ود. مهدي المخزومي، و د. إسرائيل ولفنسون إلى المدرسة الكوفية في مقاربتها لما تبنته المدرسة اللغوية الحديثة، والدرس اللغوي المقارن بين اللغات السامية، ثم ينقل في ص٣٩ رأي مدرسة النجف الأصولية الحديثة بأن مبدأ الاشتقاق هو (المادة)، «ويريدون بالمادة الحروف التي تتألف منها المشتقات من دون ملاحظة وضع الهيئة والدلالة على النسبة، كمادة (ك. ت. ب)».

ويقول: «غير أن المشكلة لا تزال قائمة؛ لأنها مسألة تاريخية، وليست مسألة عقلية تخضع للتصور العقلي، والقواعد المنطقية». ويشير فيما بعد إلى ما انتهى إليه تطور المسألة لدى اللغويين المحدثين الذي أفادوا من مناهج البحث الحديث في دراسة اللغات دراسة مقارنة وتاريخية. وكان الرأي الذي انتهوا إليه هو أن أسماء الأعيان أو أسماء المعاني الحسية هي أصل الاشتقاق.

وفي نهاية المطاف، يخرج بالنتيجة النهائية بعد عرض الأقوال ومناقشتها إلى القول ص٤٥: «إن الرأي الذي يتمشى وطبيعةَ اللغة هو رأي المدرسة اللغوية الحديثة القائلة بأن مبدأ الاشتقاق هو اسم المادة، وأن الفعل هو الآخر مشتق منها».

الثاني: في مسألة تقسيم الفعل، فقد قسم النحويون ـ حسب

سيبويه ـ الفعل إلى ثلاثة أقسام، هي: «ما مضى (الفعل الماضي)، ما يكون ولم يقع (فعل الأمر والفعل المضارع الدال على المستقبل)، ما هو كائن لم ينقطع (الفعل المضارع الدال على الحال)، ...».

ثم يقول: «أما ما قاله الأصوليون (حسب صاحب الكفاية): إن استقراء أمثلة الفعل تنهي ـ بداهة ـ إلى أن (الأمر) لا دلالة فيه على الزمان، وأن دلالته مقتصرة على طلب إيقاع الفعل فقط».

ثم استعرض «المآخذ التي أخذها الأصوليون على تقسيم النحويين للفعل إلى ثلاثة أقسام مع سلامة الأساس، ولكن الاشتباه في التطبيق، فالأمثلة المأخوذة من الذهاب مثلا هي (ذهب) (يذهب) (اذهب)، فالأول يدل على وقوع حدث الذهاب في الزمان الماضي، والثاني يدل على وقوع حدث الذهاب في الزمان الحاضر، والثالث يدل على طلب إيقاع حدث الذهاب».

ويضيف: «ويرجع هذا ـ كما يقول الأصوليون ـ إلى أن صيغ الأوامر ألفاظ إنشائية خالصة، والإنشائيات لا اقتران لها بالزمان».

ثم استعرض ص٥٤ جملة من الآيات القرآنية تدل سياقاتها على أن الأفعال يأتي كل منها لزمان غير زمانه إذا اقترن بما يصرفه إلى ذلك، مثل: دلالة الماضي على المستقبل، دلالة المضارع على المستقبل، ثم ينتهي إلى النتيجة النهائية في خاتمة الفعل، وهي أن الفعل ينقسم إلى قسمين: ماضي وحاضر.

(٧) مراعاة المنهج النحوي القديم والمنهج الحديث في مناقشة الآراء، ففي تناوله لتعريف الفعل ومدلوله، استعرض آراء النحاة

القدماء، وذكر طرائقهم في تعريف الفعل، وهي: التعريف بالمثال (سيبويه، أبوبكر الزبيدي)، والتعريف بالقسمة أو الإسناد (أبوبكر ابن السراج، ابن مالك، بدر الدين محمد ابن الناظم، الأشموني)، والتعريف بالحد (الكسائي، ابن كيسان)، والتعريف بالعلامة أو الدلالة (أبو القاسم الزجاجي، أبو علي الفارسي..).

وفي ص١٦، يقول: «وبعد هذا العرض المقتضب لطرائق تعريف الفعل في المنهج النحوي القديم؛ لا بُدَّ من محاولةٍ لاستجلاء مدلول الفعل في ضوء المنهج الحديث (...) باعتبار أن الفعلَ وحدةٌ لفظيةٌ؛ أي مجموعة أصوات ذات نظام معين يأخذُ وظائفَ معينةً في الاستعمال اللغوي الاجتماعي، فيأخذ وظيفةً دلاليةً، وأخرى صرفيةً، وثالثةً نحويةً، ومن خلال معرفتنا لهذه الوظائف نستطيع أن نتبين مدلول الفعل بوضوح».

(٨) مراعاة الاختيار بين مختلف المدارس النحوية في تبني الآراء وترجيحها، فهو ليس مقلدًا للمدرسة البصرية، رغم أنها (مسقط رأسه)، وإنما يستعرض الآراء ويناقشها حسب المنهج العلمي، فهو يقول في كتابه دراسات في الإعراب، ص١٥٧: «وبعد هذا التطواف مع الإعراب تعريفًا ونقدًا، والذي كَوّفْتُ فيهِ وبَصّرْتُ مغرقًا مع تاريخ الفكر النحوي في ترامي أزمانه ثم عدت فَعَاصَرْتُ متعاملًا مع الفكر النحوي الحديث في تجاربه ونقداته وآراء رائديه».

ما زال الشيخ الدكتور عبد الهادي الفضلي مدرسةً من مدارس تعلّم العربية وتعليمها، وحرِيٌّ بنا أن نتعلمَ منها فَنَّ الدّرسِ اللغويِّ،

وفنَّ إتقانِه، وقبلَ ذلكَ وبعدَه نتعلمَ أدبَ الدّرسِ والنّفسِ.

وفي الختام، لا بدَّ من الشكر والعرفان للأخ أبي حيدر أحمد الفايز فقد استفدتُ منه كثيرًا، فقد شارك في توفير مجموعة من المصادر والمراجع القيمة من كتب الشيخ الدكتور عبد الهادي الفضلي، والشكر والعرفان موصولان للأخ حسين منصور الشيخ فقد استفدت من بعض كتاباته حول الشيخ الدكتور الفضلي خصوصًا فهارس كتبه، وكتابه الآخر «الدكتور عبد الهادي الفضلي تاريخ ووثائق».

اللاسجالية في كتابات الدكتور الفضلي ومحاضراته

■ الأستاذ جابر عبد الله الخلف ■

□ تعريف السجال

في اللغة: «سَجَل الشيءَ أرسله متّصلًا، وأسجلَ الكلامَ: أطلقه وأباحه، وتساجلُوا: تبارَوْا وتفَاخَرُوا، والمساجلة هي: المفاخرة والمباراة في العمل أيهما يغلب صاحبه، وقالوا: الحرب بينهم سِجال؛ أي: مرة على هؤلاء ومرة على أولئك. ومن المجاز: ساجله مساجلة؛ إذا باراه وفاخره بأن صنع مثل صنعه في جَرْي أو سَقْي. وأصله في الاستقاء، وهما يتساجلان؛ أي يتباريان».

بعد ملاحظة ما تنطوي عليه هذه المادة اللغوية من معاني التباري والتفاخر، وإرسال الكلام وإطلاقه بقصد التغلب والمفاخرة، نخلصُ إلى الفكرة الأساسية في الموضوع، ألا وهي: (اللاسجالية في كتابات الدكتور الفضلي ومحاضراته)؛ وذلك لضرورة توضيح مفهوم «اللاسجالية» الواردة في العنوان.

وهو المعنى اللغوي الذي أخذ في التطور حتى استحالت لفظة

(السجال) من معناها القاموسي البسيط، فأصبحت مفهومًا مرتبطًا بالغلبة والمعارضة والنزاع في النقاشات الفكرية والمناظرات الدينية والمذهبية. فالسِّجال مصدر سَاجَلَ يُساجل، بمعنى: نَاوَبَ في الكلام مرةً بعد مرة، ثم استعملت المساجلة في المعارضة والمباراة في كل شيء، وقولهم: «الحربُ سجال» صارت مثلًا يضرب في النزاع والجدال وفي غيره[1].

☐ ابتعاد الدكتور الفضلي عن السجال السلبي

إن من المزايا التي يتمتع بها الدكتور الفضلي ـ من خلال إجراء قراءةٍ ولو عابرة لكتاباته ومحاضراته ـ حرصه الشديد على أن يكون خارج ما يمكن وصفه بالسجال الفكري والديني بمعناه السلبي المتضمن للمبالغة والمعارضة والمناطحة والمبارزة والكر والفر، فهو لا تبدو عليه صفات المطارح فيما يتناوله من أفكار سواء كان في كتبه أو محاضراته؛ بل يبدو بسيماء الباحث الأكاديمي، ومزايا الحوزوي في انتظام أفكاره وعمقها وشمولها، فتراه ينتخلُ وينتقي أعقد الأفكار من قتام الصراعات والسجالات قبل أن يباشر بها جمهوره، أو يفاجِئ بها قرّاءه، كما ينتقي الفلاح جيد البُر من رديئه.

فهو قارئ نقدي بامتياز، وباحث منهجي يسمو بأسلوبه عن مبدأ

(١) قال اليوسي في زهر الأكم في الأمثال والحكم: «ولفظ السجال في المثل جمع، ولا يصح أن يكون مصدرًا بمعنى المساجلة»، وخالفه الزمخشري في المستقصى في أمثال العرب بقوله: «يجوز أن يكون مصدرًا بمعنى المساجلة، وهي المباراة»، وفي عصرنا تطور مفهوم الكلمة إلى معان كثيرة، مثل: مساجلة كلامية، ومساجلة شعرية، وسجال فكري، أو مذهبي، أو صحفي.

(المطارحات والمناطحات)، وهو حريص أدقَّ الحرص على انتقاء ألفاظه وعباراته وأفكاره من بين ركام الألفاظ والعبارات والأفكار السجالية المتراصة في متون الكتب، كما أنه يُعَرِّيها من أسمال القراءات السجالية التاريخية والمذهبية، فأسلوبه رصين رصانة (الأكاديمية)، ومتين متانة (الحوزوي) الأصيل.

محاضرٌ بارز استطاع بما يمتلكه من قدرة على المناورة الفكرية، وبما يتسلح به من منهجية وإيجاز ناصع الإيحاء والإشارة، ناصع اللفظ قليل العبارة، فقد استطاع أن يشد إليه جمهوره ومتابعي محاضراته، واستطاع أيضًا ـ بعد تجربة علمية عريقة، وخبرة أكاديمية ـ استبدال المنهج السجالي في الطرح الفكري والأدبي بمنهجية (ملء الفراغ) في المكتبة العربية الإسلامية، فأصبحت دروسه وكتبه ومحاضراته تملأ النفس والعقل والقلب، وأخذت مع الوقت تسد الفراغات والفجوات المسكوت عنها، سواء كانت فراغات فكرية، أو عقائدية، أو فقهية، أو لغوية، أو نحوية.

وقد خلت كتبه ومحاضراته أو تكاد من العناوين السجالية؛ بغية النأي بأفكار قرّائه، ورواد محاضراته عن الارتجالية والاستفزاز المذهبي، أو الغلو الديني. فلا (مطارحات) ولا (مناطحات في الفكر)، ولا مبالغات، أو مخاصمات، وإنما (سلوكنا من منظور إسلامي)، و(كيف نقرأ التاريخ)، و(كيف يجب أن يكون النقد)، و(الإمامة والأمة)، و(حضارتنا في ميدان الصراع)، و(المسؤولية الخُلُقية)، و(مشكلة الفقر)، و(أصول البحث)، و(الإسلام مبدأ)، و(أصول البحث)، و(تحقيق التراث) وغيرها.

فقد أثبت الشيخ الفضلي بما تناوله من دراسات أنه خارج تقاليد السجال المذهبي، أو الديني، فلا تراه قد تأثر بطاحونة السجال التاريخي فيما يطرحه من أفكار أو طرحه من قضايا، بل تناول ذلك بعقلية القارئ الواعي، ومنهجية الباحث المقارن؛ ولذا لا تراه مشغوفًا بطرح كل فكرة قد أكل عليها الدهر وشرب، أو تراه مولعًا باستعادة التاريخي بوصفه مأزقًا ومزلقًا، فليس من مصلحة الواقع والمستقبل الزج بالتاريخ بكلاكله دون مبرر منهجي.

كما أنَّ الدكتور الفضلي في كتاباته المختلفة، ومحاضراته الإسلامية المتعددة يتبنى منهجية النقد بوصفها الوسيلة المثلى في دراسة الأفكار، وهو يطرح النقد باعتباره وسيلة هدم وبناء: هدم الآيل للسقوط من الأفكار، وإعادة إعماره بمواد معاصرة، وآليات حديثة، فيقدم البديل النافع.

وقد دعا في إحدى محاضراته التي كانت بعنوان: (المناهج المعاصرة في تفسير الظاهرة الشرعية) إلى «اتباع طريقة الإمام الصادق عليه السلام، وهي نقد المنهج»، بدلًا من نقد المفردات الذي لا ينفع، وقد أشاد في محاضرته بمنهجية السيد محمد باقر الصدر في نقده العلمي الموضوعي لأفكار الرأسمالية والاشتراكية في كتبه الفكرية الرائدة. فمنهجية: «فإن قالوا قلنا» بوصفها المنهجية الذهبية لأنصار السجال المذهبي والديني أثبتت بعد أكثر من عشرة قرون فشلها في حسم النتائج حسب تعبير الأستاذ فؤاد إبراهيم.

وقد ساهم الدكتور الفضلي مساهمة أصيلة في التأكيد على مبدأ

احترام الآخر المؤسس أصلًا على احترام الذات، وقد ساهم أيضا في صياغة مفاهيم إسلامية تقوم على تعدد وجهات النظر، وتأصيل مبدأ النقد كبديل أساسي عن مقولة: «قالوا وقلنا» وجدليتها غير المجدية في فهم الآخر.

وقد استفاد ذلك من أساتذة له كرام، ساهموا في صقله فكريا وفقهيا وأدبيا، وهم (المحمدون الأربعة):

الشيخ محمد رضا المظفر (ت ١٣٨٤هـ)، ومساهمته الرائدة في تأسيس كلية منتدى النشر، التي ساهمت في تجديد الدرس الحوزوي، وخرجت جيلا من العلماء والأدباء المجدين والمصلحين في شتى مجالات الحياة الفكرية والأدبية، والسيد محمد باقر الصدر (ت ١٤٠٠هـ)، ودوره الريادي في الدراسات الإسلامية المختلفة، في الفقه الاقتصادي والأصولي والفكري، والشيخ محمد أمين زين الدين (ت ١٤١٩هـ)، ودوره الأدبي، وجهاده الإصلاحي، وأطروحاته التغييرية الهادفة، وما تربى على يديه من تلامذة أفذاذ، والسيد محمد تقي الحكيم (ت ١٤٢٣هـ)، وما طرحه من دراسات أكاديمية مقارنة في كتابه الأصول العامة للفقه المقارن، وكتابه الآخر من تجارب الأصوليين في المجالات اللغوية.

فقد كان لهؤلاء الأساتذة الكرام ﷺ الأثر البارز في التكوين الثقافي والفكري والأدبي للشيخ الفضلي، فالملاحظ على كتابات هؤلاء الأساتذة الأفذاذ انشغالهم بالهم الإسلامي، والمشاركة في الإصلاح الاجتماعي والديني والثقافي والأدبي أكثر من انشغالهم بالسجالات

المذهبية والدينية، أو الردود واستعادتها، بل ساروا نحو أهدافهم دون ضجيج أو ضوضاء، ونأوا بأنفسهم عن مثل هذه السجالات التي أصبحت شاغلًا عن الهم الحقيقي لقضايا الإسلامية.

ومن أبرز الأمثلة على ابتعاد الدكتور الفضلي عن الغرائز السجالية دراسته المعنونة بـ (قراءة في كتاب التوحيد) لمؤلفه الشيخ الدكتور صالح الفوزان، التي ربما تبدو للوهلة الأولى أنها تجربة سجالية ناجحة، لو كان الدكتور الفضلي من ذوي الطرح السجالي المذهبي، ولكنّ منهج العرض، وطريقة التناول، وأسلوب المعالجة التي تناول بها أفكار الكتاب تنم عن حرصه الشديد على التزام (منهجيته) الفُضْلَى، ألا وهي منهجية النقد العلمي الموضوعي بعيدًا عن الردود الارتجالية الطارئة، والاستفزاز المتعجل.

فبعد أن عرّف الدكتور الفضلي بالكتاب، وقدّم عرضًا لمضامينه في نقاط محددة، قال معرّفًا بالكتاب: «نهج فيه مؤلفه المنهج السلفي فحاكم في ضوئه، وحكم على هديه»، ثم أضاف: «قرأته، فقدّرتُ في مؤلفه الكريم غيْرَتَه على الإسلام، وأكبرتُ محاولاته الخيرة في الدفاع عنه بتعريفه المذاهب القديمة والحديثة التي تخالف الإسلام، أو تختلف معه كليًّا أو جزئيًّا، وهذا ما كنا نرغب في أن يكون من جميع الكتاب المسلمين؛ لأن الدفاع عن العقيدة واجب ديني، وحق قانوني».

وفي هذه النصوص السابقة تجلى الدكتور الفضلي بموضوعيته الأكاديمية، وحياده الإيجابي، فقد قرأ الكتاب قراءة واعية، وعرّف بمنهجه، وقدّر لمؤلفه غيرته الإسلامية، وأكبر فيه محاولاته الخيرة في

الدفاع عما يعتقده من أفكار إسلامية، وهذا خير دليل على حسن الظن بالآخرين، والثقة في عاطفتهم الدينية، وأكد على أن الدفاع عن العقيدة واجب ديني، وحق قانوني.

وقد بسط الدكتور الفضلي في قراءته العذر للشيخ صالح الفوزان حين قال: «لفت نظري فيه [أي في الكتاب] شيئان استوقفاني عندهما طويلًا، فأحببت أن أوضحهما أكثر؛ لعل فيهما ما لم يطلع عليه سعادة الدكتور الفوزان».

وهذا التزام منهجي بأخلاقية الحوار البناء النافع، وليس التورط في المنهج السجالي غير المجدي، مع أن موضوعات الكتاب ذات مضامين سجالية في الإرث التقليدي للمذاهب الإسلامية.

حتى تناوله للتاريخ بحضوره المسيطر؛ وذلك في محاضرته «كيف نقرأ التاريخ؟»، فقد برز دوره النقدي للتاريخ وحركته بوصف النقد قيمة حضارية، وقد سعى سعيًا جادًّا إلى تأصيل ذلك في محاضراته حين يطل بها على جمهوره في المناسبات الاجتماعية والاحتفالات العامة؛ لحرصه الشديد للمشاركة في تنمية الوعي الاجتماعي، ففي محاضرته هذه حرص ـ في هدوء بليغ ـ على بيان العوامل المؤثرة في كتابة التاريخ، مثل: الجو السياسي والثقافي، وعقيدة المؤرخ، والميول السياسية للمؤلف وثقافته وعلاقاته، والبيئة الثقافية، وبيان أسباب التحريف والتزوير.

كما أنَّ مَنْ يستمع إليه في محاضراته أو يقرأ له؛ يلاحظ حضور التراث في كتاباته بما يمثله من أصالة دون مبالغات في تمجيد الماضي، أو آراء السلف، ويلاحظ أيضًا حضور المعاصرة بما تمثله من فاعلية

وحضور. فالدكتور الفضلي يظل ابن عصره؛ ولذا تراه وفيًّا له، فما يطرحه من موضوعات تبدو تاريخية أو تراثية، لا يطرحها بجلباب الآباء والأجداد، وإنما يخلع عليها أحدث الأساليب المعاصرة في توافق هارموني جاذب.

وفي كثير من المناسبات الاجتماعية، كما في كتاباته ومحاضراته، طرح موضوعات تناولها مفكرون عالميون لها علاقة بالدراسات الإسلامية سواء في دول عربية، أو إسلامية، أو غربية لها أبعاد واسعة، مثل: العلمانية والمناهج المعاصرة في نقد الظاهرة الدينية، والدراسات الاجتماعية والاقتصادية وغيرها، ولكن لم يتنازل عن منهجه النقدي والإحيائي.

وأخيرًا، يلمسُ كلُّ من يلتقي بالدكتور الفضلي ويحادثه أنه خير مثال لقول الشاعر:

وتـراهُ يُصـغِي للحـديثِ بسـمعهِ   وبقلبـهِ ولعلـهُ أدرَى بـهِ

جذور التجربة المنهجية عند العلامة الفضلي

■ الأستاذ عيسى مبارك محمد الربيح ■

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾[1].

إن المتتبع للمسيرة العلمية، والحراك الثقافي المتنوع، والتراث العظيم الذي خلفه لنا العلامة الفضلي ﷺ، يصل إلى نتيجة حتمية بسمو هذه الشخصية، وعمق الأصالة في تجربتها، وأنها بحق تشكل ظاهرة في تاريخ الحوزة العلمية في عصرنا الحالي هذا، وتمثل بجهادها الطويل رقمًا مهمًا في تاريخ علماء الشيعة العاملين الواعين لمسألة النهوض والتغيير والإصلاح والتجديد (نظريًا وتطبيقيًا).

وقد صنع العلامة تجربة رائدة في عدة جوانب علمية، لها سماتها البارزة المميزة وبصمتها الخاصة، وجذورها وأسسها وعطاءاتها وثمارها، فلم يكن الفضلي مكملًا لصفوف حوزوية أو أكاديمية تمر على هذه البسيطة، تمشي وترحل وينساها الزمن والأجيال، إنما كان مفصلًا

(١) سورة التوبة، الآية: ١٢٢.

ومنعطفًا في هذا المسار.

وسنحاول في هذا المقال أن نشير إلى بعض من جذور هذه التجربة في أطرها المنهجية.

□ سرّ التفرد لشخصية العلَّامة الفضلي

هل الظروف الحوزوية الكائنة بالنجف هي التي صنعت لنا الشخصية العلمية والحركية للعلامة الفضلي؟ وهل وجوده في ذلك الجوّ مع أساتذة كبار وزملاء شكل عاملًا رئيسًا في ذلك؟

هل مزاوجته في الدراسة بين الجامعة والحوزة أوجد في تجربته متانة واتساعًا في الشأن العلمي والتخصصي؟ وهل انخراطه في الأحزاب والمؤسسات الثقافية في الجامعة أو في النجف أو فيما بعد التقاعد أوجد عنده حاسة الوعي الاجتماعي والسياسي والأسلوب العصري في الخطاب؟

هذه أسئلة لا محيد من طرحها حينما نستجمع سيرته العلمية وعطائه، وهذه المفاصل في حياته تبدو من أول وهلة عوامل رئيسة جعلت كثيرًا من الدارسين الذين تناولوا مسيرته يقفون عندها، بل ويجعلونها محطات أساسية لمسيرته العلمية والعملية.

لكن بشيء من التحليل العميق، والوقفة المطوّلة، نستطيع الجزم بأن هذه العناصر والظروف لا تعدو كونها عوامل مساعدة، أما المحرك الأساسي للشخصية فهو وعيه وعمق تفكيره لما يجري حوله ولما يتلقاه، فلولا الاستعداد والرغبة الملحة والنزعة التطويرية والتجديدية والنظرة

الشمولية والعصرية التي امتلكها العلامة منذ نعومة أظفاره، لم يكن لجميع تلك الظروف والبيئة والشخصيات أي أثر في شخصيته.

بل يمكننا القول بأن التفرُّد والتميز الشخصي هو الذي يصنع فارقًا لأثر الشخصية، وهذا جليٌّ في المخرجات التعليمية سواء في الحوزة أو الجامعة. وقد تتباين العوامل والظروف في توفير بيئة تعليمية محفزة، لكن من يصنع الذهنية هو رغبة الشخص نفسه واستعدادها ونوعية تفكيره وبواعث انطلاقه. وأن خصائص ذاتية اتسم بها العلامة، مثل: إعادة التفكير فيما أنتجه الماضون، والتأمل العميق فيما يتلقاه الشخص، ووعي الإنسان واتساع إدراكه ورؤاه للأمور والقضايا، وإشعال الزوايا بالأسئلة عن الدور والموقع للمنظومات المؤسسية للمجتمعات، والبحث عن الحلقات المفقودة، والدخول في معترك البناء والتطوير، ... وغيرها، هو ما ميّز تجربة العلامة الفضلي، وجعله رقمًا مهمًّا في تاريخ الحوزة العلمية.

نقول ذلك؛ لأن هناك سؤالًا يحثنا على تحليل هذا الأمر بهذه الصورة، وهو: لماذا لم تصنع في ظل هذه الظروف التي عاشها العلامة الفضلي أو المشابهة لها المئات بل الآلاف من التجارب المميزة؟

وسنطرح التساؤل بطريقة أخرى: لماذا تفرّد الفضلي وأشباهه من النوادر والقلة بحمل هذه التجربة عن غيره من المئات والآلاف من الطلبة الحوزويين أو الجامعيين؟

وهذا ما نجده في مسيرة العلامة الفضلي، فمحطاته التي يقسمها الباحثون نجد أنها تعكس تجربته، حيث هو الذي يكنز الظروف

ويقنص الفرص ويبادر في صنع المكوّن الذي به سيبني تجربته لبنة لبنة، فهو لا يخضع شخصيته ويتماهى بها إلى درجة أنه يكون انعكاسًا للتجربة الحوزوية فقط، وكأنه يقاد لتجربة، ويكون ضمن سياق جمعي لا يعي موقعه، ولا يدري ماذا يريد وماذا يقدم وأين هو؟ بل هو واعٍ لدوره، يعكس في مرآته ما ينسجم مع تفكيره ومستواه الواعي، حيث نجد هذا الأمر واضحًا في حواراته وأحاديثه ومحاضراته وكتبه.

□ المكون الثلاثي للطالب الحوزوي

يظن البعض بأن التلقي العلمي من الحوزة هو لوحده كافٍ في صنع الطالب الحوزوي، لكن لدى العلامة الفضلي يبدو أن الأمر مختلف، فقد نقل السيد عبد الله الغريفي - في مهرجان تكريم العلامة الفضلي، حينما أثار على الحضور سؤاله الذي سأله للعلامتين الصدر والفضلي، وكانت الإجابة على حد قول السيد متقاربتين، وكان السؤال الذي سأله: كيف أكوّن نفسي طالبًا حوزويًّا؟ فكان مما قاله له العلامة الفضلي:

«لكي تكوِّن نفسك طالبًا حوزويًا، عليك بمجموعة مكونات:

١. المكون العلمي من خلال دروس الحوزة.

٢. المكون الثقافي والفكري، والذي قد لا تقدمه الحوزة فيجب أن تصنع لنفسك برنامجًا فكريًّا وتثقيفيًّا لكي تصنع وعيًا وثقافة في داخلك.

٣. المكون الروحي والأخلاقي والعملي ليكون نموذجًا للتقوى والورع».

وعبر هذه المنقولة، نجد أن المكونين الثاني والثالث يحملان في داخلهما المكون الأول، بمعنى: أن المكون الأول لا يصنع من الشخصية شيئًا يذكر، إذا لم يردفه الطالب الحوزوي بالثاني والثالث، والذي هو يعود للشخص نفسه الذي يبادر ويصنع الفرص والظروف والعوامل ليكوِّن به شخصيته وتجربته.

وهذه المكونات الثلاثة هي التي كوَّنت لديه أرضية صلبة ليبني عليها مشروعه المنهجي الحوزوي التجديدي، فلولاها لم يكن لبنية مشروعه أي متانة وأي قوة. فالتلقي لوحده لا يصنع مشروعًا، بل يكون نسخة مكررة من أستاذه، ومن مواد حوزوية.

ولو عملنا مسحًا سريعًا للكتب المنهجية التي وضعها العلامة، سنلاحظ بقوة توفر هذه المكونات بالأخص الأول والثاني، لأنهما مرتبطان بالمنهجية أكثر. ويمكن لنا أن نشير بشكل سريع إلى كتاب (خلاصة المنطق) الذي كان خلاصة لكتاب المنطق للعلامة المظفر، وإلى كتاب (مذكرة المنطق) والذي اختلف عنه، حيث أضاف العلامة موضوع تاريخ العلم وموضوعات المنهج القديم وموضوع مناهج البحث العلمي وهو ما استجد طرحه في علم المنطق، واستبعد مباحث، منها: مبحث الصناعات الخمس[1].

---

(١) راجع: حوار حسين منصور الشيخ بعنوان (الدكتور الفضلي ومشروع تحديث نظام الدراسة الدينية) في كتاب العلامة الفضلي: حوارات في الدين والفكر واللغة، ص ٢٠١ - ٢٣٢.

☐ البذور الأولى لتكوين التجربة

لقد أدرك العلامة الفضلي في مرحلة مبكرة جدًّا من مسيرته العلمية الكثير من مواطن الخلل والضعف في التعليم الحوزوي، فبدأت أولى تكوين بذراته عن طريق الملاحظة الدقيقة أثناء دراسته للمقررات الأولى للمبتدئين في الدراسات الحوزوية، وهذه الملاحظة استطاع أن يشخصها ويحددها لنا عبر عنصرين رئيسين، هما: (المنهج والجانب التربوي في التعليم الحوزوي)، فتمخضت عنده ملاحظات هنا وهناك، ثم حاول في إطار الحلول والبدائل أن يضع قدمه لبناء مشروع بدأ يرتسم في خاطره وهو للتو يدرس (مادة المنطق) أولى المواد الحوزوية، واستمر في الخطى إلى آخر عمره الشريف، والحصيلة تقديم مكتبة متنوعة شاملة لمعظم العلوم الحوزوية، جمع فيها ميزات وخصائص جديدة في المنهج والمقررات.

فهو استشعر عمق المشكلة، فترجمت في ذهنه خطوات الحل بعدما أدرك أسبابها وبواعثها. وهو في هذا الإطار لم يرشق بسهام النقد الذاتي الكيان الحوزوي فقط، ولم يستجمع هجومه الشرس ضد هذا الكيان، ولم يتراجع بانهزامية وينكص على عقبيه، ولم يغطِّ وجهه ويكمل المسيرة العمياء، إنما أخذ يتأمل ويجول لينقذ نفسه وجيله والأجيال القادمة. وبدلًا من الاستغراق في دائرة الحالة النقدية، والخطاب النظري والتنظيري، والانسحاب من ساحة المعترك، كانت الشخصية والذهنية العلمية للعلامة أكبر من هذه الحدود، فقد قام برسم خطوات الحل والعلاج ليرسم صورة جديدة، ودخل بثقله وجهده لساحة الصراع، ودمج عناصر مفقودة في أروقة الحوزة لتتناغم الحالة الذهنية للمتعلم

مع الحالة المعاصرة. يقول الشيخ متحدثًا عن المراحل الأولى لهذه المرحلة من حياته العلمية: «كنت أتأمل الآية القرآنية: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾[1] التي يمكن اعتبارها قانونًا وسنة إلهية، حيث تفيد الآية أن هناك خطًّا وهدفًا يمشي نحوه الإنسان، ولا يوجد ما هو عبثي في هذه الحياة، بل هناك ما يتوخاه الإنسان من حياته التي يعيشها (...) وهذا أمر جعلني أضع أمامي هذا السؤال في كل كتاب أدرسه، وكل موضوع وباب فيه، بحيث أضع نصب عيني الفائدة من دراسته وموقع هذه الفائدة داخل العلم وفي كل باب منه».

ولا تكتفي التجربة عند هذا الحدّ، بل هي ناظرة للمستقبل الذي ينتظر الطالب الحوزوي حينما يقول الشيخ متممًا لهذه الفكرة: «وهذه النقطة كانت مفقودة في المقررات القديمة، وللأسف إن هذا الأمر لا يزال قائمًا (...) فطالب الحوزة يبدأ دراسته الحوزوية بغرض الدراسة، ولا تجد لديه هدفًا وراء ذلك، غير أن بعضهم يتخذها كأنها أمر وراثي، إذ يكون ابنًا لأحد طلاب العلم، فيتبع والده ويرث عنه مسجده ودوره الاجتماعي من تزويج وتطليق ووعظ وإرشاد تقليدين. من غير أن يدرك هؤلاء أن الهدف من الدراسة الحوزوية هو التبليغ، الأمر الذي يقتضي أن يعي كل طالب أهمية هذه النقطة والآليات الصحيحة لتحقيق هذا الهدف»[2].

(١) سورة المؤمنون، الآية: ١١٥.

(٢) قراءات في فكر العلامة الفضلي، إعداد/ فؤاد الفضلي، حوار/ حسين الشيخ مع الفضلي، ص١٩٥-١٩٦.

فالمعادلة التي كانت تحثه على النهوض والحراك: أن الشتات والعبثية لا تولد إلا مثيلاتها، وأننا لكي نقدم نتائج منظمة ملموسة على أرض الواقع العلمي والثقافي والاجتماعي، فلا بدَّ من إيجاد وحدة نظامية للمدخلات. وأن يسعى الطالب في تكوين الباعث والهدف من عملية التعلم والدرس؛ لتكتمل عملية التفاعل بين الحوزة والمجتمع والمادة العلمية.

وقد اعتبر العلامة الفضلي أن (التبليغ) هو الهدف الذي ينبغي أن يحمله المنتسب للحوزة العلمية. وقد حدد العلامة في مقال له بعنوان (التبليغ الإسلامي)[1] المجالات الفكرية التي ينطلق فيها المبلغ الديني:

١. «العقيدة الإسلامية.

٢. التشريع الإسلامي.

٣. الأخلاق الإسلامية»[2].

وذكر وسائل لإيصال هذه المجالات، هي: «التعليم. التربية. الإعلام»[3]. كما اعتبر أن التبليغ الإسلامي امتداد للظاهرة النبوية الدينية بقوله: «التبليغ الإسلامي هو امتداد لظاهرة التبليغ الديني، تلك الظاهرة التي انوجدت مع بعثة أول نبي حمّله الله تعالى مسؤولية تبليغ الشريعة الإلهية إلى الناس الذين بعث إليهم»[4]. وقد اعتبر أن الحوزة

---

(١) مجلة المنهاج، العدد ٢٢، عام ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م، ص ٦٣.

(٢) المصدر نفسه، ص ٦٦.

(٣) المصدر نفسه، ص ٦٦.

(٤) المصدر نفسه، ص ٦٧.

العلمية من أهم مؤسسات التبليغ في المجتمع الإسلامي، حينما عدد أهم مؤسسات التبليغ.

وهنا يعيد العلامة نصاب الأمور كما يريد المشرع لها، فـ «العلماء ورثة الأنبياء»، والوسائل والأهداف التي أشارت لها النصوص الشرعية، ينبغي أن يقتفي أثرها طالب العلم، ليقوم بالدور الرسالي على أكمل وجه. وبصورة موجزة: كان هناك عنصران مهمان يريد العلامة أن يوجدهما، هما:

١. عنصر المنهجية والتنظيم في الناحية التربوية التعليمية.

٢. عنصر الهدفية والرسالية في الناحية الاجتماعية.

إنه يريد مزج الذهنية العلمية بالواقع، ويريد تفاعلًا لطالب العلم، ويريد أن يتوفر المنهج الدراسي على عناصر ليصنع الطالب دائرة تجمعه بالمنهج والواقع.

☐ على خطى المنهجية

لم ينسب العلامة لنفسه الريادة في سبيل هذا المشروع، فهو دائمًا تجده وفيًا لمن قبله، يقتفي آثارهم، ويدعي لنفسه أنه ما هو إلا مكمل للمسيرة، وهذا الأمر له باعثان: أخلاقي، وعلمي.

فالدافع الأخلاقي هو: نكرانه لذاته وسمو تواضعه، وأنه لا يرى لنفسه شيئًا يُذكَر قِبال الشخصيات الإصلاحية الإسلامية والتي قدمت خدمات للمذهب والحوزة، وأنه يجد نفسه وفيًا لدينه وحوزته وأساتذته الذين اغترف منهم تلمذةً وقراءةً واطلاعًا. فقد كان يشير في

أكثر من مناسبة في حواراته ودراساته للعلماء: المظفر والصدر والحكيم وزين الدين ... وغيرهم ممن تلمذ على يدهم في هذا المجال.

وقد تبين للمتابع عمق ملاحظاته العلمية ومنهجه الدقيق حينما تناول بالدراسة مناهج الصدر والحكيم والمظفر في أكثر من دراسة، وقدرته على استنطاق مفردة المنهج للمدونات الأصولية والفقهية، لاستخلاص الأسس العامة لطرق البحث والاستدلال. إضافة إلى استنطاقه لملامح الحركية والإصلاح والإحياء في حياة بعض العلماء الذين تناولهم في دراسات ومقالات ومحاضرات كثيرة[1]، ونلاحظ ذلك جليًّا في مادة (أصول الفقه)، حيث نزعة التطوير والتجديد تبدو في أوجها وأوسعها، فقد خصص لهذه المادة أربع مقررات علمية، هي: (مبادئ أصول الفقه)، و(قواعد فهم النص الشرعي)، و(دروس في أصول فقه الإمامية)، و(أصول البحث)، إضافة إلى الدراسات العلمية: (علم الأصول ودور الشهيد الصدر)، و(منهج دراسة النص لدى الحكيم)، و(منهج البحراني في الحدائق الناضرة)... وغيرها. وهي تنم عن ذهنية علمية منهجية دقيقة في رصد المنهج لدى المنتج الأصولي والفقهي لعلمائنا، وهذا العلم هو عماد الدراسات العليا (البحث الخارج) في حوزاتنا العلمية.

إضافة إلى ذلك، قام بنفسه تطبيقيًّا بخوض هذا المنهج الذي أسس له ونظّر له بخطوات علمية، عبر دراساته الفقهية المعروفة، مما أكسب التجربة متانة علمية وعمقًا أصيلًا وواقعية مدروسة وبعدًا عمليًّا

(١) وخير مثال لذلك كتابه ذو الجزأين (هكذا قرأتهم).

مفصلًا لمن يريد أن يخطو هذا المسار، ولذلك تكتمل منظومة التجربة المنهجية في بعديها النظري والتطبيقي وبجميع المستويات.

◻ المنهجية والانفتاح على الواقع المعاصر

إن الارتباط بالواقع عند العلامة والذي سعى له كعنصر أساسي للمنهج والمقرر، يعني الانفتاح على كل مفرزات الواقع، لتصقل ذهنية الطالب علميًا واجتماعيًا، وهو في الوقت ذاته يريد من المنهج الحوزوي أن يتجاوز ذلك الانغلاق الذي عزله عن الواقع مئات السنين. فانظره يتحدث عن تجارب حديثة للتجديد الحوزوي في حوار له، وقد كان المحاور يسأل العلامة حول تجربتي الشيخ الأيرواني والسبحاني، فكان مما قاله: «التفكير في التجديد – بحد ذاته – أمر جيد، وأن يُقْدِمَ الإنسانُ على تحقيق هذا الأمر ويحاول، فهذه خطوة ثانية إلى الأمام. ولكن الأمر الذي أرى أن كثيرين يفتقدونه هو الاقتصار على ما لديهم في الحوزة، بينما من المفترض أن ينفتحوا على المؤسسات الأخرى والمؤلفين الآخرين من الاتجاهات الأخرى ويرون ما لديهم ويحاولون أن يستفيدوا منهم، لأن الطريقة الحوزوية هي طريقة موروثة لأكثر من ٥٠٠ عام، بينما نحن نحتاج الآن إلى الطرق والأساليب الحديثة للتعبير، ولذلك فإن أهم ما يؤخذ على هذه التجارب أنها تفتقد الاستفادة من التجارب الحديثة في تطوير المناهج الحوزوية»[1]. وفي حوار له أشار بصورة سريعة إلى مواصفات مصمم المنهج، وهي: الموهبة، والاطلاع

(١) حوارات في الدين والفكر واللغة، مصدر سابق، ص ٢١٥.

على المناهج الأخرى، والنظرة للمستقبل[1]. فالاستعداد والاطلاع الواسع والنظرة المستقبلية لا شك أنها تفتح الرؤية للمصمم ليضع في الحسبان احتياجات الأجيال ومتطلبات المعاصرة.

☐ اللغة العلمية المنغلقة

من الأشياء التي لاحظها العلامة، وهي تشكل عائقًا علميًا للطالب الحوزوي في فهم الأفكار والمعاني المبثوثة في الكتب الحوزوية: انغلاق العبارة في الكتاب الحوزوي، بحيث لا تُفَكُّ هذه العقدة إلا بأستاذ يقوم بشرح العبارة. وقد اعتبر العلامة هذه الظاهرة في الأسلوب التعبيري للكتب الحوزوية من المآخذ المنهجية، وقد فصّل القول فيها في مقال متخصص له متحدثًا عن تجربته في التعليم الحوزوي، وقد حدد ملاحظتين، هما[2]:

١. **الجمود على المواد العلمية الموروثة وعدم إضافة مواد لها دخل مباشر يساعد على التخصص في الفقه، مثل: علم الرجال والحديث، ودراسة الحياة الاجتماعية للمسلمين في عصر التشريع ... وغيرها. مما أثر في خلق حالة جمود على المقررات والكتب العلمية.**

٢. **الجمود على طريقة شرح العبارة في التدريس، وشرح المتون والتوقف على ما فيها من موضوعات.**

---

(١) انظر: حوار حسين منصور الشيخ في تحديث نظام الدراسة الدينية، مصدر سابق.

(٢) انظر مجلة الجامعة الإسلامية. العدد ١ ١٩٩٤م / ١٤١٤هـ. ص١٩٣. مقال له بعنوان: تجربتي مع التعليم الحوزوي.

وهاتان المؤاخذتان أو الملاحظتان كانتا في عناية العلامة أثناء مشروعه المنهجي.

فالانغلاق والجمود الذي لاحظه العلامة جليًا في أروقة الحوزة كانت له عدة زوايا وجوانب، عبر حدوده الزمانية والعلمية، ونوع أسلوب كتبها. فالعلامة الفضلي لاحظ القصور الداخلي والخارجي للمنهج في أدائه وأثره على الحصيلة العلمية للطالب.

☐ الحلول الجذرية

وبعد أن بيّن الملاحظتين في مقاله، أخذ يرصد اقتراحات وحلول لعلاج الحالة المُرَضِيَة، من قبيل:

1. **وضع شروط للقبول، منها: حصول الطالب على شهادة الثانوية.**
2. **إعادة كتابة المواد العلمية المقررة في المقدمات والسطوح بأسلوب علمي وشامل يربط الموضوعات ببعضها وفق منهج تربوي.**
3. **الاقتصار في البرنامج الدراسي على ما له علاقة بتخصص الطالب الفقهي، وإضافة علوم أخرى، كعلم الرجال والحديث والمعاملات المالية وأصول البحث العلمي والأديان والمذاهب المعاصرة والفقه المقارن والقانون والنظم المعاصرة وتاريخ التشريع.**

وهذه الحلول المطروحة، لا شك أنها تعد للطالب أرضية مناسبة لحصيلة أكثر عمقًا وأوسع أثرًا ليكون ذا ذهنية حاضرة تتفاعل مع الواقع والآراء، وتخطو بعمق وتخصص واتساع. فقد ركزت الحلول كما مر بنا على:

1. النظر لجهة الطالب في تهيئته ووضع شروط لانتسابه للحوزة.

٢. اعتماد الأسلوب العلمي التربوي المتدرج.
٣. الشمولية والتخصص.
٤. إضافة علوم تغطي الحلقة المفقودة في متطلبات الدرس الشرعي.

فقد وضع العلامة في اعتباره عنصر الطالب والأسلوب والمادة العلمية، وهذه هي عناصر العملية التعليمية فيما لو أضفنا لها عنصر الأستاذ.

فعلى سبيل المثال في مادتي: (أصول البحث، وتاريخ التشريع الإسلامي، واللتين تفرد العلامة بقصب السبق في التصنيف لهما وإلحاقهما بمقررات الدرس الشرعي) نلاحظ جليًّا إشارة العلامة للنقص الذي تعاني منه الحوزة في موادها. يقول العلامة في مقدمة مقرر (أصول البحث): «وإذا كان لي أن أذكر ما مررت به من صعوبة في **إعداد هذا المقرر، فهي عدم وجود تجارب سابقة في هذا المجال أتخذ منها العضد المساعد، فكل ما كتب في (منهج البحث العلمي) - مما اطلعت عليه - يقتصر ويركز على (المنهج التجريبي)، مغفلًا (المنهج النقلي) و (والمنهج العقلي) وهما عماد الدراسات الإسلامية في علمي الفقه وأصوله»**[1]. وهو ما راح يؤسس له مقدمتي الكتاب المطولتين في إدخال المنهج المعرفي الإسلامي المغيب في الدراسات الأكاديمية الجامعية، والمتمثل في الوحي والنص القرآني والنبوي وأهل البيت ﷺ. وقد أصل لهذه العناصر مكملًا بذلك الحلقة المفقودة.

أما في مقرر (تاريخ التشريع الإسلامي)، فقد ذكر أن العنصر

(١) أصول البحث، ص٦.

المفقود في الدراسات الإسلامية بالنسبة لمادة الفقه، وهو إهمال الفقه الإمامي من قبل المعنيين في هذا المجال، بالرغم مما اتسم لدى المذهب الإمامي من فتح باب الاجتهاد والنشاط المستمر للحوزات، مما حدا بالعلامة اعتبار «**أن هذه الثروة العلمية للفقه الإسلامي وما يدور في فلكه من تفسير ورجال وأصول وما إليها لحري ألا يهمل تاريخه، ليفاد منه علميًا، وليكون تقديرًا للجهود الخيرة التي ساهمت فيه**»[1].

وقد حدد المجال الذي تناوله في هذا المقرر، وهو تاريخ الفقه الإسلامي الإمامي، وذكر المبرر المنهجي لذلك بقوله: «**لأن تاريخ الفقه الإمامي - فيما وقفت عليه - يشكل الحلقة المفقودة في تاريخ التشريع الإسلامي، فقد ألفت عشرات الكتب في تاريخ فقه المذاهب الأربعة (...) ولم يقدر للفقه الإمامي أن يفرد بكتاب مستقل...**»[2].

هذا مع العلم أن العلامة لم يحالفه الحظ في تأليف مقررات في الأديان والمذاهب والقانون والنظم. لكن بنظرة استقرائية يستطيع كل باحث أن يجمع الخطوط العامة المنهجية لهذه المواد ومثيلاتها لإكمال المسيرة وفق المنهج الذي أسس له في المواد التي وفق للتأليف فيها. إضافة إلى ما كان يشير له من أفكار من بحوثه وحواراته وكتبه حول هذه المواد التي لم يوفق لها، وهي تمثل أفكار ناضجة، ومقدمات من الممكن للباحثين والمصممين للمناهج دراستها وفق خطة منهجية لإكمال المسيرة التي بدأها العلامة.

(١) تاريخ التشريع الإسلامي، ص٥.

(٢) المصدر نفسه، ص٦.

والغرض من ذلك كله تكوين ذهنية علمية للطالب لينطلق إلى البحث والحراك الثقافي والاجتماعي والتخصصي، ويكون واعيًا لمتطلبات عصره. لذلك كان العلامة واعيًا لمسألة مهمة في ناحية الهدف من التحاق الطالب للدراسة، وهو تنمية ذهن الطالب للبحث والعمل التبليغي، كما مرّ بنا. أما الاكتفاء بالتلقي فقط من أستاذ، أو الانحصار في مقرر أو مقررين، فهذا لا يبني ولا يحقق المطلوب والمأمول، وهذا ما دعاه لإلحاق العنصر التربوي لعملية التجديد بالإضافة لمنهجية المادة العلمية، قال: **«وما يكوّن الذهنية العلمية لدى الطلاب ليس العلم والمادة العلمية فيه، إنما التربية والممارسة، فالمدرس يستطيع أن يعلم الطالب فقهًا وأصولًا وعلم رجال وعلم حديث، ولكن هذه العلوم - منفردة - لا تكوّن داخل الحوزة المجتهد أو الفقيه، دون أن يمارس هذه العلوم أثناء الدراسة من خلال كتابة البحث - مثلًا - أو من خلال الأسئلة التطبيقية في كل مادة منها»**[1].

أخيرًا: إن الشرخ الذي كشفته العين المجهرية للشيخ كان واسعًا، والجرح الذي تلمسته يده كان عميقًا، مما يشير إلى أن خطط العلاج والبدائل والحلول لا بد أن تكون أقوى من الحالة المرضية لترسم مسار الخلاص والنهوض، وهذا مما يرفع من شأن مشروعه العلمي الذي امتد لأكثر من ٥٠ سنة، ويضع العلامة في مصاف الرواد والشخصيات الإصلاحية والمجددة في قرننا الحالي. ويجعله الابن البار للحوزة العلمية

(١) حوار حسين منصور الشيخ، مصدر سابق، ص٢١٩.

والتي وفى لها بجهده وأخلص لها بعمله، وطور من أدائها بإدخال عناصر هي بحاجة لها لتكون المخرجات في كفاءة عالية في دراساتها تنافس ما هو موجود في أروقة الجامعات والمعاهد العلمية في مجتمعاتنا المعاصرة؛ ليقدم الإسلام والدين والفقه بطريقة معاصرة، وهي مسؤولية كبيرة تقع على عاتق العلماء في كل عصر.

لقد كانت هذه جولة سريعة جدًا في جذور المنهجية لتجربة العلامة الفضلي الرائدة، أرجو أني وفقت لها؛ وكيف لعين صغيرة أن تصف بحرًا في اتساعه وعمقه وامتداده؟!.

عيسى مبارك محمد الربيح

الأحساء – الطرف

١٤٣٤هـ

المحتويات